الزحف نحو السماء
رواية

اسم الكتاب:الزحف نحو السماء

تأليف: محمد تيسير الحموى

رقم الإيداع: 21403\2013

الترقيم الدولي: 978-977-6376-47-2

***

إشراف عام:

محمد جميل صبري

نيفين التهامي

© جميعُ الحقوقِ محفوظةٌ. وأيُ اقتباسٍ أو إعادةِ طبعٍ أو نشرٍ في أي صورةٍ كانتْ ورقيةً أو الكترونيةً أو بأيةِ وسيلةٍ سمعيةٍ أو بصريةٍ دون إذن كتابي من المؤلف؛ يعرض صاحبه للمساءلة القانونية.

داركيان للنشروالتوزيع – ٢٢ ش الشهيد العي بجوار مترو أم المصريين – الهرم

محمول: ٠١٠٠٥٢٤٨٧٩٤ – ٠١٠٠١٨٧٢٢٩٠ – أرضي: ٠٢٣٥٦٨٨٦٧٨

www.kayanpublishing.com – info@kayanpublishing.com

الزحف نحو السماء

محمد الحموى

رواية

"كل نور لا يُزيل ظلمة لا يُعول عليه."

محي الدين بن عربي

.١.

توقف لحظة متأملاً البناء الذي أمامه.

مسح بيده على شعره بحركة لا شعورية ثمّ سوّى ياقة قميصه كي يعيد إليها بعضاً من رونقها.

ضحك زميله وقال ساخراً:

_ كأنك تدخل لتتقدم بعرض زواج.

_ أحبّ أن ألتقط أنفاسي قبل أن أقوم بهذا العمل السخيف.

_ وهل التقطت أنفاسك الآن ؟!

لم يرد، بل اكتفى باستعادة حمالة حقيبته الجلدية التي تنزلق كل بضع دقائق من فوق كتفه.

دخل الاثنان سوياً عبر البوابة الزجاجية التي تفتح آلياً ثم استقلا المصعد إلى الطابق الثاني حيث تركه زميله لينهي مهمته الأكثر سهولة في هذا الطابق وليتابع هو طريقه نحو الطابق الرابع وحيداً مرتبكاً.

مشى متمهلاً يتفحص أرقام الغرف بهدوء... 401 .. 402 ... 403..

كان الممر غارقاً في هدوء مخيف بعض الشيء... ربما لم يكن مخيفاً لكن توتره هو ما جعله مخيفاً إذ ترافق الصمت مع صوت نبضه المتعالي وصوت نقر حذائه على الأرضية اللماعة.

ازداد تسارع نبضه عندما وصل إلى الغرفة المنشودة... الغرفة 411.

وقف عند الباب قليلاً. أخذ نفساً عميقاً ثم نقر بطرف إصبعه نقرات خفيفة متلاحقة، لكنه لم يسمع شيئاً.

نقر مرة أخرى ولم يحظ أيضاً بإجابة، فحسم أمره بنقرة ثالثة أقوى قليلاً أدار بعدها يد الباب بهدوء وفتحه متمهلاً.

الضوء الشديد المنبعث من النافذة المقابلة للباب جعله يغلق عينيه بمجرد دخوله

محاولاً إيجاد الزاوية المناسبة لاستدراك رؤيته.

بعد لحظات استطاع أن يدرك السرير الذي وُضِعَ ملاصقاً للنافذة بشكل مقصود، والستارة الملونة التي أزيحت و نحيت جانباً عن آخرها لتكشف أكبر كمية ضوء من الممكن للنافذة أن تطلقها دون حواجز.

فوق السرير قبع العجوز الذي أتى لرؤيته..

كان مستلقياً بسلام يتأمل الضوء الآتي من وراء الزجاج دون حتى أن يلقي بالاً أو يلتفت كي يرى الداخل من باب الغرفة..

شعره القصير فضي اللون، و قد نبتت اللحية و الشارب باللون نفسه و بشكل عشوائي إلا أنه بدا بعشوائيته لطيفاً بالنسبة للضيف المرتبك..

_ صباح الخير.

التفت العجوز فاستطاع الشاب أن يلحظ عينيه لأول مرة و ارتبك أكثر عندما وجد العينين لا تمتان للعجوز بصلة، بل هما عينا عصفور مغرد نشيط أو عينا صبي كثير الحركة...

في العينين بريق وغليان دونما دموع طافرة، وكأنهما قد أصابهما وهج الضوء الباهر بحساسية ما جعلتهما تبدوان كذلك.

هزّ العجوز رأسه دليل رد التحية و نظر باستفهام من يطلب بقية المعلومات من الشخص المقابل.

تنحنح الشاب قليلاً ثم سعل سعلة مفتعلة تحضيرية و بدأ مهمته:

_ عفواً يا عم على إزعاجك.. اسمي واصل، أنا مندوب شركة الحياة للاستثمارات، لا بد أنك قد سمعت عنها.. نحن في شركة الحياة، وتعبيراً منا عن محبتنا الخالصة لأبناء مدينتنا، قد أوجدنا خدمة مجانية نقدمها للعامة سعياً منا لإعادة الابتسامة لشفاه الأطفال و البالغين بعد أن سلبهم المرض إياها، هذه الخدمة تقوم على فكرة تحقيق أمنية لإنسان مريض. عافاك الله. أمنية باستطاعتنا تحقيقها بالطبع، و قد تم اختيارك أنت يا عم من ضمن العديد من الأسماء، وكم يسعدنا أن نحقق أمنيتك.

سكت لحظة محاولاً اكتشاف تأثير كلماته على العجوز الذي لم يبدِ أية ردة فعل على ما سمع فاستأنف الشاب كلامه:

_ نحب أن نطلعك أيضاً أن اسمك سيبقى سرياً مع الأمنية الخاصة بك طيلة فترة تحقيق الأمنية، لا يعرف اسمك و هويتك الحقيقية الآن إلا المدير العام، ولن يعرف أي شخص بأمر الأمنية التي ستختارها إلا أنا و الإدارة و الكادر المسؤول عن تحقيقها، و هذا من حرص الشركة على الخصوصية و النزاهة حيث أن انتقاءنا للأشخاص ليس قائماً إلا على وضعهم الصحي، و الرغبة النابعة منا لدعم روحهم المعنوية، ولذلك جاءت شركتنا بهذه الفكرة الخيرة. طبعاً و بعد تحقيقنا للأمنية، سيتم إعلان هويتك و أمنيتك و تستطيع إن رغبت الاشتراك أنت أو أحد أولادك أو أقربائك في برنامج تلفزيوني خاص لتتحدث عن الأمنية وكيفية تحقيقها و ما إلى ذلك.

أنهى كلامه السريع و استطاع أن يشعر بقطرة العرق المنحدرة على جبينه.

لحظات الصمت التي تلت خطابه القصير مكّنتهُ من سماع صوته في أذنيه من جديد.

كان العجوز ينظر إليه بطريقة غريبة، فارغة بشكل ما.

_ ما اسمك يا بني ؟

_ اسمي واصل.

_ واصل !! وهل تعلم ما معنى اسمك ؟

دهش للسؤال الآتي في غير محله.

_ نعم. يعني... واصل... إلى المكان أو إلى... شيء ما... أقصد.. واصل.

_ لا بد أنك بعيد عن اسمك جداً لأنك لست واصلاً أبداً، بل أنت بعيد عن الوصول و الوصال.

_.....

لم يجد الشاب الإجابة المناسبة، بل لم يعرف إن كانت الكلمات التي سمعها إهانة من نوع ما أم أنها مجرد ترهات عجوز خرف، لكنه شعر بضيق ينتابه من معنى خفيّ يتسرب إلى نفسه دون أن يستطيع تحديده.

_ إذاً أنتم تقصدون المرضى الميئوس من حياتهم كي تقدموا لهم أمنية أخيرة..

_ لا يا عم. أعطاك الله البقاء و طول العمر، ولكن نقصد مرضى متعبين أو أنهكم المرض بشكل ما.. يعني... مرضى هم بحالة من..

_ أمنية أخيرة... لمرضى اقتربوا من الموت... أليس كذلك ؟

احتار واصل كيف يجيب فالكلام صحيح والفكرة كانت تماماً كما ذكرها العجوز. فابتسم ابتسامة خجولة ولم يجد الردّ المناسب للمرة الثانية.

_ أنت لا تعرف اسمي أليس كذلك ؟

_ لا يا عم فنحن لا نسأل عن الأسماء مطلقاً منعاً للإحراج أولاً وتجنباً للمحاباة التي من الممكن أن تكتنفها عملية الانتقاء العشوائي لمرضانا إذ من الممكن أن تصبح العملية غير نزيهة.

_ أنا عبد الله.

_ أهلاً يا عم.

_ إذاً أمنية أخيرة...!! وهل أنتم قادرون على تحقيق الأمنيات؟

_ نعم الأمنيات المنطقية فقط... مادياً ومعنوياً.

جلّس العجوز نفسه قليلاً من استلقائه وبدا كأنّ نفحةً من نشاط مفاجئ قد دّبت في أوصاله.

_ وأنت تريد أمنيتي الآن ؟

_ إن لم يكن لديك مانع.

_ حسناً، سأخبرك أمنيتي مع يقيني بعدم تحقيقها، ولكن من يدري .. ربما ..

_ سنحاول جهدنا يا عم.

_ اسمع يا أيها الواصل البعيد. لن تستطيع شركتك تحقيق ما أصبو إليه، ولكن... ربما أنت تستطيع. سأطلب منك وعداً بأن تحاول. عليك أن تبحث عن حل ما لأمنيتي.. حتى وإن لم تحققها لي، حاول إيجاد الطريق على أقل تقدير.

_ سأحاول.

_ هل تعدني بذلك ؟

_ نعم أعدك.

_ حتى وإن رفضت شركتك تلك الأمنية ؟

_ يعني ... لا أدري، ولكن إن كان بمقدوري وحدي تحقيقها فلن أتأخر أبداً.

قال واصل جملته الأخيرة بصدق وهو يقصد كل حرف فيها.

سكت العجوز قليلاً متفحصاً وجه واصل المحمر، ثم أداروجهه ليستقبل الضوء القادم من النافذة من جديد ثم قال بصوت منخفض وصارم بآن معاً:

_ أمنيتي هي.. أن أرى الله... أريد أن أرى الله.

٢.

شركة الحياة هي شركة حديثة نسبياً و متعددة الاختصاصات، بدأت باستثمار ضخم موّله شاب مغترب لديه من الأموال ما لا يمكن إحصاؤه، ثم تنامت مجالاتها و امتدت لتشمل نواحي كثيرة، وتفاقمت كأخطبوط، فنشرت شباكها العنكبوتية هنا و هناك لتأكل كل الاستثمارات المتوسطة، و لتقضي على الكثير من الشركات الصغيرة الآخذة بالنماء، و من هنا صارت أكبر شركة موجودة على الإطلاق خلال سنوات خمس لما لها من نشاط ضخم و امتداد واسع ودعم خارجي متنوع و سيطرة داخلية على أكثر من قطاع. و مما أكد تنامها و سيطرتها المطلقة زيادة اختصاصاتها كل عام، حتى افتتحت أخيراً فرعاً خاصا بالدعاية و الإعلان و كان من ضمن حملات الإعلان الضخمة المعدة لها ... حملة الأمنية الأخيرة المأخوذة أصلاً من فكرة غربية جاء بها أحد المدراء النشيطين و تقدم بها كاقتراح لمجلس الإدارة حصل جراءه على مكافأة مالية معتبرة.

تقوم الفكرة المطبقة في الغرب على تحقيق أمنية للأطفال المصابين بسرطان مميت دون إعلامهم بالطبع عن مدى جدية مرضهم، و دون الإعلان عن مصدر تحقيق الأمنية التي تتبناها جمعيات خيرية لها مرجعيات دينية معينة، أي أن الأصل في الموضوع برمته إنساني خيري بحت.

أما سكب الفكرة في شركة الحياة فالهدف منه إعلاني بحت، يهدف إلى تسليط الضوء على مدى ضخامة و فعالية الأفكار الخيرة التي تأتي بها هذه الشركة، و الفرق الشاسع الذي أحدثته منذ أن دخلت بأموالها و أفكارها في عالم الاقتصاد.

و بعد أن كانت بذور الفكرة معدة للأطفال فقط امتدت لتشمل العجائز أيضا بشكل غير مدروس.. بل و أرعن.

واصِل، الشاب الحاصل على إجازة في الأدب الإنجليزي والمتخصص في فرع الترجمة لم تكن نيته بحال من الأحوال أن يشغل وظيفة كهذه، لكنه بعد انتهاء مراحل دراسته

وتخصصه، وجد الفرصة متاحة أمامه عن طريق أحد معارفه، ولم تكن الشركة قد افتتحت فرعها الإعلاني بعد، فكانت فرصة لا تعوض لشاب حديث التخرج.

مبلغ جيد سيحصل عليه في مطلع كل شهر إضافة لتعويضات ضخمة و مكافآت دورية و تأمين اجتماعي و صحي معقول، و عمل ضمن الاختصاص .. لم يستطع الرفض.

كانت الوظيفة الشاغرة تستدعي شاباً يجيد استخدام الانجليزية والفرنسية ومؤهلاً للترجمة الفورية من الإنجليزية، و بوجود المؤهِّل ومعرفة أحد المدراء تم التعيين قبل عام من الآن.

تم التعيين على التسمية السابق ذكرها وفق الاختصاص الأول كمترجم.

ولكن سرعان ما تبدلت الأمور، فبعد افتتاح الفرع الإعلاني و نضوج فكرة الأمنية الأخيرة انتدب موظفان ليقوما بالمهمة، أحدهما واصل والآخر زميله الذي أصر على تلبية أمنيات الأطفال و استطاع الوصول إلى ذلك بعد سعيه المُصِرّ.

وبقيت المهمة التي كرهها واصل و ارتبك في أدائها و استسخف كل ما فيها ابتداء من الصيغة المكررة التي استظهرها ليكررها على مسمع كل عجوز يائس من الحياة مروراً بردود أفعال العجائز المختلفة والمتشابهة بآن معاً، والتي لا تتقبل شركة اسمها الحياة ستقدم لهم أمنية أخيرة وهم جيران الموت المباشرون، وانتهاء بالأمنيات العجيبة التي ببساطة من الصعب تحقيقها لا بل من المستحيل أحياناً حتى التفكير بها.

عندما تأسست الفكرة خضع واصل و زميله لدورة تدريبية تؤهلهما للتعامل مع الأمنيات المستحيلة وتدربهما على التفاوض للتوصل مع كل شخص إلى أمنية معقولة بإمكان الشركة تحقيقها، ولنكون أكثر وضوحاً فقد تم تحديد نحو عشر خانات من الأمنيات الأساسية مع تفرعاتها، ينحصر عمل واصل بالمفاوضة الناعمة و المساومة الخفية حتى يتم سوق العجوز بمكر و تلاعب لفظي إلى إحدى تلك الأمنيات أو ما يشابهها.

مهمته هي مقابلة العجائز المصابين بالسرطان و التوصل معهم لاتفاقيات مرضية للشركة ثم متابعة أمور هذه الاتفاقيات، إلى أن يتم تجميع عدد معين من الأمنيات الوهمية المحققة، عندئذ وكل بضعة أشهر يتم الإعلان عن تلك الأمنيات و أصحابها

في برنامج تلفزيوني خاص يلقي الضوء بشكل مباشر و غير مباشر على القيم السامية التي تبثها شركة الحياة، تلك المنظمة الفعالة التي تعدت حدودها كشركة عادية وباتت تجمعاً إنسانياً عالي المستوى، حسب رأي مدراء الشركة.

كل عدة أسابيع يتوجب على واصل زيارة شخص أو شخصين من أولئك المرضى، وذلك حسب ظروف المستشفيات أو المراكز المختصة بعلاج السرطان و التي تم التوصل مع المسؤولين عنها لاتفاقات غير معلنة تسمح بالحصول على معلومات تفصح عن الحالات الميئوس منها و الوضع الصحي للشخص المريض مع عمره مع الوقت المتبقي له حسب التوقع، مع رقم الغرفة إضافة إلى الوقت المناسب لزيارته خارج أوقات الزيارة الرسمية دون التصريح باسمه إلا للمدير المسؤول عن الموضوع منعاً لأية مشاكل أو مسؤوليات قانونية.

كان واصل على يقين شبه تام بعقم الفكرة من الناحية الخيرية، وبدهائها من ناحية تقديم دعاية هائلة للشركة بالتذكير المستمر بمناقبها الإنسانية التي تمنحها مجاناً للجميع.

شعوره الدائم بأنه جزء من منظومة الخداع كما يتصورها، جعله يتعرض دورياً للضيق و الارتباك نفسه خلال أداء عمله.

لم يكن بمقدوره احتمال نظرات العجائز الواهنة و استسخافهم فكرة تلبية طلب أخير، أولئك العجائز الذين باتت الحياة بالنسبة إليهم زهرة ذابلة لا سبيل لاستنشاقها أكثر. أولئك الزاهدون لن يستطيعوا إيجاد أمنية من الممكن أن تجعل نفوسهم أكثر تقبلاً للموت.

كان يعي تماماً أن الموضوع لا يتعدى مصلحة الشركة و ازدياد التهافت عليها. وعلى الرغم من محاولاته الحثيثة لتقبل الأمور من ميزان الاقتصاد و قوانينه التي لا تعترف بالنوازع الوجدانية، إلا أن الأمر بات يضايقه بشكل دائم من ناحية النزاهة والإنسانية البحتة.

المتاجرة بعواطف إنسان عجوز مريض على شفا الموت لم تكن لتجعله متقبلاً لها ولا بحال من الأحوال.

حاول الانتقال كثيراً ولكن دون جدوى.

كان يحسد زميله، فالتعامل مع الأطفال بالنسبة إليه كان أكثر نزاهة.

بساطة الطفل و تعلقه بالحياة تجعل فكرة تحقيق أمنية بسيطة له أكثر تقبلاً وأكثر نفعاً، بل من الممكن أن تكون الفكرة جيدة بمعنى ما، خاصة أن أمنيات الأطفال غالبا بالإمكان تحقيقها حسب إحصائية شركته، إذ إن تقديم السعادة للأطفال أكثر سهولة من تقديمها لعجوز على مشارف الرحيل زاهد في دنياه خاضع تماما لسلطان المرض.

.٣.

خرج واصل من المشفى في ذلك اليوم مضطرباً، شاتماً ولاعناً كل ما يمت إلى شركة الحياة بصلة بعد أن وقف صامتاً لا يدري ماذا عساه يرد على العجوز ذي الأمنية العجيبة...

اعتقد لوهلة أن العجوز يمازحه، لكن ملامح وجهه الباردة جعلت واصل يوقن أن هذا العم الذي أمامه إما قد دخل في مرحلة الخرف الذي يصيب بعض كبار السن، أو قد تعاطى عقاراً ما بدد له ما تبقى من عقل، أو أنه قد كفر بكل المسلمات وكل العقائد الصحيحة حتى وصلت به الجرأة أن طلب طلباً فجّاً كهذا الطلب.

لم يجادله أبداً ... بل صمت قليلاً ثمّ هزّ برأسه هزة لا معنى لها وخرج سريعاً من الغرفة وخرج من البناء دون حتى أن ينتظر زميله ليعودا سوياً إلى الشركة.

ما زاد الأمر سوءاً هو الجدال العقيم الذي تعرض له عندما عاد إلى الشركة ليقدم تقريره إلى مدير القسم الإعلاني.

لم يقتنع المدير باستسلام واصل لهذا الطلب وخروجه دون أن يتوصل إلى صيغة تفاهم تقنع العجوز بأمنية أخرى متاحة كما هو المعتاد أصولاً وفق قوانين فكرة الأمنية الأخيرة المتفق عليها.

لم يكن المدير ليسمع أولهتم فعلياً بأي أمنية، الأمر الأكثر أهمية بالنسبة إليه هو ازدياد عدد الأمنيات المحققة وفق مخططات الشركة بصرف النظر عما كانت عليه الأمنيات الأصلية والرغبات الأولية. وبناءً على ذلك فقد تلقى واصل تنبيها جافاً واتُّهِمَ بالتقصير والتهاون، وأمره مديره أن يعود في اليوم التالي إلى المكان نفسه للتوصل إلى حلّ معقول وأمنية منطقية كفيلة بإخراج الشركة بمظهر مقبول دون جعلها عرضة للسخرية في حال انتشار القصة واتخاذها كنكتة تنتقد سياسة الشركة وأهدافها، كما أخبره بأن مصلحة الشركة مقدمة على أية مصلحة شخصية أو أي انزعاج ذاتي، وهذا ما يجعل الغرب دوماً متقدماً في اقتصاده وفي فعاليات أعماله الجماعية، أي

تقديم مصلحة الشركات و الإدارات و الجماعات على مصلحة الأفراد.

كان على وشك الانفجار و الرد على كل ترهات مديره. كان يتمنى أن يخبره بأن الشركة الجماعية التي يحتمي خلف جماعيتها، وينتقد المصلحة الشخصية بشعارات تعميم المصلحة فيها، ما هي إلا تمثيل حي لفرد واحد في النهاية هو صاحب رأسمالها وممولها الأساسي.

لكنه آثر السكوت نظراً لطبيعته المسالمة من جهة، و لما قد يكتنف كلامه من مصائب من الممكن أن تودي به إلى مهالك البطالة من جهة أخرى.

صمت و خرج متشنجاً و لم يكتب تقريره اليومي عن أمنيات هذا اليوم بل آثر الخروج الفوري بإجازة ساعية من الشركة.

واصِل، شاب هادئ الطباع، نشأ في كنف أسرة متوسطة الدخل.

لم يدرس اللغة الإنجليزية إلا عن اختيار. لطالما كان يميل إلى تعلم اللغات و الدخول إلى عالم الألفاظ و الكلمات و المصطلحات الأجنبية المغايرة للغته، و لطالما أثارته فكرة التمايز اللغوي بين لغات العالم والتباين بين اللهجات و اللكنات و منشأ التعابير و المصطلحات.

كان اهتمامه محصوراً ما بين اللغة و التاريخ.

كان يرغب بالتخصص في علوم اللغة بشكل عام، أن يدخل عمق التاريخ اللغوي، أن ينقب بحثاً عن مجهول الماضي و يكتشف من خلاله تاريخ نشوء اللغة، أن يستطيع تفهم طبائع البشر عن طريق لغاتهم و الفروقات الناشئة بينها.. أو عن طريق دراسة آثارهم التي خلفوها وراءهم.

خلال دراسته الجامعية أدرك أن أمر اختصاصه في ما يحلم به هو أمر شبه مستحيل في مدينته، لذلك غيّر وجهة رغبته بشكل ما وانحرف مسار توجهه ليفكر في موضوع الترجمة الأدبية.

أثارته أيضاً فكرة ترجمة الكتب الفلسفية و التاريخية و فكرة إيجاد طريقة خاصة لترجمة الشعر خصوصاً.

لكن شيئاً من كل هذا لم يحدث، فقد أتيحت له فرصة العمل مباشرة بعد تخرجه المشرِّف.

حجّم أحلامه للمرة الثانية وكيّفها وفقاً للظروف المتاحة، وطبطب على رغباته كي يناور عليها بفكرة الاسم الكبير للشركة وفكرة المرتب الممتاز.

ثم فكر بالتطور الذي وُعِدَ به من قبل إدارات الشركة، ولم يخطر له على بال آنذاك أن هذا التطور لن يكون في نهاية المطاف إلا منصب المسؤول عن الأمنية الأخيرة الخاصة بالعجائز اليائسين.

كان يمارس نشاطه اليومي بصبر ما، متماشياً مع تيار المدنية الذي ينصّ على اعتباره شاباً جامعياً متحضراً، مرتبطاً بعمل متمدن لطيف وبمرتب جيد، يمتلك منزلاً بعيداً عن مناطق العمران مازال قيد التأسيس البطيء، من الممكن أن يسكنه بعد عدة أعوام مع زوجته المستقبلية التي سيختارها عاجلاً أم آجلاً هو أم عائلته، ثم سيبدأ من جديد بتكرار الأيام التي عاشها والده ولكن مع أبنائه هو وهذه المرة في منزل بعيد عن المدينة لا يشبه بحال من الأحوال منزل عائلته.

إن شئنا أن نصنف واصل من بين أبناء جيله ثقافياً لاعتبرناه متوسط الثقافة، لكن إن شئنا أن نكون أكثر دقة في تقييم ثقافته دون مقارنة، لقلنا إنه مبتدئ الثقافة إن كان التعبير صحيحاً.

يقرأ في المناسبات بعض الكتب الأدبية أو اللغوية، بعض الكتب التاريخية وقليلاً من الكتب الدينية البسيطة التي تقدم التشريع بتبسيط وسلاسة وتضع قائمة من المحرمات وقائمة من المباحات أمام قارئها البسيط حتى لا ينهكه السعي وراء اكتشاف المسموح والممنوع، وربما حتى يقدم إجازة لدماغه من البحث اللاهوتي وتخصيص هذا الدماغ للتفكير في أمور الحياة الأكثر أهمية كالعمل والرزق والزواج والأولاد والأسرة، أي باختصار... تلخيص وحصر كل آليات الدماغ كي تركز العمل فقط على تحسين الوضع الاقتصادي ومنه إلى الدخول في تعميم الوضع الاجتماعي المقولب.

لكن واصل، على كل حال، وإن لم يكن عميق الثقافة، فقد كان شخصاً متفكراً. كانت تأملاته أمراً فطريا جُبِلَ عليه ربما كابن وحيد نشأ في كنف أسرة هادئة تمتلك حساً موجهاً تجاه الكتب وتمتلك مكتبة لا يمكن وصفها إلا بالعادية.

لم تكن طريقة تفكيره متنقلة متحركة بل كانت عامة واسعة غير تفصيلية، يبتعد عموماً عما يؤذيه ويهرب من كل ما يمكن له أن يزعجه، ويترك كل حقيقة من المتوقع

لها أن تضعه في مواجهة مباشرة مع حزن إنساني أوواقع أليم.

لم يكن واصل جاهزاً لأية أحزان ولم يكن يبحث عن الواقع المزعج، بل كان على الرغم من فكره النشيط، يخشى سراديب الوجدان، ويتمنى أن يحيا حياة هادئة متآلفة مع ما حوله ومن حوله وحاصلة على كل صيغ المسالمة اللطيفة مع البشر والمعتقدات والسياسات وحتى الواقع الأليم المغطى بيوميات مكررة لا تظهر الحياة في نهاية المطاف إلا كمجموعة من المهمات المتنوعة والتقبلات المسالمة والعمل السويّ والسمعة الطيبة وكفى.

ولكن على الرغم من هدوئه واسترخائه الداخلي المصطنع لم يستطع واصل أن ينام ليلته تلك كما يجب بل كانت ليلته مزيجاً من أحلام غريبة وتهيؤات. إضافة إلى إصابته بارتفاع مفاجئ في الحرارة لم يعرف له سبباً.

من بين أحلامه الكثيرة في تلك الليلة، رأى نفسه طياراً يستعد لرحلة، وإذ به يسمع فجأةً إعلاناً يُبثُّ بصوت عالٍ، يقول: (تعلن شركة الحياة عن بدء رحلاتها المنتظرة إلى السماء)، ثم رأى نفسه بعد ذلك على وشك الإقلاع لكنه كان يحتاج بشكل غير مبرر إلى مرآة، كان بحاجة ماسة إلى أن يرى انعكاس صورته ويتأكد من شيء داخلي يسبب له الضيق والقلق دون أن يعرف ما هو تحديداً، فأوقف الرحلة وأخذ يبحث عن مرآة، ولما وجد واحدةً غريبة في مكان بعيد عن موقع الإقلاع نظر فيها جيداً فباغته وجه العجوز المريض عوضاً عن وجهه... مما جعله يتراجع ويصرخ ويسقط، فإذا به يسقط من سماء عالية ويستيقظ قبل أن يرتطم بالأرض.

كان الحلم مزعجاً وموتراً، وقد باءت محاولات نومه بعد ذلك بالفشل، إذ بدأت حرارته بالارتفاع وعانى حمى ليلية لم تفارقه إلا مع دخول أولى أشعة الصباح.

.٤.

استيقظ في صباح اليوم التالي أحسن حالاً، فقرر إنهاء مهمته سريعاً و التفرغ للمهمة التالية و إرضاء المدير بالتوصل لاتفاق جيد مع العجوز العجيب.

اتجه إلى المشفى.

كان يحضّر في طريقه عدّة جمل للبدء بالحديث و عدّة صيغ مما تعلمه في الدورة التدريبية لإيجاد درب تفاهم مشترك بينه و بين العجوز، علّه يستطيع هذه المرة أن يدفعه لتمني أمر ما منطقي من الممكن للشركة تحقيقه حتى و إن كلفها مادياً أكثر من المعتاد.

دخل البناء متجاهلاً ضيق نفسه وواضعاً في رأسه فكرة إنهاء العمل، نقر الباب فسمع صوتاً ضعيفاً هذه المرة يأذن له بالدخول بكلمة لم يتبينها تماماً لضعف الصوت لكنه تكهن بمضمونها.

كان الوقت مبكراً على الزيارات العامة.

دخل الغرفة فشعر بنسمة من هواء منعش لفحت وجهه وهدّأت من روعه كان منشؤها التيار الهوائي الآتي من النافذة المفتوحة فوق رأس العجوز الذي كان يبدو أضعف هذه المرة، لكنه ما أن رأى واصل حتى التمعت عيناه على الفور و بدا كأن نشاطاً ما دبّ في أوصاله فجلّس نفسه على الفور و ابتسم.

وقبل أن ينطق الشاب بأية تحية بادره المريض بالقول:

_ أهلاً بالواصل البعيد... هل وجدت حلاً لأمنيتي ؟ أم أنك جئت بأمر آخر؟

_ الحقيقة يا عم أننا لم نرض أن تتبدد أمنيتك هباء، لذلك ارتأينا أن نعود مرة أخرى علّنا نصل لاتفاق حول الأمنية بشكل يمنحنا القدرة على تحقيقها.

_ و من أنتم بالتحديد ؟ أنت تتكلم بصيغة الجمع.

_ أقصد الشركة ... يعني... أنا مندوب عنها.

كانت أسئلة العجوز تربك واصل... تلك الأسئلة الغريبة الموجهة من شخص

مبتسم هادئ من الصعب التكهن بجديتها أو سخريتها وهذا ما كان يجعل الكلمات تهرب من عقل الشاب بطريقة مستفزة.

_ أعتقد بأنك لا تمثل الشركة الميمونة التي تتحدث باسمها بشكل كامل.

_ ما الذي تعنيه ؟

_ أي أنك غير مقتنع بأفكار تلك الشركة.

_ عفواً يا عم أنا مقتنع، وتلك الشركة هي شركتي التي أحصِّل رزقي من خلالها، لذلك دعنا نصل لما يرضيك ويرضينا.

_ أحسنت، في داخلك حمية تجاه من يمنحك الرزق، لكن رزقك ليس من عندهم بل من عند خالقهم.

بدأت أعصاب واصل تعضّ على نفسه بنزق، وأخذت سحابات غضب بطيء تغطي جبينه وعينيه.

_ حسن جداً، والآن ما رأيك يا عم بأمنية أرضية بإمكاننا تحقيقها.

_ أرضية !! أعتقد بأن أمنيتي هي أكثر الأمنيات أرضية وواقعية؟

_ آسف لكلمة أرضية ولنستخدم كلمة : سهلة .. ما رأيك بأمنية أكثر سهولة لتحقيقها ؟

_ مثل ماذا ؟

شعر واصل بسرور بعد أن سأل العجوز سؤاله وظنّ أن اللين قد بدأ يغزو ذلك العقل العجيب.

_ مثلاً، أمنية ما تخصّ أولادك إن كان لديك أولاد.. أبناءك أو أحفادَك... أمنية تخص زوجتك... أو أحد أقربائك..أو أمنية تخصك... أمنية مادية مثلاً ؟

_ أيضاً مثل ماذا؟ وَضّح لي!

_ عظيم... مثل أن نرسلك على نفقتنا الخاصة إلى مكان ما لم تره أبداً على وجه الأرض... أي مكان تستطيع أن نأخذك إليه... رحلة رائعة ستنسيك المرض وربما تجعلك تشفى بإذن الله، أو أن نخدم أحد أبنائك... بأية وسيلة.. عمل... منزل.. نفقة زواج... سفر أو دراسة في الخارج... تأسيس عمل حسب قدرتنا طبعاً ... دعم مشروع.. مقابلة أحد المشاهير... رحلة عائلية جميلة... أي شيء... هل ترى؟ لديك الكثير من

المجالات... والكثير من الأمنيات التي من الممكن أن نجعلها حقيقية، فتجلب السعادة لك ولمن حولك.

أنهى واصل جملته وشعر باسترخاء ما إثر سرد مواضيع الأماني على مسمع العجوز وشعر بأنه سيرضى بأحد الخيارات التي سمعها، وستنتهي المهمة وسيكتب تقريره ويعود بسلام إلى منزله في هذا اليوم.

لكن شيئاً من هذا لم يحدث، فبعد أن سمع الرجل كل هذا أطرق قليلاً ثم بادر واصل بسؤال :

_ هل تستطيع أن تجلب لي السعادة ؟

_ بأمنية من تلك الأمنيات أجل أستطيع.

_ لا..... أقصد السعادة عامة... هل تعتقد بأن إحدى هذه الأمنيات التي ذكرت كفيلة بجلب السعادة إلى قلبي؟!! .. لا بدّ إذاً أنك لست واصلاً على الإطلاق.. إنّما أنت بعيد جداً إن كانت تلك الترهات التي تفوهت بها هي فعلاً من نتاج عقلك ومن مستوى قناعاتك.. ولإن كانت كذلك فأرجو أن تخرج حالاً وتغلق الباب وراءك ولتكن تلك هي المرة الأخيرة التي أراك فيها.

فوجئ واصل بما سمع وأصابته موجة غضب عارمة فصرخ قائلاً:

_ وما همّك إن كانت هذه قناعاتي أم قناعات الغبي الذي أرسلني.... فعلاً أنت غريب... أقول لك لدي أمنية لك وها أنت ذا تعذبني لمدة يومين بكلام غريب غير مفهوم وتربكني بقضايا عجيبة وتسخر من اسمي للمرة الثالثة.. أرجو ألا تسخر مني أو من اسمي مرة أخرى وأرجو أن تخبرني ماذا تريد بالضبط دون تلك الجمل الملتوية التي تتفوه بها.

ابتسم العجوز وقال:

_ أنا لا أسخر منك أبداً، هذا أولاً أما ثانياً فأنا على يقين بأنك تتكلم بقناعات أرباب عملك الاقتصادية لا الإنسانية. اسمع.. دعنا نتحدث بهدوء ولنترك كل هذا التشنج.. لا داعي للعصبية والتوتر على الإطلاق.. فلنسترخي ولنهدأ.. وسنصل في النهاية إلى ما نصبو إليه كلانا.

_ أنا آسف يا عم لم أقصد أن أكون عصبياً لكنني لا أعرف كيف أتعامل مع موقف

كهذا..

ـ إذاً أنت متفق معي أن هدف " الأمنية الأخيرة " هو مصلحة رأس المال لا مصلحة الإنسانية...

ـ .....

ابتسم واصل ابتسامة مغتصبة لكنه لم يستطع أن يقول شيئاً.

ـ لم ترد... هل نحن متفقان على ذلك ؟

ـ الحقّ... ؟؟ نعم نحن متفقان.

ـ أحسنت... الحق هو المطلوب دائماً. وبما أننا اتفقنا على الحق و توحد المنطلق فيما بيننا باطناً وصراحة فنحن إذاً في طرف واحد وجهة واحدة... أي سنكون متفقين على أية حال طالما كنا متفقين بداية .. على مبدأ واحد مشترك.. أليس كذلك ؟؟

ـ أعتقد هذا.

ـ عظيم. والآن.... أمنيتي يا بني هي أن أرى الله.

ـ لا حول ولا قوة إلا بالله !! يا عم ما هذه الأمنية الغريبة... أرجوك ! إن كنت متفقاً معك على مادية فكرة الشركة إلا أنني مختلف معك حول أمنيتك كفرد. من الممكن أن أوافقك كفرد على رأيك بالمجموعة التي أنتمي إليها عملياً إلا أنني أخالفك في طلبك لا كموظف في شركتي ولكن كفرد أيضا وبقناعاتي الشخصية. ما الذي يعنيه طلبك ياعم ؟

ـ ببساطة.. أريد أن أرى الله.

ـ هذا كفر صريح. لا يجوز التفوه بهذا الكلام... أرجوك.

ـ كفر !!

ابتسم العجوز... واستطرد قائلاً:

ـ وما هو الكفر ؟ أنا لا أكفر أو أشكك بوجود الله، على العكس أنت سألتني عن أمنيتي وأنا أجبتك ببساطة بأنني أريد أن أرى الله. لا أريد التأكد من وجوده. أين الكفر في ذلك ؟

ـ الكفر أننا لا يمكن أن نرى الله.

ـ إذاً هل تعبد إلهاً لا تستطيع أن تراه؟!

_ الله لا يرى يا عم... لا يرى... ما الذي أصابك !!؟

_ كيف تعرف بأن الله لا يرى ؟ من أين لك معرفتك هذه التي أنت على يقين منها ؟

_ من الدنيا.. من الحياة التي نعيشها.. من الناس.

_ أيّ ناس ؟

_ لا أدري الناس من حولنا.

_ أنت الآن تتكلم عن أهم أمر في هذه الحياة.. أمر المعبود و الإله و تتكلم بثقة عن معلومة غير موثقة تستقيها ممن هم حولك من بشر دون أن تقدم لي دليلاً واضحاً أو مصدراً مبيناً صريحاً. من منا غير المنطقي الآن ؟

صمت واصل برهة بعد أن وجد أن جملته التي قالها كانت فعلاً غير موثقة.. لكنه بعد صمت بسيط قال:

_ هناك أمور تعد من البديهيات في الحياة.. من المسلمات التي لا تحتاج إلى برهان أو إثبات أو توثيق و هذا الأمر من تلك المسلمات.

_ في وقت من الأوقات كانت السماء قبة نصف دائرية و كانت الأرض منبسطة تماماً و كانت تلك مسلّمة لا تحتاج إلى برهان ثم أتى عالم ما و أثبت العكس فحُرِقَت كتبه و قُتِل لأنه لم يتراجع عن اكتشافه.. و الآن تغيرت المسلّمة لتصبح الأرض كروية لا مسطحة والسماء هي غلاف جوي محيط بكل الأرض لا مجرد قبة ... كل مسلّمة تحتاج إلى توثيق بدائي حقيقي كي تصبح مسلّمة... لا يوجد شيء على وجه الأرض ثابت.. لذلك مسلّمتك التي تخبرني عنها غير واضحة و لا تعتبر مسلّمة بالنسبة لي.

_ ما هي دراستك يا عم..؟ عفواً ... يعني .. ما هو حقل عملك .

_ حقل عملي؟

ابتسم العجوز ثم قال :

_ حقل عملي هو الدنيا بأسرها... دعنا الآن من حقل عملي... فكّر أكثر بأمنيتي وحاول أن تجيبني.. بمنطق وواقعية.... هل أستطيع أن أرى الله ؟

_ أعتقد لا... و لكن كي أكون واضحاً مع نفسي بعد الذي قلته أنت... سيكون الجواب لا أعرف... بصراحة لا أعلم.

_ أحسنت ... وبما أنك لا تعلم و علمت بأنك لا تعلم فقد بدأت تعلم.

_ كيف ؟

_ إدراك العجز عن الإدراك هو إدراك.

_ كلامك صعب وملغز ..

_ أقصد عندما تدرك أنك لا تعرف... فنفسك تعي واقعها وهذا ما يؤهلها لتقبل المعرفة التي تبحث عنها دون أن تكون مغرورة بمعرفتها السطحية المسلّمة والمسلّم بصحتها دوماً.

_ فهمت قصدك.. وكل هذا أنا موافق عليه ومتفق معك على صحته ... ولكن حتى وإن حصل اتفاقنا هنا... فإن الشركة لن تستطيع تحقيق أمنيتك يا عم.

_ دعني من الشركة.... أنا لا أريدها أن تحقق أمنيتي..

_ إذاً ما الذي تريده ؟

_ أريدك أنت أن تحققها.

_ أنا... أنا لا أستطيع ذلك... الإجابة الشفهية وحدها لم أستطع القيام بها فما بالك بالتحقيق الفعلي... ومن أنا كي أقوم بذلك... وبصراحة... أنا لا أريد أن أدخل في موضوع كهذا...لا طاقة لي عليه ولا دافع ولا قدرة... أعتقد بأنك يجب أن تذهب إلى عالمٍ لاهوتيّ ما أو إلى رجل دينٍ مُجِدّ ربما يستطيع إجابة طلبك الغريب.

_ أنا كما ترى عالق هنا في مرضي.. لعلك أنت تستطيع مجاراتي فيما أطلب.. كفرد لا كمجموعة اقتصادية.. كواصل.. لا كشركة الحياة.

ضحك واصل وهزّ رأسه بيأس.

_ والشركة ؟ أقصد ماذا أقول لهم هناك ؟

_ لدي حلّ لها والحل بسيط وسيقدم لك الراحة الكاملة.

_ ما هو؟

_ ستخبرهم بأن أمنيتي هي أن تتفرغ أنت لزيارتي بدوام كامل مدة شهرين اثنين كي تقرأ لي وتجلس بقربي وهذا لن يكلفهم شيئاً مادياً.. سيكون هناك موعد معين بيننا كل يوم، ساعة معينة تستطيع القدوم خلالها خارج أوقات الزيارة، ربما في مثل هذا الوقت الذي اختارته الشركة، لن يكون أحد من عائلتي هنا، سأكون وحيداً بانتظارك، فتستطيع أن تتفرغ وتبحث عن حلّ لطلبي هذا، وبهذا.. ستكون قد أرضيت شركتك

وجنبتها دفع المال وستكون الأمور على خير ما يرام .. ما رأيك ؟

_ لا أعرف.. بصراحة ..

صمت واصل ولم يكمل. لقد كان اقتراحاً مفاجئاً، لكنه لا بأس به أيضاً، سيقدم لواصل إجازة مدفوعة الثمن وسيكون فعلاً قد أدى واجبه أمام أرباب عمله، بل ربما سيرضون عن الاتفاق الجيد الذي توصل إليه متجنباً دفع أي تكاليف مالية مزعجة خلا مرتبه المدفوع لشهرين متتالين دون حضوره.

_ واصل.... هل توافق على اقتراحي؟

هزّ واصل رأسه وقال بهدوء:

_ سأرى ما يمكن فعله... أمهلني يوماً أو يومين وسأعود إليك.

.٥.

لم يكن الاقتراح سيئاً على الإطلاق، بل كان حلاً سحرياً سيمنحه الراحة لمدة شهرين. شهرين كاملين لن يكون عليه خلالهما تقديم الأماني المشوهة الأخيرة وصياغة التقارير الغبية و احتمال سخافة المدير و شعاراته.

شهرين من الراحة العذبة الكاملة مدفوعة الأجر.. يا لها من فرصة!

لم يفكر واصل بشأن تلبية رغبة العجوز أو الخوض في طلبه والسعي في أموره، بل كان الموضوع بالنسبة إليه مجرد اتفاق تحول إلى رغبة ماكرة في الراحة و استساغة لطعم الهروب الجميل الخفي.

أما موضوع إيجاد الإجابات الخاصة بالمريض و الوصول إلى رغبته الحقيقية، فاعتبره نوعاً من أنواع التسلية اللطيفة التي من الممكن لها أن تغني إجازته المفاجئة.

حتى آخر ساعة من هذا النهار كان قد توصل في نفسه إلى قرار كامل بشأن ما سيفعل في الأيام اللاحقة.

وهكذا قام بكتابة تقريره في المنزل هذه المرة على غير ما اعتاد عليه وضمّنه الأفكار اللازمة التي صاغها بطريقة مقنعة و محرضة للحصول على مراده.

في اليوم التالي قدم التقرير إلى مديره وأظهر بشكل مدروس بعض الانزعاج والعصبية الخفية من طلب العجوز. وذلك كي يدفع المدير للاعتقاد بأنه يريد التهرب من تحقيق الأمنية فيجد الرجل نفسه بتسلطه مضطراً للضغط عليه و إجباره على تلبية هذه الأمنية ودفعه الغريزي كمدير كي يجعل موظفه يفعل عكس ما يرغب فيه كما هي العادة.

لم يكن الأمر سيئاً بالنسبة للمدير أيضاً، إلا أنه و في الوقت نفسه لم يستسغ فكرة انقطاع واصل عن العمل طيلة هذه المدة.

فكر ملياً ثم استجوب الشاب وبشكل تفصيلي عن كل ما جرى بينه و بين العجوز، ثم أسهب التفكير مرة أخرى بصمت متفحصاً في الوقت ذاته تعابير وجه واصل.

وكي لا يترك الشاب المجال لاحمرار وجهه بتوجيه دفة قرار مديره لم يجد بدّاً من تحريك الموضوع بمكر متلاعباً بالألفاظ كي يصل إلى مبتغاه، فقال:

_ لقد حاولت صرف نظر الرجل عني و أخبرته عن غيري من الموظفين. اعتقدت أني من الممكن أن أرسل له مستخدماً كل بضعة أيام، و هكذا لن نضطر لإزعاج مصلحة الشركة بغيابي، لكنه أبى إلا أن أرافقه أنا شخصياً و أقرأ له يومياً وهذا ما جعلني أغضب وكنت على وشك الرفض تماماً لكنني تذكرت أيضاً مصلحة الشركة وسمعتها، لذلك آثرت السكوت على ما في طلبه من ملل وضجر وقررت تفويض الأمر إليك بشكل كامل، ولك القرار في النهاية.

تفوه بكلماته و صمت ببراءة مفتعلة بعد أن خامره الشك في أن مديره لن يوافق على ما ورد في التقرير.

تنحنح المدير ثم بدأ بإلقاء قراره ببرود:

_ على ما في الاتفاق من تجنيب للشركة من تكلفة مادية إلا أنه يضعها أيضاً في موقف حرج بشأن إعفاء موظف من العمل لمدة شهرين كاملين وهذا أمر غير قانوني في شركتنا، ولكن أعتقد بأنه من الممكن لنا التوصل لحل معقول بشأن ذلك.

شرب جرعة من فنجان قهوته و استأنف:

_ سيكون عليك أن تأتي إلى هنا صباحاً و ظهراً لتوقع على جدول الدوام الوظيفي، فهي ليست إجازة بمعنى الإجازة بل هو عمل في النهاية .. عمل إعلاني .. مهمة وظيفية تقتضي فرزك لمدة شهرين خارج بناء الشركة، ولكن عليك الحضور يومياً والتوقيع، كما سيتوجب عليك تقديم تقرير أسبوعي عما أنجزته و عن كيفية إتمام المهمة وبشكل تفصيلي بينك و بين صاحب الأمنية. كل هذا طبعاً سيكون بعد أن أذهب بنفسي للتأكد من رغبة الرجل . كما تقتضي العادة . و إنهاء عقد الأمنية الأخيرة الخاصة به.

لم تعجب واصل فكرة الحضور للشركة و التوقيع، بل و أزعجته فكرة التقارير الأسبوعية التي يكرهها، إلا أنه لم يجد مفراً من الموافقة الصامتة، شاتماً في سره دهاء المدير اللعين الذي يجيد كيفية ربط الموظف بسلسلة وظيفية من المستحيل عليه فكها إلا بالاستقالة الصريحة.

.....

في اليوم التالي ذهب واصل صباحاً إلى المشفى و أخبر المريض بتوقع مرور المدير في اليوم نفسه ليراه منفرداً و يكمل إبرام الاتفاق معه، و سيكون هناك توقيع لبعض الأوراق الرسمية المدون فيها نصّ أمنية العجوز، و سيذيل هذا النص بتوقيعه، وهذا إثبات نصيّ يفيد التزام شركة الحياة بتحقيق الأماني الأخيرة للمرضى و يظهر مدى التزام هذه المؤسسة الجماعية بخدمة أبناء مدينتها والسعي الحثيث من قبلها لتعميم السعادة على الإنسانية جمعاء.

هذا ما سيكون مكتوباً في أوراق العقد، و هذا ما سيتم إعلانه مع اسم صاحب الأمنية وبالاتفاق معه بعد إيفاء الشركة بوعودها وتنفيذها لالتزامها وهنا سأل العجوز بامتعاض:

_ لكنك قلت إنّ الشركة تحفظ لطالبي الأماني شخصياتهم الحقيقية دون إعلانها.

_ نعم ... لن يتعرف أحد على شخصيتك طوال فترة تنفيذ الأمنية، لكن بعد التنفيذ سيتم الإعلان و هذا ما يحصلون عليه من تنفيذ الأماني.. الإعلان. إن هي إلا فكرة إعلانية في النهاية، لكن اسمك سيبقى سرياً طالما بقيت المهمة ضمن فترة إتمامها، أو إن لم تنته المهمة لسبب من الأسباب، لا سمح الله.

_ رغم أني أفضل السرية إلا أنني موافق. ليكن إعلان الاسم بعد إتمام المهمة، ولكن لا مقابلات تلفزيونية.

_ إن لم ترغب بذلك يمكنك الرفض ففكرة المقابلة اختيارية..

_ يا إلهي.. كل هذا من أجل إعلان!!

_ من أجل هذا يا عم شركة الحياة لا منافس لها على الإطلاق.

_ اتفقنا إذاً.. أراك غداً إن شاء الله.

هزّ واصل رأسه موافقاً و غادر مبتسماً وراضياً عما وصل إليه.

.....

في ظهر اليوم نفسه و قبل ابتداء موعد الزيارات بنصف ساعة تماماً جاء المدير الإعلاني إلى الغرفة 411 و استفسر من العجوز عبد الله عن كل شيء قد قاله لواصل حتى اطمأن أن الشاب لم يزيف أي كلمة مما حدث، ثم أخرج معاونه الأوراق و قام

بقراءتها للمريض وتم كل شيء كما يجب أصولاً وانتهى بتوقيع الأوراق من الجهتين المتعاقدتين تحت عنوان عقد الأمنية الأخيرة الممنوحة من شركة الحياة للاستثمارات.

ودع المدير المنتفخ العجوز بابتسامة مصطنعة دون أن يصافحه ثم خرج سريعاً يتبعه معاونه حاملاً حقيبته ومبتسماً هو الآخر على غرار مديره ابتسامة بلهاء لا معنى لها إلا مباركة عمل ولي نعمته.

عادت الغرفة بعد ذلك إلى هدوئها من جديد.

.٦.

بالرغم من دماثة واصل ولطفه إلا أنه لم يكن لديه إلا القليل فقط من الأصدقاء.

يحتفظ دوماً بجدار معنوي، يشيده في وجه أي تطور يحتمل أن ينقل العلاقة التي تربطه بأحد معارفه من العمل أو الجيرة أو حتى القرابة إلى مستوى آخر يفوق ما كانت عليه من قبل.

كثيراً ما رفض دعوات و أوقف تطورات.

لم يكن يحب المعارف إلا كمعارف.. كدائرة من الأشخاص الذين يعرفهم بهويات منطقية، ويستطيع تعريف العلاقة التي تربطه بهم من خلال مواقعهم الوظيفية أو السكنية أو الدراسية أو صلات الدم والرحم.

فالجار يبقى جاراً و يحق له التحيات و الإغاثة السريعة في حال حصول المكروه فقط، لا أكثر من ذلك، وزميل الدراسة القديم له تحية مختصرة و ابتسامة في المكان الذي تمت فيه مصادفته و من الممكن التنازل أكثر من ذلك و الدخول في بعض قضايا الذاكرة، أما زميل العمل و هو أكثر ما يكرهه واصل من الزملاء، فلا حقّ له في الخصوصيات على الإطلاق، إنما تنحصر حقوقه في السلام اللطيف.. الابتسامات المجاملة.. النقاش في قضايا العمل.. وبعض التواصل بمواضيع عامة لا تتعدى حدودها لتدخل في قضايا رأي خاص.

أما الأقرباء فهم الطبقة الدنيا في دائرة معارف واصل من حيث الحقوق، إذ فعلياً... لا حقوق لهم أبداً.

و هذا ما أبقى الباب مغلقاً على الدوام أمام تضخم عدد الأصدقاء وفي الوقت نفسه جعل العدد القليل الموجود منهم عدداً أكثر من كافٍ بالنسبة إليه.

فمن كان قد تطورت مكانته ليصبح في الدائرة الأولى و لينتقل من دوائر المعارف المختلفة ليلتحق في خانة الأصدقاء لن يخسر مكانته تلك أبداً و لن يستطيع أي إنسان سلبه تلك المكانة التي حصل عليها عن جدارة و استحقاق.

من أجل كل ما سبق لم يكن لدى واصل فعلياً سوى صديقين اثنين فقط.

الأول هو صديق طفولته الذي نشأ معه في الحي نفسه و البيئة نفسها و استمرت صداقتهما فترة طويلة توطدت خلالها العلاقة بشكل التحامي ليس من السهل كسره عبر الزمن.

اسمه عبيدة ويكبره بعام واحد. يعمل مدرساً في الصفوف الثانوية، يقوم بتدريس مادة الفلسفة، بعد أن تخرج منذ عامين من نفس الفرع و بمعدل متوسط.

أصدقاء عبيدة لا يسمونه إلا عبيد، لقد كره التاء المربوطة الموجودة في آخر اسمه منذ فترة طويلة.. خاصة بعد أن كانت مصدراً من مصادر التندر به في مراحل الدراسة الأولى و التي دائما تكون الأسماء فيها مصدر إزعاج مهما كان الاسم و اللقب.

كان الطلاب يعاملونه على أنه فتاة و يكلمونه بصيغة الأنثى نظراً لاسمه الأنثوي النطق و هذا كان سبباً أساسيا من الأسباب التي جعلت شخصيته تميل للخشونة كرد فعل معاكس طبيعي، و هذا أيضاً ما دفعه دوماً للتعريف عن نفسه على أنه عبيد لا عبيدة، و لا سبيل حتى من قبل أصدقائه المقربين للمزاح معه بهذا الشأن .. فلم يكن أحد منهم ليجرؤ على مناداته إلا باسمه دون تاء الرقة المذيلة له.

لندع اسم عبيد جانباً ولندخل في طبعه الذي كان جلفاً بشكل ما.

جلافته كانت مكتسبة لا أصيلة، اسمه بداية و خوفه من التأنيث، ترتيبه في الأسرة كابن بكر يكبر إخوته الثلاثة و يعتبر بشكل ما مرجعيتهم الثقافية و مصدر إيجاد حلولٍ لمشاكلهم بقوة شخصيته و اتزانه و فصاحة منطقه، إضافة إلى دراسته الفلسفة التي شدت البقية الباقية من ارتخاءات نفسه و غطتها بوبر المنطق و بريش الفلسفة الملون، مما جعله دائم القراءة كثير الأفكار متواصل النظريات حاد الطباع متسلطاً بعض الشيء في فرض نظرياته، منظّراً في كثير من الأمور و أحياناً سليط اللسان بشكل يتعذر معه الرد عليه، خاصة عندما يتعلق الموضوع بالأمور الضخمة اللاهوتية و الغيبية، فغالباً ما ينتفخ و يبدأ بإطلاق الكثير من الحجج المتماسكة ذات السبك المنطقي و القوة العقلانية الظاهرية و الأمثلة المتراكمة الوافرة حتى يمحق من أمامه تماماً و يتركه بلا مستند يرتكز عليه.

و كان مما يفخر به أنه يستطيع إقناع الشخص بأمر ما منطقيا، ثم يستطيع

بعد برهة أن يقوّض تلك القناعة ببراهين منطقية و إثباتات معاكسة وفق جدال سفسطائيّ، وهذا ما جعله دائم الاعتقاد بأنه ما من مبدأ ثابت في الحياة، إن هي إلا مجموعة مبادئ متبدلة حسب الظروف و حسب قوة القناعات.

هذا إضافة إلى الكثير من المتاهات الفكرية الأخرى جعله في نهاية المطاف ينكر وجود الإله قطعاً ويتعامل مع الدنيا على أنها مرعىً دونما راعٍ.

على الرغم من أشواك شخصيته و قسوة طباعه كان صديقاً حميماً لواصل، جمعتهما الحياة منذ البداية في الحيز المكاني و الزماني الواحد، فصقلتهما البيئة الواحدة معاً، و نشأا في ظروف متشابهة وكوّنا قناعات عامة شبه مشتركة منذ الصغر، و اشتركا بالكثير من اكتشافات الطفولة التي كانت بمثابة أسرار و خبايا استطاعا بوجودهما معاً اكتشافها وفض عذرية خفائها. فاستكانا لبعضهما، واصل الهادئ البسيط المتأمل . الذي هو فعلياً من سمى عبيد باسمه هذا لأول مرة عندما أطلقه عليه في المرحلة الابتدائية وصاريناديه هكذا دون سابق إنذار مما أوحى لعبيد بفكرة تعميم الاسم .وعبيد الحاد الطباع ذو النزعة المتعالية و الثقافة المتفوقة.

وفيما عدا الأمور الكونية التي توصل إليها عبيد لاحقاً لم يكن هناك نظيراً أي تنافر فكري فيما بين الاثنين بل كانا متكاملين بشكل غريب و محيّر وكل منهما يجد ضالته تماماً في الآخر.

نظراً لشخصيته القيادية و كأيّ شخصية قيادية حولنا نجد عبيد محاطاً بالأصدقاء على الدوام، الكثير الكثير من الأصدقاء من هنا وهناك.

كان بعكس واصل تماماً من حيث إطلاق دائرة معارفه و خلط البشر و مزجهم في دوائر كثيفة غير معرّفة، وهذا ما جعل الناس من حوله كثر وعلى أمزجة و اتجاهات متباينة.

لكن مع ذلك، لم يكن أي شخص منهم يفوق واصل في منزلته القريبة بالنسبة إليه، ربما كان الشخص الوحيد الذي امتزجت شخصيته بتشكل شخصية عبيد القيادية، فخرجت بذلك. عند مرحلة النضوج . من تسلط تلك القيادية عليها، وبمعنى أبسط كان واصل الوحيد الذي لا يطاله تسلط عبيد ولا تمسه قيادية طباعه بشيء، ربما وبشكل فطري تأسست نفس عبيد على اعتبار واصل من ضمن حرمه النفسي هو

نفسه، ومن المعروف أن النفس المتسلطة القوية تطال الكل بقيادتها إلا ذاتها.

خلال المرحلة الجامعية عرف واصل الكثير من الزملاء، لكن أحداً منهم لم يكن بالنسبة إليه صديقاً حقيقياً كعبيد.

ولم يغير هذا الأمر سوى لقائه بشامل الذي أصبح فيما بعد صديقه الحقيقي الثاني.

التقى الاثنان أول مرة في العام الثاني من الدراسة الجامعية عندما كان واصل مترفعاً إليها بمعدل مرتفع وكان شامل في الوقت ذاته يعيد تلك السنة لرسوبه فيها بشكل كامل.

التقيا على باب قاعة المحاضرات، كانا متأخرين على موعد محاضرة يلقيها أستاذ متغطرس يعادل الكفرَ لديه دخول أي طالب بعده إلى القاعة ويعتبر هذا الموضوع إهانة شخصية له.

وصل الاثنان إلى القاعة في وقت واحد، همّ واصل بنقر الباب إلا أن شامل منعه بسرعة وحذره من جنون المحاضر والمصائب التي سيلقاها إن دخل متأخراً.

بعد جدال بسيط قرر واصل الدخول فنقر الباب ودخل ومن خلفه يتراءى زميله الذي صدقت نبوءته ووجد واصل نفسه أمام أكثر تقريع ذاقه إحراجاً وشراسة على الإطلاق.

فما كان من شامل إلا أن شده من قميصه وأخرجه من القاعة وسط صراخ الأستاذ الشرس وأغلق الباب ولم يتمالك نفسه من إطلاق أقوى ضحكة سمعها واصل في حياته.

الساعات القليلة التي قضياها سوياً في هذا النهار كانت كفيلة بربط أواصر صداقتهما لأمد طويل بعد ذلك.

شامل يكبر واصل بعام واحد أيضاً.

لطيف.. سلس المعشر لين التعامل، يبدو من الأشخاص الذي يعرفون مرادهم تماماً في الحياة.

نشأ في أسرة صغيرة ذات مستوى معيشي يفوق المستوى الخاص بواصل وبعبيد.

والده كيميائي معروف يمتلك مع أخيه الأصغر معملاً صغيراً لتصنيع الأصبغة.

له أخ واحد يكبره بثلاثة أعوام يعمل في المعمل نفسه مع والده مديراً متخصصاً في إدارة الموارد البشرية.

لم يكن شامل يشبه عبيد في شيء إلا إن شئنا اعتبار قوة الشخصية عاملاً مشتركاً بينهما، أو إن أردنا تحديد وجه الشبه أكثر فهو قوة الإرادة التي جمعت بين الشخصيتين.

على الرغم من أن القوة الموجودة لدى شامل من الممكن لها أن تبقى في حيز القوى الكامنة داخله قبل أن تظهر لتعينه على إنجاز ما يريد، فما كانت تلك القوة لتجعله مبارزاً بها و معلناً لها عند كل صغيرة أو كبيرة كما يفعل عبيد و ما كان هذا إلا من اكتمال اتزان نفسه ونضوجها.

معارفه كثر لكن لديه تعريفاً خاصاً للصداقة ولديه من الأصدقاء ما يقل عن عدد أصابع اليدين.

لم يكن بارعاً في دراسته. أمضى السنة الأولى بصعوبة أما السنة الثانية فقد اضطر لإعادتها نظراً لجموحه التام خارج حدود تلك المناهج.

لم تكن المسألة تكمن في غباء أو رعونة إنما كانت تتعلق بشخصية هادئة تعلم تماماً أن الحقل الذي تدرسه بعيد عنها بالشكل الذي وُجدت فيه في المناهج.

لم يكن يحب من المدرسين إلا ما ندر، كل مادة تلقاها كان يمتلك فيها رأياً معاكساً لطريقة تدريسها أو ناقداً لطريقة وضعها في الكتاب المخصص لها وهذا ما جعله دائم السخرية من المواد و المدرسين والمناهج و الكتب و الامتحانات، حتى باتت كل فكرة الجامعة بالنسبة إليه مثاراً للسخرية و التهكم، و اعتبرها فترة من فترات الضحك اللطيف التي يتوجب على الإنسان أن يقضي مثلها خلال حياته، أما مثالية طلب العلم و كمال التحصيل العلمي، فمن وجهة نظره لا وجود لعلم حقيقي كهذا الذي يتكلمون عنه أبداً لا في كتب ولا في جامعات.

مكتبة عائلته الضخمة و إيقاع حياته المسترخي جعلاه يجد وقتاً ليس بالقليل للقراءة، فاطلع على كثير من المواضيع المتنوعة مما جعله يشكل العديد من الآراء بهدوء ودونما تشنج ثقافي، وهذا ما جعل ثقافته ذات نسيج خاص، متين وغير طاغ.. إلا ببساطة إلقاء فلسفته بكلماته البسيطة البعيدة عن الشراسة المعهودة لدى قراء

الكتب النهمين.

لم يكن ليكترث في فترة دراسته إلا بإيجاد الوقت الكافي في الجامعة ليكمل استرخاءه وليمارس لعبته المفضلة بمتابعة الأساتذة المعقدين والسخرية من ربطات أعناقهم وأساليب كلامهم وعلمهم الأجوف حسب تعبيره.

سلاسة نفسه وروحه الساخرة ورقي منشئه قابلت كلها مجتمعة انزواءات واصل وترفعه الفطري عن دوائر المعارف من حوله، كما لمست سعة إطلاعه وغنى أرشيف ذاكرته تفكّر واصل وتأملاته الدائمة التي كثيراً بعد ذلك ما أصبح التعبير عنها أمام شامل ومشاركته فيها أمراً في غاية المتعة والأهمية بالنسبة إليه.

في الحقيقة واصل أيضاً لم يحب أيّاً من أساتذته لكن الأمر مختلف معه بشأن معدلاته المرتفعة وهضمه للمواد المسبوكة في الكتب بشكل دائم.

كان طموحه مختلفاً، وكانت دراسته لفرع الترجمة من منظوره من اختياره لذلك لم يجد غضاضة في استساغة المواد وتملّكها لا بل والتفوق فيها دون كبير جهد، عكس صديقه الذي كان من المستحيل بالنسبة إليه تقبل فكرة هذا الفرع الذي فُرض عليه فرضاً بعد أن فشل بالالتحاق بكلية الهندسة أولاً والصيدلة ثانياً والعلوم ثالثاً والفنون الجميلة أخيراً.. وهنا لم يكن لديه بد من اختيار الخيار الخامس في قائمة الاختيارات أيّاً كان هذا الخيار، وما كان هذا على أية حال إلا كليّته الحالية.

لن نطيل الخوض في تلك الفترة أكثر من ذلك، ولكن بقي لنا أن نذكر أن شامل لم يكمل دراسته ولم يتخرج بل خرج من السنة الرابعة بعد أن استنفد كل فرص النجاح لديه مع الاستثناءات الجامعية المعروفة.

خرج دون ندم أو اكتراث وبعكس ما توقع الجميع من حوله لم يلتحق بمعمل أبيه لكنه التحق بعدة وظائف كان آخرها وأكثرها صلاحاً بالنسبة إليه عمل إداري تنظيمي في مركز ديني معروف، استطاع الحصول عليه بمساعدة عمه الذي يعتبر ممولاً أساسياً من ممولي هذا المركز.

عمله بالغ الأهمية والحيوية بالنسبة للمركز، تنظيم الجداول والتنسيق بين المحاضرين.. توقيت مواعيد المحاضرات وتبادل المراسلات مع الدول المجاورة والدول الأجنبية وباللغة الإنجليزية.

كان أيضاً مسؤولاً عن استقبال الوفود الخارجية و الإشراف على التبرعات وإنفاقها و تنسيق المناهج و تنظيم الكتب الخاصة بالمركز وتنظيم المكتبة الضخمة التي توسعت و تضخمت منذ أن أتى شامل وبدأ بتغذيتها تدريجياً.

كل هذا تطور شيئاً فشيئاً بعد أن أثبت الشاب جدارته في مكانه الذي بدأ بمهمتين بسيطتين و انتهى بتسلم كامل لجميع الفعاليات الإدارية تقريباً.

أما علاقة شامل بعبيد فلم تكن ممتازة لكنها لم تكن سيئة أيضاً.. من الممكن أن يلتقيا كثيرا بحضور العامل المشترك الذي جمعهما.. واصل، و كثيراً ما حصلا على المتعة بحضور بعضهما إلا أن الكثير من الجدالات العقيمة و النزاعات الفكرية نشبت بينهما و احتدمت أحياناً لدرجة ارتفاع صوت عبيد.

طبيعة عبيد الحادة لم يكن ليقاومها إلا سخرية شامل الهادئة المدمرة لكل معتقدات عبيد و بغمزة واحدة أو ابتسامة مذيلة بضحكة متصاعدة مغرقة في التهكم.

قلّما اجتمعا على رأي بل ربما لم يجتمعا على رأي قط إلا على صداقتهما بواصل فقط.

وربما لولا وجود واصل ما كانا ليلتقيا أبداً. وحتى إن التقيا ما كانا ليشكلا أي نوع من أنواع الصداقة بل من الممكن للقائهما أن ينقلب عداوة و جلافة قد تعيش طويلاً جداً.

.٧.

ـ صباح الخير

اكتفى العجوز بابتسامة.

ـ كيف حالك اليوم يا عم ؟

ـ الحمد لله في السراء وفي الضراء.

عندما استيقظ واصل في هذا اليوم كان مسروراً مستمتعاً بنكهة العطلة وقد توجه إلى العجوز بعد أن مر بشركة الحياة ووقع باسمه في جداول الموظفين.

لكن وجوماً بدأ يتملكه في اللحظة التي انتهت فيها عباراته سريعاً بعد أن سأل العجوز عن حاله.

لم يعرف ماذا عليه أن يقول.. لم يكن بارعاً في الكلام العام والمجاملات، فتبدد سروره عندما وجد نفسه فجأة في غرفة رجل مريض متقدم في السن يبتسم ابتسامة غامضة وينظر إليه بعين نفاذة تكاد تخترق رأسه.

ـ كيف صحتك ؟

ـ الحمد لله في السراء وفي الضراء.

كرر العجوز نفس الإجابة رامياً بواصل في بئر عميقة من الإفلاس الاجتماعي.

سكت الشاب متنحياً بنظره نحو الستائر كي يخفي بعض حرجه من الصمت الواجم فوق صدره.

بعد برهة من سكون وجد منفذاً للكلام فقال:

ـ هل تعلم بأنه يتوجب علي أن أعرج على الشركة يومياً للتوقيع.. لقد اعتبروها مهمة رسمية من الواجب علي إيراد تطوراتها في تقرير أسبوعي.

ـ هل وجدت أي إجابة ؟

ـ إجابة على ماذا ؟

ـ على طلبي.. على سؤالي.. على أمنيتي..

ـ في الحقيقة لا.. يعني لا أدري ما الذي يتوجب علي فعله تماماً.

ارتبك واصل وبدأ احمرار سريع يعتلي وجهه.

ـ إذاً لماذا أتيت؟

ـ أنت من أردت ذلك.

ـ أنا طلبت منك أن تحاول إيجاد إجابة.. شخص.. كتاب.. أي شيء.. لكنك أتيت بلا شيء.. بلا حتى أية فكرة عن الموضوع..

ـ لا أعرف ماذا أفعل بالضبط.. أخبرني أنت.

ـ لو أني أستطيع إخبارك لما سألتك منذ البداية.

ـ لا تغضب أرجوك يا عم ولتعتبر قدومي اليوم هو كالصفحة الأولى الفارغة التي تترك بيضاء دون أية كلمة في مقدمة كتاب كامل.

ابتسم العجوز وقال:

ـ تشبيه جميل.. حسن جداً، ليكن اليوم هو تمهيد للأيام القادمة.. التي ستبحث فيها عن إجابة.. أية إجابة.. أي دليل.. أي موضوع يتعلق بأمنيتي.. أي شخص يستطيع أن يجيب.

ـ سأحاول.

ـ إذاً لنبدأ اليوم بك أنت. حدثني عن نفسك.

بدأ واصل يتكلم عن نفسه بهدوء وبحذر مبدئيّ ما فتئ أن تحول إلى سرد مسهب مستمر.

كانت مداخل نفسه تتفتح رويداً رويداً كزهرة برية خجولة، وأخذت الكلمات على غير عادته تتسلل منه بيسر ودون عراقيل حذره المعتاد.

كان العجوز قبل كل شيء مريحاً ومحرضاً على الكلام، ربما بملامح وجهه أو بعينيه الثاقبتين اللتين لم يمسهما مرض الجسد بشيء. تلك العينان اللتان . مع حدتهما . كانتا على درجة من دفء قلّما يكون موجوداً في عين ثاقبة، لكن إن وجد سيكون دفئاً غامضاً مشعاً يدفع بمن يراه للارتياح والاسترسال دونما قيود.

تكلم عن كل شيء... عن أسرته الصغيرة، دراسته، معارفه، صديقيه، أحلامه

المؤجلة، أحلامه المبدلة، أحلامه الملغية... كل شيء.

كان يجد في الكلام بديلاً صريحاً له عن الإحراج الكامن في الصمت ولذلك فقد حاول إطالة الكلام لإنهاء وقت هذا النهار بسرعة والانتقال إلى فترة الظهيرة والهروب بهدوء بعد ارتباك اليوم الأول علّه يحظى بأمر ما لليوم الثاني.

ـ إذاً أنت تحب ترجمة الكتب الأدبية ؟

ـ والتاريخية.

ـ ما هو حلمك الأول في العمل ؟ حتى لو كان مستحيلاً.

ـ هو المستحيل بعينه هنا. أتمنى أن أكون منقباً أثرياً أرافق البعثات الأثرية للتنقيب عن أوابد الشعوب واكتشاف بقايا الحضارات وآثارها.

ـ وما الذي يغريك في هذا ؟ هل فكرت عن سبب تعلقك بهذا الحلم البعيد بالنسبة إليك ؟

ـ أحب الخروج من المكان.. أتمنى زيارة أمكنة غطاها التراب.. لا أحد يعرفها على وجه الأرض.. أكتشفها أنا بنفسي.. أزيل التراب عنها بيدي هاتين.. أزيل الغبار بهدوء وبفرشاة صغيرة عن كل جزء من أجزائها.. كقطع التركيب... قطعة قطعة حتى تكتمل و يكتمل المعنى... ، أحب اكتشاف أنواع الحيوانات المنقرضة في الأمكنة البعيدة النائية... أو الأدوات والأواني المُثبِتة لوجود الإنسان... ، أحب اكتشاف نوعية المدنية التي كانت موجودة وقائمة فوق تلك الأرض منذ آلاف السنين.

ـ أعتقد بأنك تحاول الخروج من المكان والزمان أيضاً.. بل وحاجتك للخروج من نطاق الزمان أكبر من حاجتك للخروج من قيد المكان.

ـ الخروج من الزمان !! لم أفكر بهذا من قبل.

ـ حلمك يفيد إنهاء قيود الزمان أولاً والمكان ثانياً والولوج إلى عالم الماضي بسهولة عبر المعطيات وعبر مخيلتك الغنية المتعطشة لولوج كهذا.. وهو أمر عظيم بالنسبة لي.. لكنني أفضل الخروج من الزمان والمكان للولوج إلى عالم لا زمان فيه ولا مكان.. أقصد لا تحديد فيه للزمان بالذات، إذ عندما ينعدم الزمان يصبح المكان أمراً ثانوياً، لكني رغم فهمي التام لرغبتك لا أحب الانحباس في عالم الماضي كانعتاق من الزمن الحاضر.

ـ رغم صعوبة ما تقوله إلا أني أعتقد بأنني قد فهمت مقصدك.. لكن لا وجود لخروج من الزمان كما تقول... إلا بالـ....

صمت واصل دون أن يكمل بعد أن شعر بتسرعه..

ـ إلا بالموت أليس كذلك ؟

ـ آسف.. ولكن نعم هذا ما أقصده.

ـ لا داعي للأسف يا بني... فعلاً.. الموت هو التلخيص الفعلي للخروج من الزمان ولكن الزمان الدنيوي فقط، فالموت فيه خضوع لزمان آخر غير زماننا و بمفهوم توقيت مختلف ألا وهو زمان المنتظرين في ذلك العالم الآخر لحدوث البعث وعودتهم الثانية إلى حياة أخرى سينعدم فيها الزمان تماماً بعد الاستقرار فيها.

ـ صحيح.

هزّ واصل رأسه موافقاً ولم يجد ما يضيفه.

كان العجوز متعباً .. لكنه كلما دخل في نقاش ما التمعت عيناه أكثر ودبت حيوية ما في جسده جعلته يبدو كأنّ تحسناً واضحا قد أصابه.

لم يكن أمام واصل بعد أن ودع العجوز في هذا اليوم إلاّ أن يغرق في حيرة عميقة بحثاً عن أي خيط مهما كان دقيقاً يحتمل أن يدله أو يوصله إلى أبسط إجابة أو أصغر معنى من المعاني المطلوبة من قِبَل المريض، و هذا ما جعله بمجرد عودته إلى المنزل ينقر أبواب مكتبة والده التي لم يقربها منذ عامين تقريباً.

.٨.

السيد عارف موظف منذ مدة طويلة في وزارة التربية. عُيّنَ فيها بعد أن تخرج من قسم الأدب العربي وعمل مدرساً للغة العربية مدة بسيطة لم يستطع خلالها احتمال سماجة طلابه فقام من خلال صلاته الجيدة بأقربائه بإيجاد صيغة للانتقال إلى مبنى الوزارة الذي كان العمل فيه أكثر هدوءاً، و اقتصر نشاطه التدريسي على الدروس الخاصة التي لم تنقطع حتى فترة طويلة من استلامه للعمل في الوزارة.

كانت أموره المادية لا بأس بها بالنسبة له و لعائلته الصغيرة المؤلفة من زوجته الحاصلة على الشهادة الثانوية فقط و المتفرغة لتربية ابنه الوحيد واصل.

السيد عارف شخص مسالم، أخذ عنه واصل الكثير من هدوئه وابتعاده عن المشاكل و اكتفائه بما مهد السبيل دوماً لحياة بسيطة وهامشية دونما اضطرابات أو تعقيدات لا داعي لها.

مكتبته التي أنشأها منذ أن كان طالباً في الثانوية لم تكن غنية و لم تحتوِ تنوعاً هاماً، لكنها كانت و بشكل ما تعتبر بذرة جيدة لمن يريد أن يحرك دماغه في قراءة هادفة بسيطة.

تبدوواضحة لمن يراها بأنها مكتبة طالب لغة عربية، فيها الكثير من كتب ومصنفات الدراسة الجامعية إضافة إلى العديد من الكتب الأدبية و الشعرية القديمة، وبعض الكتب التاريخية و الدينية القديمة أيضاً، وتكاد رفوفها تخلو من أي كتاب أو مصنف جديد.

ينتقي الوالد منها كتاباً كل يومين أو ثلاثة ويقرأه بهدوء أو بالأحرى ينتقي منه فصلاً ما ويبدأ بمضغه ببطء وكأنه يستعيد بعض المعلومات أو يستهلك بعض الذكريات، أما الوالدة فكانت تهوى قراءة قصص الأنبياء و قصص الوعظ الديني و بعض الروايات المعروفة خالية الهدف.

توجه واصل في ذلك اليوم على الفور إلى المكتبة وبدأ بإعادة اكتشاف محتوياتها. لم تكن مؤرشفة بشكل جيد لكنها تبدوواضحة لمن يريد اكتشافها. ولم يستهلك وقتاً طويلاً حتى استطاع حصر الكتب الدينية الموجودة بأكملها.

أخرجها جميعاً وكانت لا تزيد عن اثني عشر كتاباً.

وضعها أمامه في غرفته واستغرق في نبشها حوالى ساعة كاملة استبعد فيها معظمها و استبقى ثلاثة كتب شعر بأنها قد تكون مفيدة له بشكل ما، أما بقية الكتب فما كانت إلا فقهاً مبسّطاً أووعظاً عاطفياً أوقصصاً غير موثقة.

كانت الكتب الثلاثة الموضوعة أمامه كتباً قديمة، الأول منها يتكلم في معظمه عن مسائل اعتقادية خلافية لغوية متنوعة، الفيصل في تنوعها هو الخلاف اللغوي بين مفسريها، والثاني كان موضوعه هو الحب الإلهي ونتف من حياة بعض من خاض في مثل هذا الموضوع مع أمثلة شعرية وقصائد مجتزأة، أما الكتاب الثالث فكان يتحدث عن الألوهية وصفات الإله. وهذا ما جعل واصل يترك كل الكتب الأخرى وينفرد بهذا الكتاب محاولاً التوصل لما يشفي غليل عجوزه غريب الأطوار.

كان يقرأ ببطء كعادة من لا يقرأ كثيراً. وكانت لغة الكتاب صعبة وموضوعه ليس بسيطاً على الإطلاق.

أمضى ساعة أخرى بتمحيص وتركيزولم يضع الكتاب جانباً إلا بعد أن شعر بألم في محيط رأسه فتذكر أنه لم يأكل حتى هذه اللحظة.

تناول غداءه شارداً متفكراً، ثم عاد مرة أخرى إلى غرفته دون أن يتكلم مع أي من والديه كعادته بعد الغداء.

استلقى فوق سريره وغاص في الكتاب إلى أن غلبته قيلولة العصرفنام نوماً عميقاً بلا أحلام.

في المساء استكمل انتقاله السريع بين فصول الكتاب.

كان يحاول الجمع بين الصفات والتوصل إلى أي عبارة من الممكن لها أن توصله لإجابة عن موضوع الرؤية، لكنه لم يفلح إلا بقراءة الصفات ومدلولات كل صفة وإثباتها المنطقي والفلسفي والديني الموثق بالنص.

شدّه الكتاب ببطء. كان يقرأ في البداية كي يجد الحل، يقرأ ليجيب، لكن الموضوع

سلبه مقصده واستسلم للصفحات التي أخذته إلى عالم آخر ... عالم غريب من كلام سماوي لم يعرفه في حياته.

عالم يختلف بشكل كامل عن عالم المخلوقات، عالم يطير في صفات الخالق لا المخلوق، عالم رحب... فيه من الرحابة ما لم يستطع واصل الوقوف عند بعضه دون أن يتجرعه وبشكل كامل.

شعر برهبة ما تتسلل إلى نفسه وكلّما قرأ أكثر تملكه الكتاب أكثر. كان كمن ينزل البحر للمرة الأولى.. يرغي الزبد عند أقدامه في البداية .. ويتسلى بحبات الرمل وببعض مخلفات الموج الخفيفة.. لكنه كلما توغل عميقاً بعيداً عن الشاطئ ذهب الزبد وصفت المياه وخفت الأصوات وهدأ الموج .. وصارت الأعماق مفتوحة من كل جانب وكل اتجاه أمامه، بإمكانه التمدد في أي اتجاه، الاتجاهات ممتدة كيفما استدار وكيفما نظر.. وهذا ما سلبه كل غاية كانت موجودةً قبل القراءة وباتت الكلمات الآن تقرأ بصفاء وهدوء، ومع صعوبتها ودقة معانيها وإشكاليات امتداداتها الفلسفية إلا أنه لم يجد بدّاً من إكمال الكتاب حتى الصفحة الأخيرة وبتمعن كامل بعد أن كان يقفز في البداية قفزاً من فوق الكلمات كي يصل فقط لما يريد.

لم يكن الكتاب كبيراً على أية حال.. بل كان يعتبر مجرد مدخل صغير الحجم قوي التأثير لهذا العالم الرحب الذي اطّلع عليه واصل للمرة الأولى وذهل لما فيه.

واصل الذي ابتعد في حياته الشابة عن كل ما قد يؤثر عليها سلباً أو إيجاباً وجد نفسه اليوم وجهاً لوجه مع أكثر القضايا ضخامة.. وجد كلمات لم يكن قد ذاقها من قبل ووجد موضوعاً لم يكن قد ألِف وجوده، وشعر كما لو أنه كان نائماً واستيقظ فجأة بنشاط.

ولربما هو شعور كل من أعطى إجازة طويلة لعقله من التفكير في القضايا العريضة ثم عاد ونشّط العقل من جديد بقراءته لكتاب أو لفصول من أي موضوع يطرح قضية هائلة كالتي قرأها واصل في تلك الآونة فأعطت عقله تلك الدفقة من الدماء الفتية التي تحركت أخيراً بعد دفعات المعلومات الطازجة التي وصلته.

نام تلك الليلة بعد أن أنهى الكتاب وغرق في حلم طويل شاهد فيه نفسه يتسلق جبلاً عالياً لا قمة له.. شاهد السحب تمر بين يديه حاول لمسها لكنه لم يستطع.

واستمر حلمه على هذا المنوال.. يتسلق.. ويتسلق.. ينظر نحو القمة ولكن.. لا قمة أبداً يمكنه أن يراها.

كان يرافقه شعور أكيد بأنه لن يقع مهما ارتفع في تسلقه.. كان متشبثاً بموقعه الآمن إلى أن يستطيع الانتقال إلى موقع آمن آخر.

وحتى فتح عينيه صباحاً لم يكن قد وجد قمة ليبلغها بعد.

٩٠.

ألقى واصل تحيته فور دخوله غرفة المريض في صباح اليوم التالي.

ابتسم العجوز وقال:

ـ بماذا جئتنا اليوم ؟

ـ في الحقيقة لم آتيك اليوم بإجابة لكنني عثرت أمس على كتاب يبحث في الألوهية وصفات الإله.. قلت في نفسي.. لعلّي غير قادر على اكتشاف الكتاب المناسب ولكني على الأقل يجب أن أعرف صفات الإله بما أنك تريد أن تراه. وكي أحصل على إجابة صحيحة.. ينبغي لي بداية أن أجمع ما يكفي من المعلومات على أقل تقدير.

لم يكن ما قاله حقيقياً مئة بالمئة فقد قرأ الكتاب بمحض المصادفة، ولم يكن قد عقد العزم على توجيه بحثه وفق ما قال، لم يكن من أصحاب منهجية منظمة كتلك التي ادعاها لنفسه، لكنه لم يجد مفرّاً من أن يظهر نفسه بمظهر المهتم بالبحث، وأنه قد قرأ الكتاب بعزم وتصميم وليس العكس.

ابتسم العجوز وأشرق وجهه.

ـ أحسنت.. كلامك صحيح، بل غاية في الدقة، لن تستطيع التوصل لإجابة بشأن سؤالي إلا إذا دخلت في الصفات وفهمت معنى الألوهية وصفات الإله جلّ وعلا.

تنفس واصل بعمق وشعر بارتياح بدأ يتسرب إلى أعصابه التي أصابها التوتر منذ اللحظة الأولى لدخوله الغرفة.

ـ ما الذي حصلت عليه من الصفات ؟

ـ الوجود.. الوحدانية.. القدم .. البقاء.. القيام بالذات.. و.. العلم .. الإرادة.. القدرة.. والسمع... والبصر .. الكلام والحياة.

ـ عظيم. يبدو أنك قد حفظتها كي تخبرني إياها.

ـ أبداً لكنني قد قرأتها ووجدت نفسي أحفظها على الفور.

_ كيف وجدت الكتاب ؟

_ كتاب غريب.. بدأت بقراءته علّي أجد ما أصبو إليه لكنني وجدت نفسي أتبعه وألحق بفصوله وغرقت تماماً فيه، بصراحة لقد كان عالماً جديداً بالنسبة لي.. الولوج إلى عالم الألوهية و التحدث عن الصفات وتعاريفها، رأي العلماء المتأخرين بها ورأي المتقدمين.. انقسام الناس في فهم المعاني الخاصة بكل صفة.

_ يختلف ذلك العالم عن عالم الإنسان أليس كذلك ؟

_ يختلف ويتشابه بآن معاً. لقد وجدت أن كلّ صفة عدا الصفات الخمس الأولى هي صفة موجودة لدى الإنسان بالطريقة الإنسانية المنقوصة لا بشكلها الرباني الكامل الموجود لدى الله تعالى، و هذا ما يجعل الكمال لله و يؤكد على محدودية الإنسان وصغر حجمه المعنوي أمام الكمال الإلهي.

_ أستطيع أن أوافقك الرأي مع بعض التحفظ.

_ .....

صمت واصل من جديد بعد أن شعر أن العجوز ينتظر منه قول المزيد، لكنه لم يكن يملك المزيد ليلقيه فلاذ بالصمت و أطرق رأسه لينظر بين قدميه.

_ وماذا بعد ؟

سأل العجوز:

_ وماذا بعد ماذا ؟

قال واصل.

_ وماذا بعد الآن ؟

_ لا أعرف.

_ يبدو أنك قرأت الكتاب مصادفة إذاً.. إن كنت لا تعرف ما هي الخطوة القادمة فأنت تسير خبط عشواء فإذاً لا طريق لديك لتحقق أمنيتي.. هل هذا صحيح ؟

تسلل التوتر من جديد إلى نفس واصل ولم يجد مناصاً من الكذب فقال:

_ أبداً.. اليوم حضرت نفسي كي أقابل أحد الأشخاص، لعلّي أستطيع الاستفسار من خلاله عن طلبك أما كتاب البارحة فقد أخبرتك بأني بدأت به محاولاً اكتشاف طريقي وتلمس منهجية بحثي.

ـ من الذي ستقابله اليوم ؟

ـ سأخبرك غداً يا عم ... سأخبرك غداً.

ـ إلى اللقاء في الغد إذاً. هذا إن كنت ستأخذ موضوع البحث بشكل جدي لا مجرد تفتيش سطحي في كتاب عثرت عليه مصادفة.

قالها العجوز بجفاء و التفت ليواجه النافذة.

فوجئ واصل بردة فعل كهذه، و أيقن أنه من الصعب أخذ العجوز على أنه مجرد رجل هرم ينبغي تمضية الوقت معه بأحاديث و قراءات مرتجلة دون أخذ موضوعه الأساسي بشكل جدي و منظم، فخرج محرجاً دون حتى أن يلقي تحية الخروج .. لكنه لم يذهب إلى منزله مباشرة بل عرج على الشركة كي يوقع كالعادة ثمّ توجه إلى صديقه شامل في مكان عمله.

.١٠٠

المركز الذي يعمل فيه شامل هو مركز دراسات دينية موجه للتخصصات الجامعية العليا.

فيه عدة فروع تدرس العلوم الشرعية والفروع الفقهية ومقارنات الأديان وأصول الدين وعلوم العقائد، واللغة العربية.

يعمل المركز تحت إشراف هيئة تدريسية منتخبة من علماء الدين المعروفين المرؤوسين من قبل مدير منتخب أيضاً كل ثلاث سنوات، يتم انتخابه من ضمن هذه المجموعة المشرفة.

أما المدرسين فقد كانوا كثيري العدد ويشملون جميع اختصاصات المركز، منهم المعروف ومنهم المغمور، منهم المخلص ومنهم المتنفّع ومنهم الجاهل، منهم من يدرس مجانا ومنهم من يتقاضى راتباً شهرياً.

كثرة عدد المدرسين و الاختصاصات و الطلاب جعلت سمعة المركز جيدة بين العامة، ولكن إن شئنا الواقع فلم يكن هذا المكان جيداً على الدوام، إذ كان يحتوي على الغثّ و السمين، وكل هذا كان تبعاً للاختصاص ولمدير الاختصاص ولمدرسي المواد وأخيراً للمدير العام المنتخب.

غرفة شامل صغيرة الحجم لكنها متوسطة بموقعها نوعاً ما بين جميع الغرف والقاعات بما يتناسب مع حيوية منصبه.

جدرانها الزجاجية الشفافة تسمح لصاحبها أن يرى كل ما حوله من غرف ومراجعين.

تطلّ الغرفة مباشرة على ساحة دائرية مسقوفة يتم تعليق الإعلانات فيها مع جداول المحاضرات و جميع فعاليات المركز ضمن لوحة إعلانات ضخمة تعتبر من اختصاص شامل.

عرض واصل على الفور موضوعه و ألقى بكل ما جرى دفعة واحدة أمام صديقه الذي دهش بداية ثم ضحك كما يفعل دوماً عندما يصادفه أي موضوع غريب.

_ ولماذا لم تخبرني منذ البداية ؟

سأل شامل.

_ لم يتح لي الوقت، إن هي إلا بضعة أيام فقط. اعتقدت بأني سأنهي الموضوع قبل موعدنا يوم الخميس ثم سأخبرك القصة كاملة، لكن الأمر تطور و لم يعد بإمكاني حلّه إلا إذا عدتُ إلى مرجعية ما، وأعتقد بأنك من الممكن أن تساعدني في ذلك.

_ هل يمزح هذا العجوز ؟ هل قال لك حرفياً بأنه يريد أن يرى الله ؟

_ نعم. قالها بالحرف و أكثر من مرة، و أقول لك أنه لا يمزح على الإطلاق في طلبه هذا.

_ لا أعتقد أن هذا الرجل مجنون أوغبي. أبداً، بل هويعي تماماً ما يطلب، الحوارات التي جرت بينك و بينه تدل على أنه رجل متفتح واعٍ يتمتع بحس منطقي ممتاز، لا مجرد عجوز مريض أصابه الخرف و هذا ما يجب عليك أنت الانتباه إليه بالدرجة الأولى.

_ ماذا تعني ؟

_ أعني ألا تستهين بعقله وتدعي أموراً غيرصحيحة، يجب أن تبقى صادقاً مع رجل كهذا، لا أن تحاول التعامل معه وفقاً لمنظورنا المعتاد حول العجائز المصابين بلوثات الهرم.

_ حسناً و ماذا الآن ؟

_ لربما كان يعني بطلبه هذا أن يرى الرؤية المعنوية لا المادية الصريحة، أعني لربما كان يتكلم عن الإيمان بشكله المطلق، عن وجود الله و التثبت من وجوده وصولاً إلى يقين الرؤية دونما رؤية، يبدو من كلماته أنه من أهل المعاني، ممن يقولون كلمة واحدة قد تحتمل الكثير من المعاني وتتلون حسب فهم الإنسان لها.

_ و ما الذي دلّك على هذا ؟

_ لست متأكداً لكنني أقول ربما، لقد أخبرتني عن تأكيده لمعنى اسمك مرتين أو ثلاث، بعد أن سألك عن معناه و أعطاك لمحة أوغمزة لمعنىً خفيّ يحتمله الاسم.

ـ ما الحل ؟ لا أعرف ماذا أفعل ؟ يطالبني الآن بمنهجية لا أعرف من أين آتي بها.

ـ هذا من حقه. الاتفاق الذي أبرمته معه ينصّ على أن تسعى لتحقيق رغبته، وهذه رغبته.. فحققها.

ـ هل تعي ماذا تقول ؟ أي رغبة تلك التي تتحدث عنها ؟ بالله عليك ارحمني من هدوئك العجيب.

ـ أقول رغبته بمنهجية بحثك لا رغبته الأولى، أي بوسعك أن تضع منهجاً للبحث علّك تجد ما يشفي غليلك وغليل هذا الرجل.

ـ أنا لا غليل لي كي يشفى، أما الرجل فلا أدري ما الذي يشفي غليله.

ـ اسمع، فلنأخذ الموضوع ببساطة ولنفترض أنه يطلب الرؤية أيّاً كانت الرؤية، رؤيا الإيمان أم رؤيا العين .. لقد بدأت بكتاب صحيح فاستمر على هذا المنوال وكما هو واضح أنه قد سُرّ بما بدأت به عندما شعر بأنك قد اهتممت بطلبه دون مواربة وقمت بوضع جدول للنظر بأمر أمنيته، وهذا أمر جيد، بإمكاننا الآن أن نضع خطّة أو منهجاً يساعدنا على الوصول إلى ذلك من خلال بعض الكتب وبعض الشخصيات هنا في المركز ثم ستشكل رأياً معيناً وتنقله له ببساطة وبصدق، وإياك والمواربة، فمن الواضح أنّ باستطاعته كشفها بسهولة، وهذا يغضبه.

ـ وما هي الخطة ؟ أنا لا أعرف !!

ـ هون عليك. سنسأل أحد الأساتذة بداية ومنه سنصل إلى طريق معقول.

قال شامل ذلك وألقى بعض جمله الساخرة فاستطاع أن يبث بعض الهدوء في نفس واصل الذي ركن إلى حل صديقه واستسلم لرأيه.

نهضا سوياً وقصدا غرفة تقع في نهاية الممر المحتوى على غرف المحاسبة وبعض الوظائف الإدارية.

قبل أن يدخلا الغرفة المنشودة قال شامل:

ـ سنسأل أستاذاً متخصصاً في مجال آخر لكن له خبرة ما في أبحاث تتعلق بموضوعك، لن نخبره بما حدث لكننا سنسأله عن منهج ما، كتب أو محاضرات، شيخ أو شخص من الممكن لنا سؤاله. لن يبخل علينا برأيه إن كان يعلم وسيدلنا إلى من يستطيع مساعدتنا إن كان لا يعلم، سأتكلم أنا.

نقر شامل الباب نقراً خفيفاً ثم دخل بهدوء يتبعه صديقه.

كانت الغرفة التي دخلا إليها صغيرة فيها مكتب خشبي قديم ومكتبة صغيرة ومدفأة وكرسيان.

يجلس خلف المكتب رجل يبدو في العقد الخامس، ضعيف البنية دقيق العينين ذو لحية رمادية قصيرة. يرتدي رداءً أسود فضفاضاً ويضع على رأسه طاقية بيضاء مزخرفة.

قام شامل بتحية الرجل وقدمه لواصل باسم الأستاذ نجيب.

ثم تابع بعد ذلك كلامه متلمساً الطرق كي ينسج صيغة سؤال مناسبة ترمي إلى الهدف دون أن تدخل في تفاصيل ما جرى مع واصل فعلياً.

ـ أستاذي الكريم، كنا في نقاش أنا و الأخ واصل حول إيجاد أو تعريف الطريق إلى الله عزوجل، إيجاد المنهج أو اكتشاف الدرب الموصل إلى الله، الموصل إليه بالضبط .. فهل ترشدنا إلى الخطوات الأساسية في هذا الأمر ؟

ـ ﴿ وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداعي إذا دعان﴾.

قالها الرجل بصوت قوي جهوري.

ـ تقصد الدعاء يأتي في المقام الأول.

ـ والله أعلم. اللهم دلنا بك عليك. إن لم يفتح الله طريقاً للعبد حتى يستدل عليه لن يستطيع العبد من تلقاء نفسه الوصول لولا هدى الله عزوجل.

ـ وبعد ذلك يا أستاذنا ؟

ـ أن يتوجه العبد كلية إلى ربه. سأعطيك مثالاً. ولله المثل الأعلى، أنت لم ترَ البحر أبداً و أردت الوصول إلى البحر ماذا تفعل؟

ـ أسافر إليه.

ـ نعم تسافر إليه، وقبل ذلك تعدّ عدة السفر، تسأل من ذهب إلى هناك وتطلب ممن عرفه أن يدلك على طريق و أن يصف البحر لك، تتوجه بكليتك نحو هذا الموضوع و تبذل ما يقتضيه منك حتى تصل وإلا فلن تصل. لن تستطيع البقاء في مكانك لتسأل وتجلس. يجب أن تعد العدة.

ـ وما هي العدة اللازمة إن أردنا الوصول إلى الله عزوجل ؟

_ ابدأ بالتوجه إليه في قلبك أولاً.. في نفسك.. وكن صادقاً، إياك و النفاق في هذا الأمر، بعد ذلك يجب عليك أن تبحث عما طلبه منك كي تتقرّب إليه، نفّذ ما أمرك به و ابتعد عما نهاك عنه، امتثل لأوامره واجتنب نواهيه مع خالص الإيمان و صفاء النية و كامل التوجه، و الطريقة المثلى لفعل ذلك هي بإتباع أهل العلم و المتقدمين في الدرب المؤدية إليه عزّ و جلّ و ملاحقتهم، كل هذا من أسباب الوصول.

_ وكيف أعرف المتقدمين في هذا الطريق؟

_ اليوم في الثامنة مساءً إن شاء الله و في صالة العلم التابعة لمركزنا سيتكرم علينا شيخنا العلامة أبو الحكم بدرس جليل في آداب إتباع أهل العلم و طريقة سير المريد على خطا الشيخ و سلوكه القويم و ما إلى ذلك، أعتقد أنك ستجد في هذه الجلسة المباركة ما ينفعك فتعال واجلب معك الأخ.. وربما ستجد ما تصبو إليه و ستجد من تتبعه من المتقدمين في درب العلم وأنت معصوب العينين.

نظر الأستاذ في ساعته ثم استأنف:

_ و الآن أستأذن .. عدم المؤاخذة. لقد جاء موعد محاضرتي، السلام عليكم.

_ و عليكم السلام.. أستاذنا.

غمغم واصل بصوت غير مفهوم رداً للسلام، ثم نظر نحو شامل باستفهام بعد أن خرج الرجل متحركاً بهدوء لافت للنظر.

_ يعني ؟ ما المطلوب الآن ؟

_ لنذهب اليوم.

_ وما الذي سنفعله هناك ؟

_ لا تكن متسرعاً !! لنذهب و نستطلع، ربما نصل لتحديد طريقة ما، ناهيك أني أعرف الشيخ الذي سنذهب لحضور درسه بل ربما سنقابل الكثير ممن يمكننا سؤالهم، لنذهب و إن لم يعجبنا الأمر فعلى الأقل ستكون قد حاولت و سيكون لديك ما تخبر عجوزك العجيب به.

_ لا أعرف.. ولكن..

_ سأقابلك في السابعة و النصف أمام باب المركز. سننطلق من هنا. صالة العلم قريبة.

وافق واصل مرغماً بعد أن شجعه وجود صديقه في أمر كهذا إلى جانبه مع معرفته بالمكان و الأشخاص و تصديه هو شخصياً لأي حوار أو إلقاء أسئلة ما سيجنب واصل الكثير من الحرج و الارتباك.

.١١.

الشيخ أبو الحكم عالم معروف في المدينة.. يحترمه الناس ويبالغون في تقديم الطاعة له ولتعاليمه، ويداومون على حضور دروسه ومحاضراته من غير انقطاع.

كان طلابه يوقنون بأن من يتبعه سيصل، و أنه منارة الطريق، وأن من يتعصّب لأفكار الشيخ أكثر فقد وصل و كفاه الله شر القتال، وما عليه إلا أن يعصب العينين ويتبع الشيخ دون سؤال أو تضييع وقت، فقد دلّ الله عباده عليه عن طريق الشيخ أبي الحكم. حسب يقينهم.

كان الشيخ ضخم الجثة باسق الطول يرتدي حلة الشيوخ، قفطاناً طويلاً من جوخ ثقيل و عمامة بيضاء ترتفع أعلى قليلا من ارتفاع العمائم الشائع، مما يزيد في طول الرجل أكثر.

له لحية بيضاء كثّة تتخللها بضعة خطوط سوداء تبدو كعروق فلزات المعادن التي تظهر في باطن الأرض.

عيناه زرقاوان صغيرتان، تبدوان للناظر إليهما من بعيد كخرزتين بلا جفون، ويساعد بياض بشرته على ذلك.

كانت القاعة تغصّ بطلاب العلم و المريدين و متابعي أقوال الشيخ، قاعة واسعة امتلأت و فاض الحاضرون منها إلى الخارج حتى بدت من بابها كأنها تفور حضوراً.

من خلال موقع شامل الوظيفي استطاع الدخول و الحصول على مكان للجلوس قرب الشيخ.

توقع واصل أن تكون القاعة كأية قاعة محاضرات اعتيادية، منصة تقابلها صفوف من المقاعد للحضور، لكن الأمر كان مختلفاً هنا، لم تكن القاعة تحتوي على منصة و إنما كانت تضمّ فقط كرسياً للشيخ وسجاداً سميكاً موصولاً ببعضه بعضاً دون مقاعد للحضور، كان الجميع يجلس على الأرض أمام الشيخ .

في مكان ما قريب من مقدمة القاعة جلس الاثنان بجهد بعد أن أفسح الجالسون مكاناً ضيقاً يبدو كأنه خلق من اللامكان و بطريقة سحرية.. لملم عدة أشخاص من الجالسين أرجلهم و أزاحوا أجسادهم بطريقة آلية فظهرت على الفور فسحة صغيرة تكفي لجلوس اثنين ولكن باستخدام ركبة و نصف فقط للجلوس لا أكثر.

كانت القاعة تموج بالرؤوس و الهمسات، وكان معظم الحضور يرتدي العباءة الخفيفة و الجلابية البيضاء الصينية أو الرداء الباكستاني، و قلّة منهم فقط كانوا يرتدون البذلة الرسمية و منهم شامل، أما واصل فقد كان الشخص الوحيد الذي يلبس جينزاً خفيفاً وقميصاً قطنياً ملوناً و لذلك كان يشعر بحرج ما نتيجة اختلاف مظهره خاصة بعد أن لسعته الكثير من النظرات هنا و هناك ممن يحيطون به، نظرات استغراب أو تساؤل عما يمكن أن يفعله شاب بهذه الحلة في هذا المكان ؟

في لحظة ما خلال تماوج الغرفة ازداد الهرج و المرج و ارتفعت الأصوات لتتناقل جمل موتورة بتسارع و تزايد يشبه تسارع نبض إنسان خائف.

_ جاء الشيخ، جاء سيدنا، جاء شيخنا، لقد حضر لقد حضر.. إلخ.

وهنا تباعدت الصفوف بطريقة غريبة تشبه الاستعراضات المفاجئة التي تقوم بها مجموعة من التجمعات البشرية في حفلات الألعاب الأولمبية، تمايل الجالسون من طرفين عشوائيين ليخلقوا طريقاً مفاجئاً لموطئ قدم الشيخ، بعضهم وقف احتراماً، وبعضهم ارتبك، وشبه لواصل دون أن يتاح له التأكد أن أحدهم وبشكل خفيّ وضع يده على الأرض التي مرّ الشيخ من فوقها ولمس البقعة التي داسها بقدمه.

عندما وصلت أطراف عباءة الشيخ قريباً من واصل كونه و صديقه يجلسان قريباً من كرسي المحاضرة، مدّ أحد الجالسين يده على الفور و لكز كتف واصل ليحضه بوجه شبه غاضب:

_ أفسح طريقاً للشيخ، أفسح طريقاً للشيخ.

شعر واصل بألم خفيف في موقع اللكزة التي تلقاها في كتفه وأزعجته جلافة الرجل.. فلم يبد حراكاً بل ظلّ ساكناً و لم يبتعد، فما كان من الشيخ إلا أن مر بمحاذاته واضطر أن يستند بيده على كتف الشخص الذي لم يفسح مكاناً كبيراً ولم يكن هذا الشخص إلا واصل.

وضع كفه الضخمة على كتفه و استند إليه تماماً حتى عبر من ذلك الصف ثم ضمّ يده من جديد إلى جسده أما الجالسون حول الشاب فقد سادت بينهم همسات خفية و غمزات و اضطراب خفيف مكتوم بعد أن لمست يد الشيخ كتفه.

شامل الذي كان يجلس في الطرف الآخر لمرور الشيخ اقترب برأسه و همس في أذن صديقه:

_ لقد حلت عليك البركة، يبدو أن لك قلباً طاهراً.

_ ماذا تقول؟

_ من المعروف أن الشيخ لا يلمس إلا من كان طاهر القلب، إنهم يحسدونك الآن، يالك من محظوظ لعين، تأتي هنا وللمرة الأولى ثم تحظى بلمسة مباركة من يد مولانا.

قالها شامل و غمز بعينه غمزة فيها من السخرية ما فيها.

نظر واصل يمنة و يسرة فوجد عيون الدائرة الجالسة حوله قد تعلقت به، فاحمرّ وجهه و حاول أن يغوص أكثر في موقع جلوسه علّه يختفي قليلاً و تعتقه الأنظار المتعلقة به.

وصل الشيخ إلى كرسيه المريح، فجلس بهدوء. نظر إلى الحاضرين وتأملهم قليلاً ثم ألقى السلام و بدأ بترويسة البدء المعتادة من تسمية باسم الله و الثناء عليه و حمده و شكره و الصلاة على النبي المصطفى ثم قال:

_ وبعد.. أرى اليوم وجوهاً جديدة، لعلّ الله قد أرسلها لنا كي تأخذ من معين العلم.. و أرجو من الله أن يبقيها بيننا و أن يرفع من درجات العلم و طريق الحق في ناظريها، وجوه نيّرة و أفعال خيّرة بإذن الله.

نظر الشيخ نحو واصل في نهاية جملته هذه و ندت عنه ابتسامة خفيفة من طرف شفتيه الغائبتين ما بين الشارب الملجوم و اللحية المتفاقمة.

ثم بدأ الشيخ بإكمال ما وصل إليه في الدرس السابق من آداب طريق العلم.. أما واصل فقد كان بداية لا يسمع أو هو يسمع ولا يعي لانشغال فكره بتوجيه الحديث له من قبل الشيخ و الكيفية التي عرف فيها أنه جديد هنا، حاول إيجاد منطق للموضوع فلم يجد منطقاً إلا ظهوره الواضح بملابسه الغريبة بين كل تلك الوجوه الحاضرة المتشابهة.

بعد بضع دقائق عاد واصل من شروده، وانساقت تساؤلاته تلك إلى مكان مجهول حيث تبددت آنياً أو أُجّلت ثمّ عاد ليتتبع كلمات الشيخ، يتلمسها ويتفقد معانيها.

كان الكلام يدور حول ما يجب على المريد أو التلميذ أو طالب العلم فعله لدى الشيخ أو المؤدب، حول سلوك و آداب طلبة العلم، كيفية اتباع الشيخ و الإمساك بتلابيب علمه حتى يستطيع المريد الوصول ببركة وجود شيخه و بركة دعائه و نور علمه وضياء حكمته، ثم بدأ بإسقاط الموضوع على كثير من الآيات و الأحاديث التي أوّلها بطريقة تتناسب مع نظريته التي يصدح بها، ثم أتى بأمثلة كثيرة و قصص وروايات لا يعرف تاريخها، منها المعروف و منها المجهول، تثبت النظرية نفسها و تتغنى بتفاني إخلاص المريد للشيخ و الاستماتة في سبيل إتباع طريقه و تحقيق منهجه وتحصيل علمه الذي علمه الله إياه.

كانت المبالغات في كثير من القصص تجعل واصل يقطب جبينه وتجعل شامل يلكز واصل ويبتسم ابتسامته الساخرة الخفية وتجعل بقية الجالسين يتأوهون ويكبرون بصوت عال ويتمنون أن يكونوا من أهل ذلك الزمان الغريب الذي يتكلم عنه العلامة الذي يفيض منه العلم على من حوله.

بعد حوالى ساعة أشبع فيها واصل تماماً من تلك الفيوض و تلك الإرهاصات بدأ يتململ في جلسته ثم همس في أذن صديقه أنه يريد الخروج فقرصه شامل قرصة مؤنبة وقال هامساً:

ـ هل تريد أن تقلب الدنيا علينا، اصبر قليلاً، لم يبق الكثير كي نخرج.

بعد نصف ساعة أخرى اختتم الشيخ حديثه بدعاء مقفّى طويل، ثم أنهى درسه و قبل أن ينهض قال:

ـ أرجو أن نرى الوجوه الجديدة في درسنا ثانية، فلعمري لن تأتي المنفعة إلا من دوام العمل الصالح.

تفوه بآخر كلمة مع التفاتة أخرى مبتسمة منه نحو واصل، ثم نهض و شمر عباءته و شق طريقه للخروج بين جموع الطلاب المتدافعين لإلقاء أسئلتهم عليه.

نهض الصديقان بصعوبة بين المتدافعين. قال واصل :

ـ كيف عرف بأني من الوجوه الجديدة ؟

ـ لا أعرف. ربما هو من أهل الكشف.

ـ ومن هم أولئك ؟

ـ أي ممّن يكشف لهم بعض الأمور المستورة.

ـ لا يعلم الغيب إلا الله.

ـ صحيح، أنا لا أتكلم عن الغيب، لكنني أقول من الممكن أن يكون الله قد أراه بفراسة معينة أنك جديد هنا، فراسة شيخ، فراسة رجل العلم النبيه، أقول ربما.

ـ وربما رأى أني الوحيد هنا الذي أرتدي هذه الملابس الغربية فاكتشف ذلك.

ـ نعم و هذا ما أعنيه بفراسة رجل العلم، فاكتشافه لك بهذه الطريقة فراسة أيضاً.

ـ والآن ما الذي ننتظره ؟

ـ ننتظر مرور الشيخ من هنا كي نسأله.. هل نسيت عجوزك وسبب حضورنا ؟

انتظرا ما يقرب من خمس عشرة دقيقة حتى وصل الشيخ إليهما في طريقه للخروج، فابتسم هذا الأخير عندما واجههما وقال:

ـ منذ زمن بعيد لم نرك في درسنا يا سيد شامل، لكننا سررنا بك وبمن معك ..

ـ جزاك الله خيراً يا مولانا، والله لم يؤخرنا عنك إلا العمل والدنيا.

ـ انتبه من الدنيا لربما أخرتك عن الجنة.

ـ معاذ الله يا مولانا، جعلنا الله وإياك من أهلها. معي هنا الأخ واصل أحب أن يستنير اليوم معي بعلمكم فجئنا إليكم سوياً.

ـ والله إنك لم تأت اليوم إلا من أجل صديقك هذا، أليس كذلك؟

ضحك شامل وهز رأسه موافقاً ثم قال:

ـ ولدينا سؤال لك يا سيدي، إن لم يكن فيه إزعاج أو تأخير ؟

ـ ألقِ ما عندك يا شامل.

قال الشيخ جملته هذه وهو ينظر إلى واصل وكأنه يتوجه بالحديث إليه.

ـ ما هي يا مولانا أقصر السبل إلى الله تعالى، إلى معرفة الله عزّ وجلّ، وهل هناك منهج معين في إيجاد هذه الطريق؟

ـ من قلّد عالماً لقي الله سالماً.

ـ ومعنى هذا؟

ـ الطريق إلى الله تكون عبر إتباع طريق من سبقك إليه، من اكتشف الطريق قبلك، عليك أن تتبع خطاهم وتتعلق بأطراف أثوابهم فهم ماضون في طريقهم المنير ومسرعون في دربهم العسير، لكن عسرة الطريق لا تثنيهم، ووعورة الدرب لا تشقهم. اتبع العلماء، أهل العلم الواصلين إلى ما عجزت أنت عن الوصول إليه، كن طالباً سالكا لما يوجهونك إليه، ولا تقم بأي فعل إلا من خلالهم، فالأفعال الاعتباطية غير الموجهة لن تكون نتيجتها إلا الضياع والخسران المبين والطريق إلى الله طريق فردية للعالم وجماعية للتابع والمقلد.

ـ أليس بالإمكان يا مولانا أن تكون الطريق فردية في حالات خاصة أي أن يسلكها العابد وحيداً دونما قائد، أو أقصد دونما شيخ ؟ عبر الكتب أو القراءة ؟ أو عبر نقاء سريرته أو صفاء ذهنه وطيب منبته ؟ أقصد هل من الضروري أن يكون سالك الطريق مريداً أو تابعاً لأحد سابقيه في الوصول؟

ـ هذا شرط أساسي. وإلا فكيف سيعرف إن كان على حق أم أن الشيطان قد ضلّله، وللشيطان هنا صولات وجولات في التضليل والتشويه والتلبيس، أما إن كان لك مؤدب وشيخ فسيمسك يدك في دياجي الظلام إن جنّ سواده وأنت وحيد ضعيف، وسيبين لك ما عميت عيناك عن رؤيته.

ـ وهل من وجود للشيطان في هذا الطريق ؟ أقصد ألا يقي الله عباده السالكين في طريق الوصول إليه من همزات الشيطان ؟

ـ من لا شيخ له فشيخه الشيطان.

ـ سؤالي الأخير يا مولانا.. ما الذي يجب أن أفعله الآن حتى أصل ؟ أريد وصفة من واقع ؟ من أتبع ؟

ـ أما هذا فأنت الذي تجيب عنه. ولكن بإمكانك المداومة مبدئياً على دروس العلم وستجد أنك وبقليل من الصبر ستلتحق بجموع السائرين على الدرب لتصبح واحداً منهم في مدة قصيرة ومستهداً نفسك.. ونفس السيد واصل.

أنهى الشيخ جملته وأكمل طريقه حتى باب القاعة ثم خرج مع المحيطين به.

بقي الاثنان في القاعة بعد أن فرغت تقريباً.

ـ حسناً.. ما الذي وصلنا إليه الآن؟

ـ إذا أردت الوصول إلى الله يجب عليك إتباع أحد الواصلين أو السالكين أو الشيوخ الذين منَّ الله عليهم بهذا.

ـ هل تمزح ؟

ضحك شامل..

ـ لا لا أمزح ولكن هذا ما قاله و أنا أنقل لك مقولته التي لا تخلو من صواب.. على ما فيها من قيود و إزعاج و ابتعاد عن منطق التميز الآدمي.. ولكن الآن على الأقل أنت تملك شيئاً كي تخبر العجوز به.. اذهب إليه غداً و أخبره بما فعلت اليوم..

ـ وإن سألني عن نهجي الذي انتهجته ؟

ـ أخبره بأنك ستتتبع أهل العلم و ستبحث عن سالكي الدرب.. ستحاول إيجاد دروس العلم التي تمهد الطريق لكل باحث و ستتمسك بمن تراه مناسباً من معلمين كي يدلك.. هذا ما أراه مناسباً، و على أية حال لا شيء لديك لتخسره فلم لا تقضي تلك المدة و تسترخي و تبتعد عن اضطرابك و تستمتع بقصة المريض الذي أرسله الله إليك حتى يخلصك من غباء وروتين شركة الحياة.

افترق الاثنان في هذا اليوم.

عاد واصل إلى منزله سيراً على الأقدام و ترك العنان لفكره كي يتطاول و يتمدد ويفكر هنا وهناك و يعيد مضغ و اجترار كل ما مر به في هذا اليوم كي يصل إلى صيغة معقولة يقدمها للرجل المنتظر.

.١٢.

بدأت الأفكارتأخذ طابعاً مختلفاً قليلاً عما كانت عليه من قبل في عقله، وأخذ الأمر يتمدد في انتقال بطيء من حيز المهمة الواجب تنفيذها إلى حيز التساؤل الشخصي والمطالبة الذاتية غير الملحة.

أخذت إشارات الاستفهام الخجولة تبزغ في فكره، تساؤلات حول الأمنية بشكل عام، تساؤلات تغوص في فضاءات الكتاب الذي قرأه، و تساؤلات تتناول الدرس العجيب الذي حضره عند الشيخ أبي الحكم و تتناول أبا الحكم ذاته، فراسته أو كشفه و الطريق التي تحدث عنها، تلك الطريق المرهقة التي تقضي بالاتباع المطلق والتقليد الكامل.

لم تتقبل نفسه فكرة الانقياد، بل شعر بأن فكرة كهذه من الممكن لها أن تحمل إهانة شخصية له بطريقة من الطرق، إهانة لاستقلاله، وعقله، وتميزه الإنساني.

وجد شيئاً فشيئاً أن تلك التساؤلات التي تبرعمت في ذهنه تخصّه شخصياً بشكل من الأشكال، لم يشعر بأنه منفصل عنها أو حيادي تجاهها، بل بات رأيه يشكل فرقاً فيما يسمع من دلالات الطريق ووصفها، وبات هو ذاته بحاجة معينة لإجابة مريحة ومقنعة.

كان من المناسب بالنسبة إليه نقل كل ما جرى معه إلى المشفى ومشاركة مريضه، وعرض تساؤلاته الشخصية عليه علّهما يصلان لحلّ مشترك يرضي به ذاته وبنفس الوقت لعلّ الوقت يمضي وتنتهي مدة الأمنية التي قلبت نظام حياته وروتينه اليومي.

لم يكن العجوز نزقاً أو عدوانياً هذه المرة، بل استقبل واصل بوجه بشوش وبابتسامة مرحبة عريضة.

كانت الغرفة لسبب من الأسباب تبدو أوسع قليلاً لواصل، كان واضحاً بأن فجوة أو انفتاحاً قد حصل في جهة من جهاتها.

في البداية لم يستطع واصل تحديد الشيء الذي اختفى حتى ظهر ذلك الاتساع، لكنه حاول حصر دماغه ليتصور الغرفة من قبل، فتسربت إلى ذاكرته أخيراً صورة الجهاز الغريب الذي كان موصولاً بأسلاك إلى جسد العجوز دون أن تظهر منطقة الاتصال.

في هذا الصباح اختفى الجهاز فبدت الغرفة مختلفة قليلاً. لاحظ العجوز نظرات واصل الباحثة فقال له على الفور:

ـ انتهت وظيفة الجهاز. لقد سبب لي الكثير من الألم والضيق، لا أجهزة بعد اليوم.

ـ الحمد لله يا عم، إذاً الأمور في تحسن.

ضحك العم ولم يرد على ذلك بل قال:

ـ هل أسألك أم أنك ستلقي ما عندك فوراً أم .. لعلك لم تأت اليوم بشيء ؟

ـ أنت متسرع يا سيد عبد الله، لقد جئتك بالكثير.

ـ جيد. هل وجدت آلية أو طريقة واضحة ؟

ـ لقد وجدت منهجاً، وجدت طريقاً معقولة لعلّها تجعلني أستطيع الوصول لحقيقة ما أبحث عنه.

ـ تقصد حقيقة ما أبحث عنه أنا أليس كذلك ؟

ـ نعم .. لا فرق.

نطق واصل جملته ببعض الضيق فقال العجوز:

ـ أعتقد بأنك الآن بدأت تضع أقدامك إذاً على بداية الطريق، لقد تكلمت عن المسألة على أنها مسألتك الخاصة وهذا أمر يفرحني ويريح فكري.

سكت واصل وفكر قليلاً. لقد كان ما قاله المريض صحيحاً.

ـ ذهبت أمس لحضور درس علم، لعلي أستطيع سؤال العالم صاحب هذا الدرس عما نبحث عنه.

ـ أي درس علم ؟

ـ درس لشيخ جليل اسمه أبو الحكم.

ابتسم العجوز.

ـ حسناً وماذا وجدت عند أبي الحكم ؟

ـ وجدت أن الطريق إلى الله يجب أن تكون عبر اتباع نفس طريق مَن سلكها مِن قبل.

ـ جميل، تابع.

ـ أي عبر تلمس الحقائق الموجودة لدى أهل العلم السابقين في هذا الطريق وتقليدهم.

رفع العجوز حاجبيه عالياً حتى كادا يبلغا نصف رأسه و قال بلهجة لا تخلو من استنكار:

ـ تقليدهم !!

ـ نعم تقليدهم وإتباعهم و الوصول لما يجب فعله عن طريقهم لأنهم سيدلوننا على الطريق الصحيح بما وصلوا هم أنفسهم إليه من تقوى وورع ومما أفاض الله عليهم من علمه، فنستطيع من خلال تقليدهم و التمسك بهم الوصول.

ـ إذاً تريد تقليد أحد ما و جعله مقصدك كي تصل لله !!

ـ من قلّد عالماً لقي الله سالماً.

ـ من قال لك هذه الجملة ؟

ـ الشيخ أبو الحكم.

ـ وهل قابلته شخصياً ؟ أقصد هل كلمته بهذا الشأن ؟ هل ذكرت له قصتي ؟

ـ لا لم أذكر له أي شيء عنك، لكن صديقاً لي . كان بصحبتي . كلمه و سأله عن الطريق إلى الله.

ـ هل سأله عن رؤية الله أم الطريق إلى الله ؟

ـ الطريق إلى الله.

ـ ما دليلك أن أبا الحكم عالم حتى تقلده ؟

ـ إنه عالم، الجميع يعلم ذلك.. الناس كلهم يتوجهون إليه.. يجلّونه.

ـ إذاً.. إذا أجلّ الناس الآن أكثر المجرمين شراسة وضراوة ستجلّه أنت أيضاً؟

ـ لا طبعاً فأولئك بشر لا أتبعهم.

ـ وما يدريك أن هؤلاء يمكنك إتباعهم ؟ كيف حكمت على الناس الذين رأيتهم في درس أبي الحكم بأنهم صحيحو الحكم و كاملو الإدراك للحقيقة التي تبحث عنها ؟

وأنهم يسعون إلى ما تسعى إليه أنت ؟ أوما أسعى إليه أنا.

لم يكن لدى واصل ما يرد به على فكرة العجوز الذي تابع أسئلته:

ـ هذا من جانب، ومن جانب آخر ما هي فكرة التقليد التي تتحدث عنها ؟ أن تقلّد شخصاً فيما يفعل ؟ هل هذا كافٍ بالنسبة إليك كي تصل إلى ما وصل إليه ؟ هذا إن كان قد وصل إليه فعلاً أو حتى وصل إلى جزء منه ؟ إن كانت لديك موهبة ما في أي مجال، ولنذكر التأليف الموسيقي على سبيل المثال، ورأيت نجماً موسيقياً، مؤلفاً، ولنفترض أنه مؤلف جيد، إن كنت تريد أن تصبح مؤلفاً مثله يجب أن تتفكر في خطاه وربما تقلّد بعضها لتصبح أنت نفسك مؤلفاً لا أن تكرر شخصيته وتردد مقطوعاته وتصبح ظلاً عاكساً لشكله ثم تابعاً تمشي وراءه، بهذا لن تتقدم عليه أبداً، لن يصبح لك مقطوعة إلا من خلال مقطوعاته، ستكرر طريقة لبسه، و تسريحة شعره، وطريقة مشيه وكلامه وضحكته، ستصبح هو، ولكن بالتقليد، دونما أي خصوصية لموهبتك وتميزك، إن كانت الدنيا ستسير كذلك لكانت كل الأفكار واحدة وكل المواهب واحدة وكل الأعمال الجليلة اختصرت في بضعة أعمال لبضعة أشخاص، لو كانت الطريق هكذا لكانت الأشياء كررت بعضها والأفكار اجترت بعضها ولما وجدت قوافل المتميزين تسير في كل مكان وتأتي بكل ما هو جديد.

ـ ولكن كيف إذاً سأسير على خطاه دون أن أقلده ؟

ـ أن تدرس طريقه بشكل كامل، ثم تجعل نفسك حكماً على الطريق بما أوتيت من قوانين عامة أراك إياها الله وقدمها إليك عن طريق عقلك أو عن طريق علماء آخرين أيضاً، أن تختار من دربه التي سلكها ما تراه صحيحاً بعد عرضه على القلب والعقل، لا أن تعصب العينين وتترك نفسك كالتائه بين يدي أي إنسان مهما علا شأنه وعظم وجوده وتطايرت أفكاره كالنجوم.

بلع العجوز ريقه فتناول كأس الماء بجانب سريره وشرب جرعة واحدة بهدوء، ثم ابتلعها ببطء شديد بعد أن ظهرت عند زوايا عينيه تثنيات كثيرة تدلّ على ألم شديد مكتوم من جراء مرور المياه إلى جوفه.

وضع الكأس وتنفس قليلاً، كان يبدو جلياً لمن يراه بأنه يتألم، تنفس عدة مرات ثم نظر إلى واصل الصامت واستأنف كلامه:

ـ لنأخذ تلك المقولة ولنتكلم عنها قليلاً "من قلّد عالماً لقي الله سالماً"، أولاً التقليد يكون في الأعمال لا في العقائد، أي أن أقلّد فعل الخير بعد الاعتقاد التام بأنه فعل خير لا أن أقوم به لمجرد أن قام به هذا أو ذاك من أهل العلم، أما العقيدة فهي اليقين الحقيقي الذي يتشربه القلب و تسمو به الروح و يصل فيه الإنسان إلى مستواه الإنساني الحقيقي عبر الاعتقاد اليقيني بأمر صحيح من غير الممكن تغييره على الإطلاق بعد تثبيته في القلب بالأدلة وبآيات الله في الآفاق و الأنفس، ولن يتأتّى للإنسان مثل هذا اليقين إلاّ عبر القناعات الكافية و الأدلة الآتية من كل ما خلق الله من حولنا وعبر الفتح الرباني المرسل من لدن ربّ لطيف يريد الخير لعباده، لا عبر التقليد. لا يمكن أبداً لقناعة أن تقلّد، ستقلب الحياة عندما تقلد القناعات، وستصبح مجرد حلبة ترويض كبيرة تروض فيها بواطن البشر كما تروض الحيوانات. ثانياً، لنأخذ الطرف الآخر في المقولة: العالِم .. من هو العالِم ؟ وكيف لي أن أعرف بأنه عالِم؟ وهل هناك ثوابت أو شروط تنطبق على من أراه كي أستطيع القول بأنه عالِم و أترك المجال لقلبي كي يتبعه بحرية و أنا راض عنه ؟

ـ ما هي مهنتك يا عم ؟

ـ دع مهنتي يا بني. ليست هي المهمة الآن. اسمع.. اذكر لي بالضبط حوارك مع أبي الحكم.

سرد واصل الحوار كما جرى بالتفصيل وبعد أن انتهى قال العجوز:

ـ إذاً "من لا شيخ له فشيخه الشيطان" ؟

ـ نعم، هذا ما قاله.

ـ فما قول أبي الحكم بالآية التي تقول ﴿ إنّ عبادي ليس لك عليهم سلطان وكفى بربك وكيلاً ﴾ ؟

ـ لا أعرف.

ـ إن هي إلا مقولات كررها أبو الحكم كما تعلّمها، تعلمها حتى صارت تؤلف أساس فكره و لبّ قناعته عن طريق التكرار و الاقتباس لا عن طريق السعي، أخذها عن غيره، وربما كان غيره ممن سبقه قد أخذها أيضاً عن سلفه وهكذا بالطريقة نفسها وصولاً إلى الشخص الأول الذي ألّف تلك العبارة عن وعي أو عن غير وعي، عن قناعة

كافية من خبرة جليلة أو عن تجربة صغيرة شكلت لديه تلك القناعة، فكون بالسجع المقفى تلك العبارة و صارت مضرب مثل للاستدلال على تكرار قناعات الشيوخ، لكننا إذا جردنا العبارة وعدنا بها إلى وطنها الأصلي لم تتعد كونها عبارة قيلت من قبل إنسان عادي لا نبي و لا رسول فلمَ ينبغي علينا التسليم بها دون عرضها على العقل و المنطق و الهدي الرباني؟ لمَ ينبغي علينا أخذها جاهزة كقالب و التشبّث بها دوماً ؟

_ أنت تصعب الأمور كثيراً يا عم ! ما من كلمة تمر لديك بيسر ا دوماً هناك مشاكل ومعان و أفكار عميقة! بصراحة أنت تذهلني تارة و تربكني طوراً، لم آخذ الأمور هكذا في حياتي، أخذتها بشكل أكثر بساطة و أكثر هدوءاً، ربما هو طبعي الذي يبتعد عن التعقيدات.

_ أستطيع أن أفهم ما تقول، و لكننا إن أردنا الوصول إلى عمق الحقيقة و عين اليقين لا يمكننا القبول بسطوح المعاني و طافي العبارات، يجب علينا الغوص قليلاً، ومن لا يعرف الغوص ينبغي عليه تعلمه، وإلا فلن يستطيع استخراج الدرر المدفونة في العمق، أليس كذلك ؟

_ أسمع كلماتك فأقتنع، و في الوقت نفسه أرى نفسي أغير من طريقتي في رؤية الأمور و معالجتها.

_ لربما كنت تتجنب رؤية بعض الأمور و ربما كنت تتجنب معالجتها أيضاً بحجة التبسيط.

_ .....

لم يعجب واصل انتقاد العجوز له على الرغم من لطافته في إلقاء النقد، و شعور واصل بصحة ما يقوله محاوره بشكل شبه دائم.

_ سأطلب منك طلباً يا بني.

_ تفضل.

_ أريد منك أن تغيب لمدة أسبوعين، حاول تصيد دروس أبي الحكم و حضورها، أنصت لما يقول، دع عباراته تجتاز حواجز السمع لديك و تتسرب إلى أعماقك واعرضها على نفسك و عقلك و يقينك وحاول في الوقت ذاته أن تنتقي درسين على الأقل من دروس العلم الخاصة بأشخاص آخرين، إن أردت الحصول على الإجابة

الخاصة بسؤالي عن طريق المنهج الذي وجدته أنت فإذاً ينبغي عليك أن تدخل أكثر وتبحث أكثر.

_ هذا ما كنت أنوي فعله، ولكن هل تريد مني أن أنقطع عن زيارتك لمدة أسبوعين ؟

_ نعم، لست مضطراً للقدوم يومياً، لقد وجدتَ منهجك، دعنا إذاً نجعل هذين الأسبوعين مرحلة سترى خلالها وتجمع ما تستطيع من المعلومات المودية إلى ما أصبو إليه عبر طريقتك التي اخترتها، ثم ستخبرني بملخص ما وصلت إليه و سنناقش الأمر سوياً.

_ وليكن كذلك، أتمنى أن أراك بصحة وسلامة في المرة القادمة.

_ مع السلامة.

.١٣.

لم يكن بالإمكان تلخيص أو تعريف الشعور المتشكل في نفس واصل تجاه العجوز، لكننا نستطيع أن نقول إنه كان شعوراً مختلطاً ما بين ضيق و دهشة و إعجاب وربما إكبار في بعض الأحيان.

كانت نظرات العجوز تستطيع اختراقه و الوصول إلى خلجات نفسه بطريقة بسيطة ودونما تسلط أو سيطرة أو فضول مما كان يسبب له ضيقاً و إعجاباً في آن معاً.

لقد كانت أفكاره مقنعة و صحيحة في معظمها، بل لربما كان يصيب على الدوام منبت الفكرة لدى الشاب الذي ما كان من السهل تغيير قناعاته.

فكرة الانقطاع عن الزيارة أعطته المزيد من الاسترخاء لكنها سببت له أيضاً انزعاجاً خفيّاً في الوقت نفسه.

ربما هي المرجعية المنطقية الواضحة التي وجدها داعمة في درب جديد، و الخبرة الحكيمة المتبدية في النظرات و العبارات، و ربما هو التحدي الخفيّ الذي يأتي به يومياً، الوصول إلى أمر ما و إثبات القدرة فيه و المجاهرة بالطريق الصحيح الذي توصل إليه.

و لعلّ أمر هذا التحدي هو ما فاقم الموضوع في نفسه أكثر من ذي قبل، التحدي بالتوصل لحلول منطقية في أمر ضخم، ما كان ليخطر له على بال قبل لقائه بالمريض الحكيم.

لم يكن واصل قد أخبر عبيد بعد بما حدث معه خلال هذه الفترة، لكنه عندما رآه في مساء هذا اليوم ألقى إليه كل شيء دفعة واحدة، منذ اللحظة الأولى للقائه بالعجوز و حتى اللحظة الأخيرة في ظهر اليوم المنصرم.

عندما سمع عبيد القصة قطب حاجبيه و أطرق مفكراً بعمق، ثم قال:

ـ يبدو لي أنه شخص خبيث، لا أستند إلى واقع معين في حكمي عليه ولكن ... ليتني

كنت مكانك، لكنت أوقفته عند حده على الفور.

وكيف ذلك ؟ قال واصل.

ـ كنت أخبرته أن الإله الذي يسعى لرؤيته . هذا إن كان فعلاً يسعى لرؤيته . هو إله غير موجود.

ـ يا إلهي عدنا ثانية للموضوع نفسه، أنت تعلم بأنني أؤمن بأنه موجود، لن أناقش العجوز بأمر لا أؤمن به.

ـ لو كنت فعلت لكنت انتهيت من وجع الرأس الذي أنت فيه الآن.

ـ لا لست منزعجاً الآن، لقد كنت منزعجاً من قبل، أحسست أنني في ضيق من أمري، شعرت أن العجوز يحاصرني، يطلق الأحكام علي، يقوّض طريقتي في الحياة، يهزّ الأرض التي ارتحت في المشي عليها طويلاً، يهزها بهدوء ولكن بقوة رهيبة أيضاً ولا أعرف كيف يفعل ذلك.

ـ لكن المؤمنين يقولون إن الله لا يرى فهل هو مؤمن؟

ـ لا أعرف يقيناً، حديثه يدل على إيمانه، بل يدل على خبرة وعمق وبصيرة نافذة لا قِبَلَ لي ولا لك ولا لأحد مثلنا بها، إنه خبير يعلم تماماً كيف يقود لغته كي يصل إلى ما يصبو إليه، وليس على صعيد اللغة فقط، ولكن أيضاً على صعيد تعابير الوجه، أو حتى حركات اليدين، والأهم من كل ذلك القوة البادية في العينين.

ضحك عبيد وقال:

ـ تبدو معجباً به ؟

ـ الحقيقة، نعم أنا معجب به، رغم أني لم أصل بعد إليه، لم أصل إلى لبّ فكره، لكنني كلما فكرت في أمر وأبرزت له فيه رأياً، فنّده لي ودحضه بمنطق سليم مقنع للغاية.

ـ لكننا مهما قلنا سنرجع للحقيقة الصرف، لا وجود لما يبحث عنه لأنه لا وجود للإله أصلاً.

ـ تعلم بأني مختلف معك في ذلك.

ـ أنت أكثر الأشخاص الذين أكره اختلافي معهم في هذا الأمر.. لا أسباب مقنعة لديك وأنت تعلم، تعلم أن أسبابي هي المقنعة لكنك ترفض تغيير قناعاتك البالية.

_ لا .. أبداً. أسبابك لم تكن مقنعة في يوم من الأيام حول هذا الموضوع. لا أحب الخوض في الأسباب التي تكررها دائماً. إنها غير مقنعة بتاتاً بالنسبة لي، لكنني لن أعرف تماماً صياغة أسبابي الموجبة لإيماني، لأنني على يقين من وجود الله، على يقين كامل. في بعض الأحيان تكون القضايا البديهية التي أنت على يقين كامل منها لا تحتاج إلى برهان، لا تحتاج لأسباب منطقية. أشعر بأن المنطق فيها هو قلّة منطق، لأنها ربما ترتفع فوق المنطق و قلة المنطق. وجود الله بالنسبة لي على الأقل هو أمر لا علاقة له بالمنطق و الأسباب الموجبة كما هو لديك، لا أشعر بأن عقلي يرفض وجوده، ربما لأن قلبي على يقين كامل بوجوده، لن يتمّ الأمر دون وجوده، لن أستطيع تقبل الحياة دون وجوده، هل تسألني كيف ؟ لا أدري كيف ؟ لا أعرف الإجابة المنطقية التي يتوجب علي النطق بها كي أقنعك، في داخلي أتمنى لك أن تقتنع، لكنني لا أسعى وراء قناعتك فلك مطلق الحرية أن تعتنق الإيمان الذي يحلو لك، أما أنا فإنني مؤمن بوجود الله كما يحلو لي.

_ لك أيضاً مطلق الحرية بقناعاتك ولكن.. لعلّه أهمّ أمر يحتاج إلى قناعة كافية في الحياة، فكيف لك أن تعتنق إيمانك و تتمسك به دونما منطق يحميه و دونما أسباب توجبه؟ لا أستطيع قبول هذا الأمر لدى الكثير من المؤمنين إن صحّ تعبير المؤمنين، أنت كمن آمن بوجود البحر و قرر الذهاب إليه دونما أي دليل منطقي على وجوده، كيف ؟ كيف تستطيع ذلك ؟ من الذي أخبرك عن وجود البحر الذي اتخذت درب رحلتك إليه ؟ هل هم جموع الذين انطلقوا مثلك و عادوا دون دليل، عادوا ليخبروا المنتظرين بأن البحر موجود، غني بالكنوز، كبير، هائل، جميل، كيف عرفوا ؟ و ما دليلهم مع عدم الرؤية ؟ عدم الإحساس الفعلي ؟ ما هو الدليل ؟ تباً، لا أستطيع القبول بذلك بمنطق الشعور الوجداني العميق الذي تتحدث عنه.

_ لن أخوض معك في الأدلة العقلية لأنني لست على دراية بها لكنني سأسألك سؤالا واحداً: ألا تشعر في أعماق أعماقك بوجود تلك القوة العظمى، تلك القوة المطلقة التي تتحكم بكل شيء في هذا العالم، تلك القدرة التي أنشأت كل شيء و خلقت، أسست و اختارت وطبقت بمطلق الإرادة و مطلق القدرة. الإنسان بقدرته المحدودة بحاجة للقدرة المطلقة، الإنسان بعلمه القاصر بحاجه لصاحب العلم الكامل،

الإنسان بمحدوديته بحاجة للكمال، نعم الإنسان بحاجة للكمال الموجود في صاحب الصفات الكاملة، ألا تشعر بأنك في بعض الأحيان بحاجة للّجوء؟

_ إلى اللّجوء؟

_ نعم اللّجوء، اللّجوء إلى ظلّ لا يمكن تجسيده بظلّ أبيك أو ذويك أو جيرانك أو أصدقائك أو أرضك أو شجرتك أو أي شيء، ظلّ ودفء لا ينتهيان، اللجوء إلى مطلق الدفء ومطلق الرحمة، دونما تحفظات، دونما حسابات بشرية حمقاء، هذا اللجوء أو هذا الشعور بالحاجة للجوء هو ما يقود الإنسان من نقطة ما خفية في أعماقه للإيمان بأن الله موجود.

_ كل موجود له موجد فمن موجد الله ؟

_ تباً لتلك الفكرة، أنا آسف لأنني قلت موجود.

_ أنت قلتها بنفسك لم أقلها أنا، قلت موجود والموجود في العربية على وزن مفعول والمفعول..

_ هل ستعطيني درساً في العربية الآن!! .. اسكت، اسكت.

ضحك عبيد.. وقال:

_ حسنا سأسكت ولكن ما الذي ستفعله مع العجوز ؟

_ سأفعل كما أرادني أن أفعل، أشعر بأنه يقودني بشكل خفي.

_ وهل أنت غبي حتى تتركه يقودك ؟

_ لا.. لست غبياً، ولكنه أولاً: عملي الذي أخذته على عاتقي ورضيت به أن أعطيه ما أراد، و أن أجاريه في دربه التي دفعني كي أخوض فيها، ثانياً وبصراحة: فالموضوع بات يشكل هاجساً في نفس صاحبك، هاجساً ناعماً يتفاقم للحصول على الإجابات، ناهيك عن قدرة العجوز الغريبة على الإقناع، يقنعك بلحظات بما خزنته لسنوات في حقيبة قناعاتك وبطريقة لطيفة ومنطقية.

_ أراك عدت إلى المنطق الآن ؟ كنت ترفضه قبل لحظات ؟

_ منطقه فيما يستوجب المنطق لا فيما هو فوق المنطق.

_ هل ستذهب إلى ذلك الشيخ العجيب الذي زرته مع شامل ؟

_ نعم أعتقد بأنني سألاحق دروسه خلال هذا الأسبوع على الأقل، كل يوم له

جلسة أو اثنتان في أماكن مختلفة، سأتبعه وأحاول الوصول إلى مفردات طريقه.

ـ هل أنت على درجة من غباء تجعلك تعتقد بأنك ستكتشف طريق إنسان كهذا خلال أسبوع ؟

ـ لا ولكن، هذا ما لدي من وقت، لدي أسبوعان .. سأحاول خلال الأسبوع الأول أن أرى ما يمكنني التوصل إليه، لم أقرر الحصول على طريقه خلال أسبوع لكنني سأدخل التجربة وأحاول الوصول إلى أبسط الأمور ثم أنقلها مجدداً للسيد عبد الله المحترم.

ـ وياله من محترم.

ـ حقاً هو محترم أنا لا أسخر منه، هو فعلاً وحتى الآن يستحق الاحترام.

ـ طبعاً، سيستحق الاحترام، لقد أتى لك بإجازة رغماً عن أنف مديرك الغبي.

ضحك الاثنان..

لم يكن واصل يستطيع الكشف بهذا الشكل عن مكنونات صدره كما هي تماماً إلا بحضور عبيد ذي الطباع الحادة.

في تلك الليلة نام متأخراً ورأى أحلاماً متقطعة لا رابط بينها.

١٤.

كان تتبع دروس أبي الحكم العامة أمراً سهلاً بالنسبة للجميع نظراً لشهرته، ونظراً لدروسه التي تقام في قاعات عامة مشهورة أو في مساجد كبيرة تتوسط المدينة وكان حضور تلك الدروس متاحاً لكل من يرغب بذلك.

أما الجلسات الخاصة فهي التي كانت محصورة بتلامذته و مريديه المقربين والتي منها ما سمح لواصل حضوره و بتدخل شخصي من شامل، و هي الجلسات الخاصة بالمريدين على مطلق درجات ترقيهم و قربهم من الشيخ، المتقدمين منهم والمتأخرين دون العامة، أما ما مُنِعَ واصل من حضوره فهي دروس الشيخ الخاصة ببعض التلامذة المترقين في طريق العلم و الذين رأى أبو الحكم فيهم نوراً و تقدماً وتطوراً فقربهم منه و جعلهم مساعديه ممن يحملون لواء علمه وينهضون بأفكاره ويصدحون بكشوفاته التي رأوها و صدقوها.

كان دور شامل فعالاً عندما استطاع الحصول على موافقة الشيخ بشأن حضور واصل الدروس الخاصة بالطلاب فقط دون العامة، أما القسم الثاني فلم يكن لأحد أن يتجرأ و يطلب حضوره من الشيخ لأنه أمر له ضوابط و دلالات و سلسلة من التقدم و التطور عبر فترة كبيرة ليس من الممكن تجاوزها بتلك السرعة.

و قد رحب أبو الحكم بحضور الشاب و سُرَّ إذ شعر باندفاعه نحوه و نحو دروسه كافة.

كان أبو الحكم يستطيع رؤية واصل أينما كان موقعه، بل يبحث عنه كما يفعل بشكل خفي مع بعض المريدين الجدد الذين يرى فيهم بوادر تميز من الممكن لها أن تجعلهم يحتلوا أمكنة رفيعة في مراتب طلاب العلم و ربما بعد ذلك يصبحون ممن يقربهم الشيخ إليه ويجعلهم من خاصة الخاصة أو ممن ينتقيهم و يكشف لهم عن أسرار العلم و أصول التقوى العميقة التي من غير الممكن لها أن تكشف للعامة حسب رأي أبي الحكم ذاته.

كانت الدروس العامة عبارة عن أربعة دروس تقام أسبوعياً في المركز نفسه الذي يعمل فيه شامل و جلستي علم تقامان في مسجد كبير يتوسط المدينة و يحضرهما عدد كبير من الناس، ممن يفهم أصول العلم و ممن أتى ليتبرّك ببركة سماع أبي الحكم.

أما الجلسات الخاصة فقد كانت تقام في منزل كبير يقدمه أحد المريدين الموثرين و المحبوبين من قبل الشيخ، يفتحه على مصراعيه لشيخه و لبقية الطلاب ممن يريدون ملازمة أبي الحكم شبه الدائمة والنهل من معين علمه الذي لا ينضب على حد قول أحدهم.

أما غير ذلك من الجلسات فلم يكن مكان إقامتها معلوماً.

لم يكن واصل موضع ترحيب حقيقي من قبل مريدي الشيخ في تلك الجلسات. شكله المختلف، عدم اختلاطه بهم و المحاباة الواضحة التي يمنحها إياه أبو الحكم بنظراته و غمزاته، الأسئلة الخاصة التي يتوجه بها للشيخ، و أخيراً وجوده المكثف المفاجئ دون سابق إنذار، كل ذلك جعله مستهجناً بعض الشيء بل موضع تساؤل واستغراب من قبل الطلاب، لكن أحداً منهم لم يجرؤ على مضايقته لخوفهم من ردة فعل شيخهم أو غضبه.

كانت الأحاديث كثيرة و تتناول مواضيع متنوعة.. لكن جلّها كان يصبّ في خانة الآداب و رسم الطريق الصحيحة لمن يحضر الجلسة كي يستطيع إتباعها و تلمس الحياة من خلالها..

لم يكن أحد من الحاضرين يجرؤ على معارضة أبي الحكم.. كان كل ما يقوله عبارة عن تلخيص حقيقي لما يريده الربّ .. الربّ الخاص به هو شخصياً..

كان أبو الحكم يمثل اللجنة الخاصة لإعلان مطالب الربّ، الشخص الذي يبثّ الله عن طريقه كل مطالبه، كلّ أوامره ونواهيه، كل الأشياء المستحبة والمكروهة، ولذلك فمخالفته تعني بالضرورة مخالفة الربّ شخصياً.. و من تراه يجرؤ على ذلك. و تبعاً لذلك فأقوال أبي الحكم كانت شبه مقدسة قد لا تحتمل الخطأ أبداً.

و هذا ما جعل واصل يطلق كل عقله و جوارحه لتلمس الحق في أقوال الشيخ وتفنيد اللبس من وجهة نظره بين الحق و الباطل أو بين ما وجده حقاً و ما وجده

باطلاً أو غير مفهوم أو غير مقبول.

لم يكن الشاب ليأخذ أي كلمة على أنها مضمونة الصحة سلفاً، خاصة بوجود عجوزه المريض الذي كلّفه بمهمة كشف الأمور وتبيان صحيحها من باطلها.

كان يفكر أحياناً بطريقة أهل مدينته فيقول في نفسه: و من أكون أنا كي أستطيع تفنيد كلام رجل كأبي الحكم، إن أنا إلا شاب ماله من طريق العلم إلا فتات الأقاويل، و ماله من درب الإيمان إلا يقين النفس القائم على الدليل الشعوري بحسب رأي عبيد، فمن أين لي بعد كل هذا الضمور أن آتي و أراقب و أقرر إن كان الشيخ على خطأ أو على صواب، من أين لي دليل الطريق؟

كان يشعر أحياناً بتفاهته و في أحيان أخرى كان يخشى حتى الحضور.

لكنه و من ناحية أخرى كان يرفض الكثير مما يقوله أبو الحكم، بدليل عقلي أو بشعور بحت غير مدعم بأي دليل.

طلاب الشيخ لديهم قاعدة أو نظرية يطلقونها في هذا المجال، لئن خالفت الشيخ في أمر ما فالأمر لا يُرَدّ لخطأ الشيخ لكنه يُرَدّ إلى هواك الذي جعلك تخالف الحق، الأمر يُرَدّ إلى شيطانك الذي حرفك وجعلك تهوي في مزالق الرفض و الاعتراض على الحق، الحقّ الذي جاء مخالفاً لنفسك الأمارة بالسوء، و الحلّ الأمثل لذلك هو مخالفة النفس و إتباع الأوامر الصادرة من الشيخ المعلم و المبالغة في تطبيقها طمعاً في كسر النفس وردّها عن هواها وطمعاً في تزكيتها وتطهيرها من آفات شهواتها أو ميلها أو حتى أطراف التفاتها.

و هكذا يعود المريد على الفور من ميله و هواه إلى حظيرة العلم التي تم تدجينها بشكل فعال على يد أبي الحكم ذي الشخصية القوية المتفردة.

كلّما حضر واصل درساً و استمع بآذانه المصغية و عقله الحذر وقلبه المفتوح وجد الكثير مما ينبغي عليه مراجعته مما يسمع، صار يجلب معه دفتراً و قلماً ليدون كل النقاط. قسّم الدفتر إلى ثلاثة أقسام. الأول يدون فيه ما رضي عنه ووجده صحيحاً و سُرّ بسماعه و الثاني يسجل فيه ما عارضه و رفضه مطلقاً بدليل أو بغير دليل والثالث يكتب فيه ما أدركته الحيرة عنده، و ما وقف أمامه حائراً دون أن يستطيع البتّ بأمر صحته أو عدمها بل ساورته الشكوك فقط، تارة بترجيح و تارة ببطلان.

كان كلّما أخذ من علم الشيخ أصبح جاداً أكثر في مطلبه، لوهلة نسي واصل الشركة، شركة الحياة التي يعمل فيها، نسي تلك الأيام السخيفة التي قضاها هناك، نسي المبلغ الجيد الذي يقبضه كل شهر و الذي يصرف عن بكرة أبيه رغم ضخامته، نسي الكثير من أمور حياته و سبح في تيار أبي الحكم، كان يترك نفسه في بعض الأحيان كي يأخذه ذلك التيار كما شاء له أن يفعل، و في أوقات أخرى كان يسبح بعنف ضده و يقاوم.

كانت كلمات الشيخ تتخلل في نفسه و تتسرب في بعض الأحيان عميقاً، تلك كانت طريقة أبي الحكم، طريقة الشيخ القوي الذي يعرف كيف يحكم كلماته، يعرف تماماً كيف يقبض على تعابيره و يطلقها في مكانها حتى يكون لها أبلغ التأثير و أقوى الأثر في نفس سامعها.

تلك الكلمات و تلك الجمل التي كان لها أحياناً أن تلمس قلب الشاب بل حتى أنها في لحظات ما قليلة أدركت دمعته و أمسكتها داخل وكرها الكامن في أعماق وجدانه و استطاعت إخراجها برقائق الحروف و تكرار المعاني التي تمسك بتلابيب النفس وتجعلها طيعة ساكنة لا تلوي على شيء بين جوانح صاحبها، وقد كان كل ذلك من دواعي دهشة واصل الذي لم يكن ليترك أي موضوع يؤثر في نفسه بهذا العمق الذي يحتمل أن يستجلب دمعته و يجعلها حاضرة في العلن كما جرى معه عدة مرات.

وكم وجد الأمر غريبا عندما شهد صدام عقله مع الكثير من قلة منطق الشيخ واستسلام دمعته في الوقت نفسه لكلمة أو كلمتين تضربان صميم وجدانه الإنساني العميق.

شعر باللجوء الذي أخبر عبيد عنه، كان شعوره غريباً، شعر باقترابه أكثر من منطقة اللجوء كلما زاد من حضوره و كرره، لم يكن لديه أي فكرة واضحة عما يجري معه، لكن تأثير أبي الحكم بات واضحاً في نفسه، واضحاً و جلياً له.

أسبوعان كاملان أمضاهما في تلك الرحلة، لم يتغيب عن درس واحد، ولم تفته محاضرة واحدة أو حتى جلسة صغيرة مهما كانت.

ثمانية عشر درساً حضرها واصل خلال الأسبوعين مع جلسات العلم الخاصة، كان أحياناً يحضر مرتين خلال النهار الواحد، وقد أتاح له تفرغه أن يتوجه كلية إلى

ذلك الحضور.

كان فارغاً بشكل ما من قبل، ويبدو أن الامتلاء قد بدأ الآن يعرف طريقاً إلى نفسه بعد فراغ مقصود لمدة طويلة، امتلاء من نوع خاص، من الصعب تحديده، من الصعب القول بأنه امتلاء عاطفي أونفسي أوعقلي، لكنه ربما أقرب ما يكون للامتلاء الروحي.

شعر واصل بوجوده الداخلي أكثر من ذي قبل، شعر ببشريته وأطلق روحه المحبوسة لتبحر دونما قيود في عالم من الربانية، عالم جديد تماماً و مناقض لبشريته مما أربكه وشلّ حركته .

كان في الأيام الثلاثة الأولى يفكر في عجوزه المريض، يهذي بالطريقة التي سينقل بها الأفكار التي يتلقاها، والطريق التي يكتشفها لهذا العجوز، يفكر ملياً بكيفية طرح كل ما قاله أبو الحكم وبأسلوب وضع كل كلمة قالها تحت المجهر وعلى المحك، حتى يفندها ويكتشف صحتها ويصل للطريق الذي يبتغيه العجوز.

لكن وميضاً ما قد تسرب إلى نفسه بعد عدّة دروس. وميض ليس من السهل تجاوزه، بصيص من نور أو نار، دفء أو لمحة من روح، كان وميضاً عصيّاً على الشرح، إن أراد الإنسان شرحه غصّ ببكاء ، غصّ بدموع ستخرج من أعمق أعماق بصيص الدفء المولد لروحه.

لذلك نسي واصل العجوز، أو فلنقل بأنه أراح عقله قليلاً من فكرة الأمنية، عن عمد أو عن غير عمد، لم يكن هناك فرق، لكنه لم يستطع التفكير بالعجوز عندما تلاعبت شموع روحه بإناراتها الداخلية، لم يكن ذلك أمراً متاحاً بحال من الأحوال، و لذلك فقد غرق كلية مع مرور الأيام و تكرار الدروس، غرق في نفسه و حوّل كل هوائيات عقله إلى الداخل و انكمش ليفتح الأنفاق الداخلية لديه وينير ما استطاع من تلك الدروب المجهولة في ذاته.

انقضى الأسبوعان أخيراً دون أن يشعر بذلك، ولكن حتى بعد انقضاء المدة المتفق عليها لم يذهب واصل إلى العجوز.

.١٥.

فجأة عندما تختلف الأجواء و يجد الإنسان نفسه في مغطس كامل مختلف عما كان عليه من قبل، تضطرب معاييره و يقوض الكثير من بنيان فكره، الطريقة التي كان يدير بها دفة أموره، الانفعالات التي كانت تنتابه حيال أمور معينة، الأسلوب الذي كان يعرض من خلاله أية فكرة على عقله و النتيجة التي كانت تتلقاها تلك الفكرة جراء دخولها تحت عجلات تفكيره السابق.. كلّ هذا و أشياء أخرى كثيرة من الممكن لها أن تتغير أو على الأقل أن تصبح عرضة للتساؤل والاهتزاز العنيف عندما ينتقل الإنسان من حيّز حياتي إلى حيّز حياتي آخر، خاصة إن كان هذا الإنسان بحدّ ذاته معدّاً بشكل ما بحيث يمكنه تشرب ما يمكن أن يأتي به المغطس الجديد.

لربما هذا ما يمكن أن نلخص به ما حدث فعلاً لواصل.

الانتقال الكامل من حياته الروتينية التي كان عليها و الدخول المفاجئ في حياة لها ترتيب آخر و إيقاع مختلف، على الرغم من قصر المدة إلا أنها كانت كافية لهزّ تلك الأرضية البسيطة التي كان يرتضيها الشاب في حياته.

لن نقول بأنه قد تغيّر تماماً و أصبح إنساناً جديداً خلال تلك المدة البسيطة، أبداً، هو لم يتغير لكنه وجد معايير جديدة ، أو أرضيات أخرى، أو خلفيات عقلية مختلفة من الممكن لها أن تكون أكثر جدارة أو أكثر فاعلية مما كان لديه من قبل.

كل هذا بصرف النظر عن الانفلات الروحي الذي طرأ عليه، الانعتاق أو الاقتراب مما كان يصرّح به دائماً على أنه مصدر إيمانه، شعر بتطور روحي ضخم يتسرب إلى نفسه و يجعلها رقيقة شفافة من الممكن لها أن تدع كل إنارة تتسرب عبرها لتدخل روحه الطافية.

تغيير قناعات الإنسان وتبديل طريقة حياته يحتاج إلى جهد متعب وعبر مدة طويلة ربما، حسب بيئته و طبيعة تفكيره و قوة معتقده، أما التغيير الروحي أو الإنارات

الروحية فلا تحتاج إلا بضع ثوان، هي كالحلم.. صغيرة للغاية لكنها موجودة حتى وإن لم نقتنع بوجودها، كالرؤية الهائلة التي نراها عندما نغمض أعيننا، نشعر بها ونكاد نقسم بأننا عشناها ولفترة طويلة لن تكون حقيقةً وبميزان الزمن الأرضي أكثر من لحظات، الانفتاح الروحي لا يحتاج أكثر من ذلك بل ربما يحتاج أقل من هذا بكثير.

إن هي إلا لحظة ستكون أكثر من كافية إن مسّنا شعاع الانعتاق في الوقت المناسب والظروف المناسبة ولا علاقة للمكان أبداً بهذا الأمر، فكلّ الكرة الأرضية وحتى الفضاء من الممكن له أن يكون المكان المناسب لتطور روحي هائل كهذا.

وهذا ما حدث لواصل بالفعل، ولذلك لم يجد فسحة في نفسه تهيئ له أمر العودة إلى العجوز فوراً.

انجذابه الروحي لا العقلي.. جعل بضاعته المنقولة إلى العجوز شبه خفيّة، لا شيء لديه ليقوله. مع ضخامة شعوره، ستكون تعابيره صفراً وكلماته صفراً، لن يعي الطريق التي سيتحدث عنها ولن يدخل في جدالات ستكون مزعجة الآن بالنسبة إليه ولذلك ترك أمر العجوز قليلاً علّه يرتب أمره بشكل ما قبل أن يزجّ نفسه بتلك المعمعة من جديد وخاصة بوجود الاضطراب المفاجئ الذي ألمّ به.

أكمل الشاب ما بدأه قبل أسبوعين حتى بعد انقضاء المدة، شيء ما كان يدفعه للاستزادة، لا الاستزادة من العلم ولكن الاستزادة من الطاقة الخفيّة التي لم تكن واضحة المعالم بالنسبة إليه، وبالرغم من كل الاحتجاجات العقلية التي كان يبديها تفكيره إلا أنه لم يجد بدّاً من الاسترسال وملاحقة الضوء المتماهي العاصي عن التعريف ، قبل اتخاذ قراره بترك أبي الحكم أوعدم تركه وقبل قدرته على العودة إلى المريض أوعدم العودة.

استمر واصل بالظهور أمام أبي الحكم حتى بعد انقضاء المدة المتفق عليها، ولربما كان من الممكن أن يستمر ظهوره هذا لمدة أطول مما نتوقع لولا أن أمراً ما قد حدث فقلب سير الأمور من جديد.

لم يكد يبدأ الأسبوع الثالث حتى تلقى واصل دعوة من أحد طلاب الشيخ الدائمين لحضور جلسة خاصة من جلسات الشيخ تقام في الحديقة الخلفية الواسعة الملحقة بمصنع نسيج يملكه أحد المريدين المحبوبين جداً من قبل الشيخ والداعمين بنفس

الوقت لنشاطه الديني بشكل كامل.

ولم تكن تلك الدعوة بحال من الأحوال إلا بأمر من الشيخ نفسه وبتوجيه الصريح، رغبة منه بجذب الشاب أكثر وضمّه لخاصة طلابه بعد ما رأى منه من بوادر القبول والاستيعاب والمداومة دونما انقطاع، فجاء أمره بمنح واصل فرصة التقرب والترقي في مقامات التلمذة والتكليف وبمدة قياسية.

فوجئ واصل بالدعوة، خاصة وأنه كان يعلم في قرارة نفسه أنّ دعوة كهذه لا يمكن لها أن تصدر من الشخص الذي خبره بشكل منفصل عن أبي الحكم.. الذي يحكم سيطرته بشكل شبه تام على سير الأمور في جلساته، ولذلك فقد كان لا بد من قبولها على الفور متجاوزاً مشاعره الملتبسة التي تراوحت ما بين الترقب والحذر والرضا والسرور، يشوب كل ذلك خوف مختلط بفخر خفيّ، أنتجته نفسه الراضية عن تطور مقامها عند الشيخ.

قرر الذهاب حتى قبل أن يخبر شامل بذلك وقبل أن يستشير مربضه المنتظر.

وجدها فرصة ذهبية لاكتشاف الطريق و لمعرفة فحوى الجلسات الخاصة، و سيصبح لديه أيضاً ما يرويه للعجوز عن ترقيه في الطريق التي اتفقا عليها و عن إيجاده للمنهج الذي تحدثا عنه، و سيرضى هو شخصياً بالانفتاح الروحي الذي سيحصل عليه، خاصة بعد الاقتراب أكثر من الشخص الذي تَلمَّسَ لديه نفحة الروح التي أصابته وغيرت أيامه في أقلّ من شهر.

أما ما جعله يستغرب الأمر، فهو قرب الموعد الذي كان بعد يومين فقط، وهذا ما جعله يفكر أن موعداً كهذا لا بد له أن يكون مرتباً قبل وقت طويل من بدايته، لكنهم أخبروه قبل يومين فقط، وبالتحديد قبل يوم ونصف، أي أنهم ألحقوه بالركب ولم يكن اسمه مدرجاً من قبل، بل ربما أدرجه أبو الحكم إقحاماً وفرضه، وربما أراد أبو الحكم اختبار جديته بالالتزام مع الجماعة.. ربما أراد تقريبه وترقيته، وربما هي رسالة مودة منه.. ربما.. وربما..

الكثير من الافتراضات تلاعبت في رأسه، و لم تتركه يهنأ بهدوء أو بنوم هانئ أو بصفاء بال أو بشفافية روح كالتي حصل عليها من قبل، بل كان يبدو واضحاً أن تضخمه الروحي قد بدأ يعود إلى ما كان عليه بعد أن تلاعبت تلك التساؤلات بنفسه،

فأخرجته من استلقائه الروحي غير المتناهي في ملكوت الله دونما حسابات و دونما افتراضات تتنقل بين حظوظ النفس و مكاسبها و بين فخرها و مخاوفها.

و كان اليومان اللذان قد مرّا عليه بانتظار الساعة الموعودة أطول مما يمكن أن يتخيله المرء، أما ما حضره من دروس خلال هذين النهارين فقد كانت نتيجته مجرد هباء، إذ كان حاضراً بجسده و نفسه و عقله لكن روحه الطافية كانت قد دفنت تحت كل ذلك و ما كان من سبيل لها كي تطفو أبداً من جديد.

نظراته لمن حوله، محاولة اكتشافه لمن سيكون حاضراً أو من سيستبعد، من سيفاجأ بحضوره و من سيحسده على ترقيه خلال هذه المدة الوجيزة، و أفكار أخرى كثيرة جعلت نفسه و هواجسه وجوارحه كلها تعمل باتجاه واحد فقط.

كم من الصعب أن يتناسى المرء حظّ نفسه و مكاسبها مهما كانت، صغيرة أم كبيرة، مادية أم معنوية، حقيقية أم أنها مجرد وهم تتمسك به النفس و تدافع داخلياً عنه وتسيطر به حتى على الروح .. المحبوسة بين قضبان المكاسب الأرضية.

١٦.

كان الشعاع الأحمر الأخير يتلاعب في السماء المتجهة نحو السواد عندما كانت السيارة التي تقلّه في طريقها إلى المكان المنشود، يقودها الشخص نفسه الذي دعاه باسم الشيخ إلى ذلك المكان.

كان الطريق طويلاً، وبات جلياً أن من يقصد هذا المكان سيتعذر عليه الرجوع ثانية لوحده.

لم يكن المكان نائياً لكنه كان مبتعداً عن العمران متطرفاً في الجانب الشرقي المليء بمزارع عُدّ أصحابها من سكان المدن أخيراً بعد التوسع الذي طرأ على المدينة و اضطرها لاعتبار هذه الأجزاء المتطرفة جزءاً منها، و كان نتيجة لذلك أن نشطت حركة النقل العام المخدّمة لأمكنة كهذه و لكن حتى ساعة معينة فقط من المساء تندر بعدها وسائل النقل العامة العائدة إلى مراكز العمران.

لم يكن لدى واصل ما ينطق به في وقت كهذا و خلال رحلة قصيرة كهذه. لكن الرجل الذي كان متحدثاً بارعاً لم يترك مجالاً للشاب كي يشعر بفراغ الحديث أو أن يتلاعب به الصمت، فلم يكن ينهي موضوعاً حتى يبدأ بآخر، تحدث عن نفسه، عن عمله و عن أولاده، كان ينتقل من موضوع إلى آخر كوسيلة للتسلية لكنه ما أن وصل إلى سيرة أبي الحكم حتى تعلق بها و تمسك، ولم يتركها طيلة الطريق.

كان واضحاً أنه يحب الشيخ محبة جنونية، بل لعله يرى النور من خلال ارتباطه بشيخه، تحدث عنه كثيراً، عن حضوره درسه أول مرة، عن تطور شخصيته و فهمه للدنيا و انفتاح العلم أمامه و دخوله في آداب المريد و انغماسه في العبادة و حصوله على الوصفات السرية الشافية للروح، و عمق الارتياح الذي أصاب نفسه الضجرة النزقة بمجرد مخالطتها لأبي الحكم. تكلم عن ارتباط كل قراراته بالشيخ ورأي الشيخ و قرار الشيخ، و عن عبادته و طريقته و تسبيحه وترتيب نهاره وفقاً لما أملاه عليه الشيخ، تكلم كثيراً و أطنب و طال الطريق.

كان واصل قاب قوسين أو أدنى من سؤاله: و أين الله من كل ذلك ؟ لم يشعر الشاب أبداً خلال ذلك الحديث أن الله موجود، فأبو الحكم امتدّ بشخصه وضخامة وجوده وكمال بنائه ليستقر في نفس الرجل بدلاً من الله، كانت العلاقة بينهما تبدو غريبة للشاب الذي يبحث عن الله لا عن الأشخاص.

بشكل أو بآخر كان الحديث الذي جرى محرضاً له كي يجد بعض الركائز التي من الممكن لها أن تلقي ضوءاً على معالم الطريق، وأيضاً أن تؤكد له ما يبحث عنه و ما يريده.

فجأة خلال حديث الرجل اللامنتهي سرح واصل بفكره و تذكر شركة الحياة فابتسم بسخرية وغطى الليل ابتسامته التي ما فتئت تتسع أكثر وأكثر لسبب مجهول. صارت كلمات الرجل فتاتاً بالنسبة إليه وهو يستعيد الشريط من جديد، شريط ما حدث معه، لو لم يقابل العجوز لما كان هنا اليوم يستمع لما يقوله هذا الرجل الغريب الذي قابله منذ بضعة أيام فقط و الآن هو معه في سيارته يستمع إليه ولا يعي ما يقول، يتوجهان ليلاً إلى مكان ناء مجهول لا يعرف واصل ماذا يمكن أن يخبئ له في طيات ابتعاده.

يا لهذا العجوز الذي زجّ بي في كل هذا ... يا لهذا المريض الذي فتح لي باباً عجيباً ليس بالإمكان إغلاقه قبل كشف مستوره.

هذا ما تمتمت به شفتاه خلال تلك اللحظات المعتمة.

في زاوية ما انعطفت السيارة ودخلت في طريق ترابي صغير أفضى إلى بوابة ضخمة، يربض وراءها بناء غاية في الضخامة هو بناء مصنع النسيج.

ـ وصلنا.

قال الرجل وأطلق زموراً منذراً بوصوله ففتحت البوابة ودخل حيث ركن السيارة في مكان مليء بالسيارات ثم ترجل يتبعه واصل.

كان ممراً واسعاً تتشابك فوقه أنواع متعددة من النباتات المحلية المعرشة وتشكل قوساً أخضر يغطي الممر تماماً.

أفضى الممر إلى ممر آخر أضيق يلتف حول البناء دون الدخول إليه، كان التفافاً نصف دائري يتفرع في نهايته ليصل إلى ساحة كبيرة صُفَّ فيها عدد من الكراسي

بطريقة دائرية، ووضع في منتصفها ما يشبه منصة صغيرة مع مكبر للصوت.

كان الحضور ما يزال غير مكتمل بعد.

توزع بعض الرجال على عدد من الكراسي هنا و هناك، أما واصل فقد تبع دليله الذي كان يلقي التحيات يمنة و يسرة إلى أن وصلا مكاناً معيناً يبدو أن الرجل كان قد حدده مسبقاً، إذ كان يعرف طريقه بالضبط عندما توجه لاختيار هذا المكان.

جلس الاثنان بانتظار بقية المدعوين، و ما هي إلا لحظات حتى نهض الرجل واستأذن لينضم إلى جماعة من الواصلين، و بقي واصل وحيداً يذهب بعينيه في جميع الاتجاهات ويجمع من تلك التفاصيل الجديدة من حوله.

استطاع تمييز ساحة أخرى يبدو طرفها ظاهراً في نهاية ممر ضيق إلى يمين الساحة الأولى، تبدو مضاءة لكن كل تفاصيلها قد اختفت وراء الأشجار المحيطة بها.

بدأت أعداد الواصلين فجأة بالتزايد السريع، و إن هي إلا دقائق معدودة حتى غصت الساحة بالحضور و امتلأت كل الكراسي الفارغة فاضطر بعض المتأخرين للوقوف خلف دائرة الجالسين بانتظار أبي الحكم.

في اللحظة التي تم فيها امتلاء الساحة تماماً ظهر أبو الحكم قادماً من ممر جانبي يبدو بأنه يفضي إلى باب آخر للمكان غير الباب الرئيسي الذي دخل منه الجميع، اقترب بقامته المديدة و هيبته الحاضرة، كان يرتدي البياض كاملاً و يضع عباءة بيضاء مذهبة وطاقية مدورة ظهرت من تحت حطة مطرزة.

كان عريضاً ضخماً في تقدمه البطيء، من شدة ضخامته البادية في البياض لم يظهر صاحب المصنع القادم من خلفه إلا بعد أن دخل الشيخ في الساحة فأصبح من الممكن رؤية الرجل قصير القامة ذي النظرات السريعة يسبح خلف أبي الحكم، يمشي بخفة كأنه لا يمس الأرض بحذائه الإيطالي مرتفع الثمن.

وكالعادة عند دخوله تكثر التسبيحات و التهليلات المكتومة والمعلنة همساً و جهراً.

وصل الاثنان إلى المنصة فاستقر الشيخ خلفها وعاد الآخر أدراجه ليأخذ مكاناً قريباً جداً في الكراسي الأمامية.

تنحنح أبو الحكم قليلاً كعادته قبل البدء بخطبه ثم مزق الصمت بصوته القوي مبتدئاً بمقدمته المعتادة التي يبتدئ بها عادة كل محاضراته حمداً و شكراً و ثناء

وإطناباً في كل ذلك بطريقة مقفاة زُرِعَت مع قصرها بكل المحسنات البديعية من سجع وطباق وجناس، أمر الجميع بعدها أن يقوموا باستغفار علي مائة مرة لعلّ الله يتقبل ذلك الاجتماع ويباركه، ثمّ بدأ هو بصوته الجهور بالاستغفار مستخدماً صيغة طويلة تكاد لا تنتهي وبدأ الجمع يستغفر معه من واحد إلى مائة، شعر واصل خلالها أن الأمر لن ينتهي أبداً وأنه سيستمر إلى اللانهاية.

بعد أن أنهى الجميع الاستغفار قال أبو الحكم بلهجة حازمة:

ـ بعض النفوس لم تكن تعي ما تقول، هناك قلوب مغلقة.. مغلقة، فلتفتح القلوب ولتُجلى الذنوب ولنتوجه كلية إلى الله عسى أن يتقبل منّا ما جئنا لأجله من علم وذكر ودعاء واجتماع فيه ولأجله وطمعاً برحمته وبوصاله.

قال ذلك ثم صمت، فساد صمت رهيب، ما قطعه إلا صوته القوي من جديد يأمر بتسبيح علني مماثل أيضاً لمائة مرة مع فتح القلوب والتفكر بمعنى القول وإدخاله مجرى التنفس وتذوق حروفه.

وأعيدت الكرة مرة أخرى من جديد، واستمرت العملية حتى انتهى الجميع، لكنّ أبا الحكم ظلّ مقطباً فلم يزجر ولم يمدح بل دخل على الفور في محاضرته وطرق موضوعه وأبحر وتبحّر، وصال وجال، كان يعرف تماماً كيف يحيك من لغته أثواباً رائعة يكسو بها جمله فيكسب المبنى بهاء وتألقاً، وهذا ما تغنّى به واصل، أما المعنى فما كان إلا صخوراً هذه المرة، تنزل في صدره وتجعل النفور من حظه.

كان الشيخ بداية يستحضر قصصاً غريبة من قصص السالكين في الطريق الصحيح ويمجد أحداثاً جرت معهم فبينت كراماتهم وأوضحت قوة سلوكهم ودعم الحق لهم.

كرّر أقوالاً ومجّد أفعالاً وتغنّى بمقولات لا يفهم أولها من آخرها وقلب جملاً تتلون لتعطي معاني قريبة ومعاني بعيدة وفتح أبواب التأويل وأكد فكرة الباطن والظاهر لكل شيء، حتى للأقوال باطن وظاهر وأن الظاهر قد تُرِكَ للعوام، أما الخواص فلهم باطن الأقوال التي تتفتح للعابد السالك المُجِدّ كلما توغل في الطريق وترك ضفاف العامة وخاض أكثر مع ضبط نفسه وكسر شهواته وإمساك خيوط غرائزه بيد من حديد، بل ومحاولة قتلها، إذ كلما فني الجسد وماتت مطالبه كلما اعتلت الروح سدّة

حكم الإنسان لنفسه، و صارت حياته مرتبطة بناموس الروح لا بقانون الجسد، و أما ذلك الناموس فعن طريقه تُفتَحُ مصاريع الأبواب و تُغلَق، و من خلاله يمشي الإنسان على الماء ويطير، بل ويخرق كل قوانين الجسد التي اعتاد عليها فقيد نفسه بها دون أن يعي العالم الآخر الذي بإمكانه ولوجه إذا ما ترك العنان لروحه الخالدة بالانطلاق وكبح مطالب الجسد الفاني.

أبحر الشيخ في هذا الموضوع واستحضر الأمثلة الداعمة لنظريته بقصص السابقين واللاحقين، ثم عرج على تقليد المريد للشيخ ومتابعته وتنفيذ أوامره، وأطنب في ذلك.

كانت الكلمات تبدو وكأنها تضرب كل شخص من الحاضرين على حدة، وكأنه يوجه اللوم له لوحده على تقصيره و عدم التزامه بالأوامر، و ابتعاده عن الطريق المرسومة من قبل المعلم، وإتباعه لشهواته وإشباعه المستمر لغرائزه، حتى استطاع واصل من خلال اختلاسه للنظر إلى بعض الحضور أن يلمح احمرار وجوه بعضهم وإطراق رؤوس بعضهم الآخر خجلاً واضطراباً.

بعد أن أنهى أبو الحكم تأنيباته المستمرة نادى شخصاً يدعى أبا إمام، فخرج الرجل من بين الصفوف. كان يرتدي حلة باكستانية سماوية اللون، ويضع طاقية مزركشة بكل الألوان. كان غزير الشعر وبدا كأن الشعر قد سيطر على كل منطقة فراغ من الجلد من مفرق شعره في أعلى جبينه و حتى آخر نقطة من لحيته القصيرة، تكاد عيناه الصغيرتان تختفيان تحت مظلة السواد التي صنعها الحاجبان حتى شعر واصل أن الشعر سينبت من عينيه أيضاً.

_ أتحفنا يا أبا إمام، وافتح قلوبنا لذكر المولى.

قالها أبو الحكم وأغمض عينيه.

جلس الرجل بجانب الشيخ، تنحنح قليلاً ثم بدأ بترتيل الأناشيد الدينية.

أهازيج متنوعة.. امتدحت الأولى منها صفات النبي الكريم، وانتقلت الثانية لتصبح نواحاً حزيناً يتوسل الشفاعة ويترجاها، ثم ما لبثت أن تحولت في بقيتها لتصبح تغنّياً بأمكنة مقدسة و قبور أولياء وأسماء علماء، دون أن ينسى المنشد بالطبع اسم أبي الحكم في بعضها، وماله من كشوفات ربانية و أنوار رحمانية.

أسماء و صفات و تهليلات يسمعها واصل و يغرق في نفسه، كان يراقب، تسبح

عيناه بحثاً عن المجهول بعد أن صلّب النفور قلبه، وأمسكت العتمة انطلاق روحه، فعاد إلى الأرض.. و صار كل ما يشاهده يشكل تبريراً واضحاً يجتره بشكل مقصود وبشدة كي يتمسك برشده من جديد.

ما الذي سبب الضيق؟ ما الذي جعله يهبط من ذلك التحليق الرقيق الذي كان يغلفه وليومين فقط قبل هذه اللحظة؟

ما السبب وراء عودته السريعة تلك إلى حظيرة نفسه المراقبة المدققة ؟

لم تكن لديه الإجابة عن هذا، لكن فسحة الإشراق التي نشرت العبير في وجدانه كانت قد فقدت، و العبرة الحاضرة في عينيه قد جفت، و ارتجافات المشاعر التي قلقلت تركيزه قد اختفت فعاد يفنّد، بعد أن كان قد خرج من التفنيد سابقاً واسترخى و ترك حتى دفتر ملاحظاته جانباً.

عاد ليسأل هل هذا هو الطريق الذي يبحث عنه ؟ أو الذي أُرسِلَ ليبحث عنه ؟ أهو الطريق الحقيقي المباشر ؟ أقصر الطرق إلى الله ؟ هل فعلاً وصل أبو الحكم إلى الله ؟ كان يريد جواباً لا لينقله للعجوز فقط لكنه يريد جواباً لنفسه التي كُشِفَ عنها غطاء ركودها و اشتعل حراكها و غليانها، و ظهرت تساؤلاتها الواضحة تسعى دون تراجع للحصول على ما يشبعها.

تحول فجأة إلى مراقب منفصل غير منغمس أبداً فيما ذاب فيه الرجال حين انسابوا مع الكلمات التي يقولها المنشد أيّاً كانت حتى لو كانت كفراً صريحاً دون أن يعوا ما الذي يقوله. كان يستطيع ملاحظة ذوبانهم و ميلان رؤوسهم المتشابه مهما تراوحت معاني الكلمات، لم يكونوا ليعوا شيئاً مما يقرأ على مسامعهم أو هذا ما اعتقده.

كان أبو الحكم قد أغلق عينيه وبدأ يهز برأسه جيئة وذهاباً تماشياً مع اللحن الذي يشكله صوت الرجل الشجيّ و كذا قد فعل الرجال من حول واصل، الكلّ تماشى مع هزة رأس أبي الحكم التي ما فتئت تزداد و تزداد مع تكرار وتيرة اللحن ذاته، إلى أن أشار الشيخ بإصبعه إشارة كأنها إشارة بدء لأمر ما و صار يكررها أيضاً، هنا بدّل المنشد كلمته المكررة و صار يتنفس بطريقة غريبة، يزفر فيها الهواء من صدره ليطلق صوتاً ملخّصاً يصدر في حرف واحد هو حرف الهاء يخرج بقوة مع ثلاث حركات من

زفير وشهيق واضح ثم زفير آخر.

شقّ صوت أبو الحكم روتين الصوت الصادر عندما قال بصوت عميق:

_ الذكر الذكر يا مؤمنين، اذكروا الله اذكروه، لا تشركوا أبداً ووحدوه.

بدأ الجميع يكرر نفس الصوت ويهز برأسه أو بجسده معه والشيخ واحد منهم يشير بإصبعه كقائد جوقة و هو مغمض العينين و يطلق من بين شفتيه الهمهمة نفسها التي أصبحت عامة و جماعية.

الكل يصدر الهاء، يزفرها و يشهقها ثم يزفرها.. بزمن ثلاثي وإيقاع رتيب لا يتغير ..

كان طقساً غريباً يراه واصل للمرة الأولى، كان قد سمع قبل الآن عن جلسة الذكر وعن الحضرة لكنه لم يتوقع أن يكون جزءاً منها في يوم من الأيام.

لم يكن يشاركهم فيما يفعلون لكنه فقط يشاهد، عيناه تعلقتا بأبي الحكم وبإشاراته الناظمة المسيطرة على سير الإيقاع و التنفس الخاص بالجميع.

شعر بأنه جزء من منظومة، ربما هي فرقة سيمفونية قائدها هذا الشيخ المهيب الذي يحيك الأنفاس بسبابته الطويلة، وربما هي أهزوجة من أهازيج الحرب يقودها هذا القائد القوي الذي لا يجرؤ إنسان من مجموعته على مخالفته و ترك المعركة، و ربما هي قبيلة وثنية ترمي ما عندها من جنون و فنون و قد تضحي بأحد رجالها في سبيل إرضاء إله المطر أو إله الخصب أو إله الظلام أو أي إله من آلهتهم المتعددة، بل وربما تضحي به هو شخصياً، وتخيل فجأة بأنه من الممكن أن يكون الموضوع بأكمله مجرد مكيدة و أنهم سيحملونه الآن غصباً عنه، سيقيدونه ثم سيمزقون لحمه ويقدمون قلبه قرباناً للنجاة .

نفض رأسه كي يمحي الصورة الأخيرة التي جعلته يتقزز و يزداد نفوراً و شحوباً وانفصالاً عن المجموعة التي صارت كلاً واحداً لا يتجزأ، ذابت في بعضها بعضاً وكونت جماعة قوامها وحدتها المنطلقة عن طريق الفرد الناظم لأنفاسها وتماثل الهاء المتصاعدة من صدور أفرادها حتى لكأنها هاء واحدة تصدر من صدر واحد ضخم.

كان التناغم و الانسجام ملفتاً للنظر و فيه زاوية من زوايا الجمال الناشئ عن التماثل و الوحدة في تكوين صورة كاملة قائمة على الفسيفساء الصوتية، كان الأمر أشبه بالزخرفة الإسلامية القائمة على تكرار العنصر بشكل متماثل للحصول على

عمل متقن هائل يمجد الوحدة المتكاملة.

لم يكن ينقض هذه الوحدة إلا النفور الذي بدا واضحاً في عيني الشاب وظهر جلياً في شفتيه اللتين لا تتحركان أبداً مع المجموعة.

لم يكن هناك من يستطيع إدراك اختلافه في هذه اللحظة فقد كان الجميع مندمجاً، حتى وإن وجد بعض المؤدين من دون انغماس، فلم يكن همّ هؤلاء ملاحقته بنظراتهم المختلسة إذ كانوا يحاولون على الدوام اختلاس النظر للشيخ و معرفة إن كان قد لاح له أمرهم.

استمر تكرار الهاء بعض الوقت ثم بدأت خطوط الوحدة الظاهرة تتفكك، وبدأت بعض الحركات و الأصوات الشاذة اللاإرادية بالظهور هنا و هناك حين أخذ بعض الرجال بالنهوض و إكمال الذكر في حالة الوقوف.

كان تكرار النطق بالطريقة نفسها يولد حالة من حالات التوتر الجسدي، كالخباز إذ يعجن الرغيف قبل خبزه ويكرر العملية فيكتسب جسده حركة نوسانية معينة لا يستطيع الخروج عنها، بل تصبح سمة من سماته لاحقاً، وكذا كان الأمر هنا، تشابه النطق بداية في وضعية الجلوس ثم ولد تكراره وضعيات اهتزاز جسدية مختلفة أفرزت تبايناً واضحاً بين شكل الحركات عند الوقوف، الكلّ يهتزّ بشكل عمودي، بعضهم ينحني أكثر إلى الأسفل، و بعضهم يرفع رأسه أكثر إلى الأعلى، بعضهم يحرك يده مع حركة الشيخ وبعضهم الآخر يحرك رأسه بشكل عمودي و أفقي أيضاً.

بدأت الوحدة تتفكك مع مرور الوقت، و بدأت تظهر بعض الصيحات الغريبة من هنا و هناك، صيحات قوية، تأوه أحياناً، أو بكاء، أو اسم من أسماء الله تعالى.

اختلطت الأمور و أصبح من الصعب التكهن بما ستؤول إليه الحضرة.

عند تلك اللحظة نهض أبو الحكم و انفرد جسده الضخم و أخذ يهدئ من وتيرة الصراخ خاصة بعد أن بدأ بعض الأشخاص بالخروج من دائرة الوعي بطريقة ما.

رفع يديه و استمر بخفض الوتيرة و إبطاء الإيقاع إلى أن أخرج الحضرة بأكملها من جنونها و أعادها إلى ما بدأت به ثم بإشارة منه عاد صوت أبو إمام ليملك حلبة الإنشاد بأكملها.

جلس الجميع، كان منهم المنهك ومنهم من أغرقه العرق ومنهم المضطرب ومنهم من

كان يبتسم ابتسامات لا معنى لها.

اختتم المنشد الحضرة و أثنى على الشيخ و جهوده و دعا الله كي يبارك الاجتماع دوماً بحضوره، ثم أخبر الجميع بعد غمزة من أبي الحكم بالتوجه إلى ساحة الطعام، و الدعاء لصاحب المكان الذي وسّع الله له في الرزق فأبى إلا أن يدعو جميع إخوانه لمشاركته مما فضل الله به عليه من خير و رزق.

كان الاتجاه نحو الساحة الأخرى المخفية التي لاحظها واصل فور وصوله، همّ الجمع سريعاً وراء الشيخ يتدافعون برفق في الممر الذي انفرج فجأة و انكشفت أشجاره عن ساحة واسعة مليئة بطاولات ضخمة حملت ما لا يمكن وصفه من أصناف الطعام.

تقدم أبو الحكم مع صاحب المكان بداية، تكلّما قليلاً حيث وقف الجميع خلفهما منتظرين إشارة البدء، و إذ أتت الإشارة بعد سكب الصحن الأول لأبي الحكم تقدم الرجال و سادت معمعة مكتومة خجلاً من الشيخ، جلبة خفيفة تم ضبط اشتعالها و تصاعدها خوفاً من هيبة الرجل، لكن واصل استطاع رؤية العيون، و التدافعات الخفية تجاه الأطباق.

اختفت فجأة دمعات الوجد التي غطت الوجوه خلال الذكر، وانتقل الحضور إلى مستوى آخر من مستويات الإنسانية، مستوى مختلف تماماً عن ضبط الشهوة وكبح متطلبات الجسد و إفراغ وعاء البطن و ما إلى ذلك، و آلت حضرة الروح و الفطنة إلى حضرة الطعام والبطنة.

امتدت الأيدي، وامتلأت الأفواه و ظهرت الابتسامات و انشغلت الأكف بالسكب و لفّ اللقم الكبيرة التي تخلق انتفاخاً استثنائياً ملحوظاً في طرفي الفم، و تحولت وحدة المنظومة التي كانت تشكل جمالاً ما بتناسقها في أول الذكر إلى وحدة مختلفة يشترك عناصرها فيما بينهم بعامل واحد فقط، الشراهة.

فاحت رائحة المشويات و سال الدسم من الأكفّ. و التمعت الشفاه تحت وطأة مغاطس الدهون التي سالت عليها.

كان واصل يراقب كل هذا، صحنه مازال فارغاً بين يديه، يقف في آخر الصفوف الداخلة إلى الساحة، ينقل خطواته ببطء متأملاً، وحيداً، فحتى الرجل الموكل أمره إليه تركه في هذه الآونة و التحق باثنين من رفاقه اللذين على ما يبدو قطفا من بعض

زوايا المأدبة التي لم تزل عذراء لم تصلها يد بعد. فاستأذن من واصل سريعاً بعد أن أشارا إليه بالقدوم من بعيد.

وقف في مدخل الساحة عند طاولة الصحون الفارغة، اختفى وراء ثلّة من المتأخرين المنتظرين، لكنه بدلاً من متابعتهم و اللحاق بهم في اقتناص الغذاء تراجع إلى الخلف، أعاد صحنه إلى مكانه فوق الطاولة و انسحب دون أن يلحظه أحد من صيادي الوليمة، بما فيهم أبو الحكم نفسه، الرجل الوحيد الذي كان من المحتمل أن يلمحه في لحظة سحرية كتلك اللحظة، إلا أنه كان هو الآخر غارقاً بإلقاء موعظة على مسمع بعض الجالسين حول طاولته الخاصة خلال الطعام.

مشى بخطى سريعة و اتجه نحو البوابة الرئيسية و خرج على الفور قبل أن يراه الحارس الذي ذهب بدوره ليقتنص ما يملأ به بطنه.

وجد نفسه فجأة خارج المصنع، لم يعرف ما الذي دفعه للخروج ؟ ضيق هائل يعتصر صدره، و اختناق عظيم يجثم فوق أنفاسه.

تنفسَ بعمق..

التفت حوله ليجد المكان موحشاً.

لم تكن المسافة التي تفصله عن الشارع العام بالقصيرة، ولم يكن الطريق الترابي الذي سيسلكه للخروج مضاء بشكل كامل، بل كان شبه مظلم و العتمة فيه تغلب النور.

سأل نفسه مرة أخرى عن سبب هروبه العجيب ؟ ما الذي جعله يرمي بنفسه بهذه الطريقة في طريق ترابي موحش و ناء ؟ ما الذي سيقوله أبو الحكم الآن عندما يكتشف غيابه ؟ كيف سيصل للشارع الرئيسي في هذا الظلام ؟ و كيف سيعود إلى منزله بالنقل العام رغم ندرته في مكان ووقت كهذا ؟

انتابته نوبة ندم عارمة، لا بسبب خروجه بل بسبب مجيئه بالدرجة الأولى و غرقه في تلك اللمة السخيفة، لكنه بالرغم من ذلك قرر التوجه نحو الشارع العام دون أن يسمح لنفسه بالتراجع.

تقدم بخطى واسعة متقافزاً فوق الأرض، و ترك البوابة خلفه مبتعداً عنها بسرعة استثنائية، ثم انعطف مع الطريق حتى اختفى المصنع تماماً و صار وحيداً في منتصف

الدرب الوعر المضاء بوهج سماء لا قمر فيها.

كان للأشجار صوت يتناغم مع وقع أقدامه فوق التراب، ويجعله في الوقت ذاته ينصت أكثر و أكثر. كان باستطاعته الإحساس بدقات قلبه المتسارعة.

تصاعد الخوف مع النبض حتى وصل إلى أنفاسه، فصار نفسه ثقيلاً و جسده مشبعاً بالأدرينالين.

كان متوجساً خائفاً ومتوتراً حتى الحد الأقصى، لا يعرف ما الذي يمكن أن يحدث له في هذا المكان الموحش.

فكر بالعودة، خاصة عندما وصل إلى مكان ابتلعه الظلام بشكل كامل دون أدنى بصيص من ضوء قريب أو بعيد.

اضطربت هواجسه و بدأ الندم يحرك لديه اتهامات عديدة ضد نفسه ، لعلّه كان مخطئاً، أو لعلّه قد تصرف برعونة، ترى هل سيغضب تصرفه هذا أبا الحكم ؟ لربما كان كل هذا الخوف هو عقوبة صريحة و لعنة جليّة حلّت عليه و قد استحقها ثمناً لنشوزه و تركه للجميع ..

ـ سامحني يا إلهي.

قال جملته الأخيرة بصوت عال ثم توقف و قد قرر العودة مرة أخرى، لكن وما أن التفت ليعود أدراجه حتى فوجئ بما لم يكن بالحسبان.

مخلوق ضخم ذو عينين براقتين مخيفتين كان يقف وراءه و كأنه منتظر لحظة التفاته كي يفاجئه بمظهره الوحشي المرعب.

تصلب جسده وتَبُتَ في مكانه فور رؤيته.

كان المخلوق ينظر إليه بطريقة جعلت الدم يتجمد في عروقه وجعلت الزفير الحار الخارج من فمه المفتوح يبدو متهدجاً مختلطاً بصوت ضربات قلبه المرتعد.

للوهلة الأولى لم يميز إن كان ما يراه هو كلب أم ضبع أم ذئب أم لعلّه أي مخلوق نتن من تلك المخلوقات... لكنه استطاع بعد برهة التأكد من أنه كلب ضخم.

كانت اللحظات التالية طويلة للغاية و معقدة، احتاج واصل فيها إلى الكثير من التفكير السريع كي يعي ما الذي يمكنه فعله، و لعلّها ستكون لاحقاً من اللحظات الخالدة التي ستؤثر على مسار بحثه وحياته بأكملها.

هل سيكون من الحكمة التقاط حجر ما من الأرض ؟ هل يضمن أن انحناءه يثير غضب الحيوان فيطلق عنان شراسته الكامنة المسجونة التي تقتصر حتى الآن على النظر المباشر و المراقبة الحذرة ؟

لم يكن الكلب يبدي أي حراك، لكنه كان ينظر بعينين محذّرتين، لم يكن يزمجر لكنه كان ينبئ بشر هائل من الممكن أن يتفجر في أي حالة من حالات الخطأ.

علم واصل علم اليقين أن الخيار الأول بالتقاط أي شيء من الأرض لن يكون خياراً صحيحاً، كما أيقن أنه من الضروري جداً نسيان عودته إلى المصنع الآمن، فالكلب يسد الدرب الضيقة ولن يكون من الحكمة تصغير مسافة الأمان بين الاثنين بل على العكس من الأجدى تكبيرها، و بهذا يلغى خيار العودة تماماً.

أما الحل الأخير بترك المكان و الالتفات فلن يكون حلاً آمناً بمنح هذا المخلوق المرعب فرصة الهجوم من الخلف.

شعر بانسداد السبل، كان وحيداً خائفاً منعزلاً في وسط العتمة، لا شيء لديه ليحميه، لا وسائل، لا أسلحة، لا بشر، لا شيء.

شعر بتضاؤل داخلي عجيب، تناقص في قدراته و عقله و معاني حياته، شاهد نفسه في تلك اللحظة موازياً تماماً للعدم، موازياً للاشيء بأقصى فراغه. من الممكن خلال لحظات أن ينقضّ عليه هذا الشرس بأنيابه و سينتهي كل شيء، لن يستطيع مقاومة تلك الفكّ الغليظة وتلك البشاعة التي من شأنها أن تشلّ كل حركات المقاومة باستسلام مهين.

من أعمق مخبأ من مخابئ صدره خرج النداء، خرج من يقين لا يتفتت ولا يتناقص، خرج متصاعداً متناغماً مع تضاؤل نفسه، متضخما بتوازٍ كامل مع اضمحلال شخصه.

تحركت شفتاه مع كل ذرة من ذرات يقينه و تصميمه، تحركت طالبة الغوث مع انعدام الحيلة، مع يقين الضعف و التلاشي، صار الله هو كل شيء، و صار واصل صفراً في نظر نفسه، فنطق بهدوء يشبه الصراخ المدوي و بتوازن يشبه البكاء و برقي يشبه النحيب:

_ يا الله .. يا الله ..

نطقها دون حتى أن يطلب أي شيء، لم يكن الطلب أو الدعاء هو المهم الآن، لكن اليقين هو ما جعل الشفاه تتحرك بتوق القلب و شفاء الروح و ملجأ النفس.

كان يريد أن يطفئ لهيب خوفه بسلام من الله، في لحظة انعدام شخصه مع تكامل وجود الله في روحه، ويالها من لحظة.

خرج النداء من شفتيه و نظر إلى السماء تاركاً حذره تجاه المخلوق الذي أمامه، نظر في سواد مضيء، مضيء لا بالنجوم و لا بالقمر، لكنه سواد أصابه النور من عمقه، لربما كان متوهماً في تلك اللحظات لكنه كان يستطيع لمس نور لا يمكن تجاهله في عمق العتمة.

أغمض عينيه و خرجت الكلمة مرة أخرى .. ربما قالها مرة و ربما كررها مرات لا تحصى، لن يعرف إلا الله كم مرة خرج النداء المعافى من صدر وواصل في هذه الليلة.

هبطت السكينة كغلالة باردة فوق نبضات قلبه المرتجفة فلمست الارتجاف وحولته إلى سكون.

ربما هبطت السكينة من السماء، و ربما هو الذي قد زحف باتجاه السكينة السماوية، لم يكن هناك فرق في تلك الآونة، فالمهم أخيراً أن السكينة المنشودة قد عرفت طريقها إلى صدره المتشنج.

تنفس بهدوء كامل، عبّ من ذلك العبق المنتشر ليغرسه في رئتيه، تشرب البرودة الهوائية و الرطوبة التي تضافرت فيها السكينة و العتمة المضيئة، ثم فتح عينيه.

وجد المخلوق الضخم مازال موجوداً ولم يذهب، بل استمر في إغلاق درب العودة. لكنه بدلاً من الوقوف في حالة التأهب و الاستعداد للانقضاض جلس ككلب حراسة أمام صاحبه و استقر في جلوسه.

لحظة أخرى من لحظات السكون مرت، هو واقف بهدوء و الكلب يربض دون توتر.

بدأت أقدام واصل بالتراجع دون أن يتحرك الكلب من استقراره، تراجع عدة أمتار، ثم التفت ليكمل طريقه بعد أن أيقن أن الكلب لا يتبعه ولن يتبعه.

مدّ خطواته السريعة بهدوء و خفة متزايدة حتى وصل إلى الشارع العام المضاء كل عدة أمتار.

لم يلتفت إلى الوراء أبداً.

سار طويلاً حتى شعر أن الطريق لن ينتهي، لكنه لم يلتفت إلى الوراء.

لم يعرف تماماً كم من الوقت قد مرّ قبل أن يستقل حافلة عامة، لم يستطلع الوقت، لكنه ما أن جلس فوق المقعد حتى غرق في دموع صامتة غسلت كل حياته الكامنة في ذاكرته، دموع كأنها شهب سماوية متهاوية، كلما انحدرت تختفي لينبت غيرها، حتى ظنّ أنها لن تتوقف.

.١٧.

استمرت الحياة كما هي ولم يتغير شيء، كل الأشياء قد بقيت على حالها في اليوم التالي، لكن واصل هو الذي تغير، ما الذي تغير فيه ؟ لعلنا نستطيع أن نحدد بدقة أنّ الذي اختلف الآن هو اليقين النائم في صدره، اليقين الراكد الموجود منذ أن وُجِدَ هذا الشاب، ولكن بشكله غير الفعال، اليقين المتكامل المجرد من فاعليته المغيرة لوجه الأرض، هذا الإيمان اليقيني المولّد لأقصى طاقات البشرية هو في أعلى درجات حراكه الآن، و في أقصى مراحل غليانه النشط الباعث على تنقية الروح و إخراجها بحلتها الحقيقية البراقة من جديد.

دخل الغرفة في صباح هذا اليوم فوجد العجوز نائماً.

جلس، و انتظر.

لم يغادر. كان يرغب بشكل كبير أن يشارك العجوز في ما حدث معه خلال الأسبوعين المنصرمين.

كان الرجل ينام مستقبلاً وهج الشمس المنتشر، كان الضياء كاملاً مما يجعل النوم غاية في الصعوبة، لكن العجوز كان مغلقاً عينيه بسلام عجيب مبحراً في عالم من الضياء الباهر خارج حدود العالم الواقعي المحدود.

شعر واصل أن الضياء الممتد يغمره هو أيضاً فاسترخى فوق الكرسي و أغلق عينيه ولم يفتحهما إلا على صوت العجوز يوقظه بهدوء:

_ يبدو أنك لم تنم جيداً أمس.

استيقظ واصل و استطلع الوقت ليكتشف أنه غطّ في قيلولة قصيرة.

_ أنا آسف لقد انتظرتك في أثناء نومك فنمت أنا أيضاً.

_ أنا انتظرتك أيضاً، تعادلنا الآن.

كان صوت العجوز يبدو صافياً معافى بالرغم من هزاله المتزايد منذ آخر مرة رآه الشاب فيها منذ نحو أسبوعين.

_ كيف حالك يا عم ؟

_ كيف حالك أنت ؟ يبدو أن أبا الحكم قد اختطفك تماماً.

_ أنا آسف لم أستطع القدوم في الموعد لقد حاو.....

قاطعه العجوز:

_ يا بني لا تتأسف، المهم أنك قد أتيت، أعلم أنه ما منعك عنّي إلا الأهم منّي، وهو الذي أُرسِلتَ لأجله في المقام الأول، على كل حال .. أخبرني .. ما الذي جرى معك ؟ كيف وجدت أبا الحكم ؟ هل توصلت معه لإيجاد حلّ بشأن أمنيتي ؟

بدأ واصل بسرد ما حدث معه خلال الفترة الماضية، قصّ على العجوز كل شيء، ابتداء بالتفنيد العاقل لكلمات الشيخ ودراسة جمله ومحاولة إيجاد النقص وتدوين كل ذلك في دفتر الملاحظات ذي الأقسام الثلاثة، مروراً بالتفتحات الروحية التي بدأ يشعر بها بمجرد تواصله مع أبي الحكم و الإنارات الوجدانية غير المبرّرة التي جعلته يخرج من حالة التفنيد و يبتعد عن اقتناصه للأخطاء، وانتهاء بقصة هروبه من الحضرة و الكلب الذي أغلق طريق العودة و ما حدث في أثناء كل ذلك من توسل واصل وندائه وخروجه من هذا المأزق ببساطة.

كان العجوز ينصت مبتسماً، كأنه يستمع إلى أجمل لحن أرضي، يجعل الإنسان يترنم فيظهر التناغم واضحاً في تراقص عينيه، حتى استطاع واصل تبين القطرات الملتمعة في تجاعيد زوايا عيني الرجل والتي ظهرت عندما روى الشاب آخر فصول ما حدث معه ليلة أمس، تلك الدمعات الناعمة التي حاول العجوز ملاحقتها على الفور كي يخفي آثارها لكنه فشل بذلك وظهرت جلية لواصل.

كانت تلك هي المرة الأولى التي يرى فيها واصل نظرات الرضا تزهر في وجه العجوز وتفكك غموض ملامحه لتجعلها لا تدل إلا على الموافقة و السرور.

_ ما الذي جعلك تفرّ من ذلك التجمع ؟

_ لا أعلم بالضبط ما الذي جعلني أشعر بذلك النفور الرهيب في نفسي !! كان شعوراً كاملاً بالانسلاخ الذي لا يجدي معه تظاهر. لم أشعر بنفسي إلا و أنا خارج سور المصنع.

_ العبادات المفروضة على العبد هي عبادات واحدة، لكن الشعور و التقبل

والطريقة والأداء والوصول من خلال التعبد، كل هذا وأشياء أخرى كثيرة هي مسائل تعتمد على التفرد، تعتمد على الخصوصية والتوجه الفردي لا الجماعي، أعتقد أن العبادات الجماعية التي فرضها الله لها أهداف معينة ترمي إلى ضبط وحدة الجماعة وتناغمها وتراحم أفرادها مع بعضهم تحت غطاء العبادة الواحدة لرب واحد، لكن التوجه الجماعي بمشاعر مصممة سلفاً مضبوطة بضبط آلي ربما وأقول ربما ستكون له من الآثار السلبية أكثر بكثير مما له من الآثار الإيجابية، وهذا ما جعلك تهرب من ذلك التجمع، ناهيك عن التناقض الحاصل بين الفكرة النظرية المطروحة عن تجرد العبد من غرائزه وابتعاده عن شهواته وتركه لجسده بقصد الترقي الروحي وبين الواقع الحقيقي الذي رأيته من اندفاع الجميع تجاه الطعام بطريقة شهوانية.

_ لقد شعرت أن المنظومة التي كنت داخلها تلفظني خارجها، لم تكن منظومتي على الإطلاق، كنت داخل قفص، كل الألوان فيه متشابهة وشعرت بأني لون مختلف، أنا لا أعرف أن أعبر كما تفعل أنت لكنني لم أتقبل فكرة القيد الذي يطبقه أبو الحكم على الإطلاق بل انتابني إحساس بغضب عارم ورفض قاطع لوصايته وسيطرته رغم إعجابي به، لقد مررت منذ بضعة أيام من خلال متابعتي لدروسه بحالة غريبة، لم أعهدها في نفسي، حالة من مشاعر أو من.. لا أعرف ما الذي أستطيع أن أصف به هذه الحالة.. حالة من..

_ حالة وجد. وجد عميق يجعل الروح صافية طافية، تطير بحرية في رحاب الله، فتبتعد عن المشاكل والتعقيدات، تبتعد عن المصالح والشركات والأموال والأسر والمواريث والقتال، تبتعد عن كل آفات البشر التي تراها، حتى تصبح لا تراها.

_ بالضبط يا عمّ، بالضبط، لكأنك تصف حالي التي لا أعرف كيف أصفها، لكنّ حالة الوجد تلك لم تبق كما هي بل تغيرت بالدعوة التي تلقيتها، كانت النظرات من حولي تجعلني أشعر بفخر ما، كانوا ينظرون إلي بحسد، أو هذا ما ظننته، اعذرني فأنا أنتقل من فكرة لأخرى دون تنظيم لفكري.

_ انتقل كما يحلو لك وافرد ما يجول بفكرك كما هو، لا تحاول تجميله أو تنقيحه.

_ شعرت أن لي خصوصية ما لدى أبي الحكم، نظراته وابتساماته الخفية، دعوته لي كي أكون جزءاً من جلساته الخاصة مع طلابه الأعزاء، كل هذا جعلني أشعر بسرور

وقوة ما في نفسي، لكنني بمجرد أن شعرت بذلك فقدت الوجد الذي أخبرتك عنه، عدت إلى الأرض، بضيق وتوتر.

ـ تركت المنظومة وخرجت، وفكرت بالعودة، لكن الله منعك.

ـ هل تقصد أن الله أرسل لي هذا المخلوق كي يسد الطريق ويمنعني من العودة ؟

ـ وهل لديك تفسير آخر ؟

ـ لا أعرف ؟ لا أعرف.

ـ في مرحلة ما من الطريق ندمت على قرارك، وكبر الخوف في داخلك وامتد كما رويت لي، فتراجعت نفسك والتبست عليك الأمور، وظننت أن الوحشة التي وجدتها في الطريق الموحش المظلم ما هي إلا عقوبة من الله، وانتقام لتركك أبي الحكم فالتفتّ لتعود.

ـ صحيح.

ـ فوجدت الكلب الضخم يقف قبالتك، يمنعك من العودة، بل ويمنعك من فعل أي شيء، وبقي الأمر على هذا الحال حتى دعوت الله، دعوته بإيمان خالص ويقين كامل، فجلس الكلب وسدّ طريق العودة كي تمضي قدماً في الدرب الموحش المظلم الذي لا أُنْسَ فيه لأنه طريق الخروج من منظومة التشابه الأعمى المزيف.

ـ لن أعرف أن أفلسف الأمور مثلك، لكنني ما شعرت بخوف وتضاؤل كما شعرت في تلك اللحظة وما شعرت بأمن وسكينة كما شعرت في اللحظة التالية، كانت سكينة أصابت قلبي فأغمضت عيني وكأن الخطر غير موجود على الإطلاق، وكأن الأمور كلها من حولي كانت وهماً وما من ملجأ حقيقي إلا الله، ما من حقيقة فعلية إلا حقيقة وجود الله معي، نعم لقد كان معي، لقد شعرت أني وجدت الله يا عم، وجدت الله الذي بحثت عنه منذ أسبوعين فقط ولأجلك، رغم إيماني بالله طيلة حياتي، لكنني وجدت الله الآن.

ـ لقد ذهبت إلى تلك الجلسة لأهداف، ربما شخصية، لم تذهب كي تبحث عن الله، لكنك عندما رأيت ما رأيت لم تجد الله الذي يذكرونه وينادون باسمه تعالى ويكررونه، لم تجده بل وجدت الدنيا والقوة والسطوة والشهوة على اختلاف درجاتها، فخرجت بحثاً عن الله، أو خرجت عندما أيقنت أن لا وجود لله في ذلك الاجتماع، لم تكن

تسعى وراء حظوظ نفسك بل اخترت الوحشة و الدرب الضيقة المظلمة سعياً وراء إحساسك المبهم، فوجدت الله في إخلاصك و تلمسك الصحيح بفطرتك، و جاءتك ومضة التصويب من لدن اللطيف الخبير عندما داخلك الخوف و الشك و تاهت نفسك فقررت العودة، ويا لها من ومضة رائعة ومباشرة.. هناك قول لأحد المخلصين في هذا الدرب، قول أحببته و اختارني هو لينطبق علي ولم أختره أنا كي أنتهجه دونما تجربة : لا تغرّنّك قلّة السالكين في درب الهدى ولا تخش من وحشة الطريق.

أشرقت ابتسامة عريضة فوق وجه الشاب، ثم مرت لحظات صمت هادئة جعلت العجوز يستعيد أنفاسه التي كانت قد بدأت تتضاءل من خلال كلماته، و جعلت واصل يفكر بعبيد.

_ هل أتعبك يا عم إن استشرتك بأمر ؟

_ ألقِ ما عندك فحوارنا يحرك العافية في بدني.

_ لدي صديق، هو صديقي المقرب، نشأنا سوياً، صديق طفولتي، أكثر الأشخاص التصاقاً بنفسي، لكنه.. ينفي وجود الله، ينفيه إطلاقاً، حسب رأيه لا يوجد أي دليل كفيل بإثبات وجوده، بيننا جدالات طويلة في هذا الشأن، لكنها لم تصل إلا لنهاية مسدودة، بصراحة أنا لا أملك الأدلة العقلية أو الفلسفية التي يملكها أصحاب الرأي و المفكرون المختصون بهذا الأمر، لذلك لا أعرف كيف أجاريه بجداله، خاصة كونه مختصاً بمادة الفلسفة، لكنني كثيراً ما أخبره بأن الله موجود بالإحساس قبل العقل و أن الموضوع لا يحتاج إلى إثبات بل هناك حاجة في الإنسان تجعله يؤمن بالضرورة، ضعف بضاعتي بالأدلة العقلية لم يتح لي المجال إلا أن أنطق بإحساسي لا بأدلتي الدامغة، رغم أننا صديقان حميمان لم يكن هذا الموضوع عائقاً بيننا على الإطلاق طيلة صحبتنا. ما الذي يتوجب علي فعله ؟

_ نقاشك صحيح. وجود الله لا يحتاج لأي إثبات، محاولة إيجاد الدليل العقلي لإثبات أمر في جلال هذا الأمر هو محاولة سخيفة بطريقة ما. لذلك فأنت لم تخطئ إذ رددت بطريقتك لا بطريقته. إنسان ذو تركيبة فلسفية كصديقك لن يغير قناعاته المتكونة في أمر كهذا بدليل يساق بنفس الأسلوب، ولكنه سهم نبيل يطلق في الوجدان، أو تجربة رقيقة تصيب الفؤاد فتبدل الإنكار و الحجب الأعمى للحق إلى

عمق إيمان وكشف كامل للحق.

_ لكنه لا يتأثر بكل ما أقول.

_ ربما لم تصل بعد لدرجة عالية من درجات الترقي أو لمرتبة مرتفعة من مراتب السمو الروحي التي تخولك أن ترمي السهم النبيل فتصيب عمق الوجدان.

امتعض واصل قليلاً من الجملة الأخيرة. فصمت ولم يرد.

_ خلال الأيام القادمة سنرتب موعداً في وقت ما تستطيع خلاله أن تجلب صديقك إلى هنا، دعني أتعرف إليه.

_ عفواً وهل وصلت أنت إلى تلك المرتبة التي تتحدث عنها فتستطيع رمي السهم النبيل ؟

ضحك العجوز وقال :

_ أنا لم أقل بأني سأغير قناعاته، لكنني قلت دعنا نتعرف إليه فقط، على كل حال، أرجو أن تكمل بحثك، فأمنيتي لم تتحقق بعد، لا تنس أمنيتي، لم يبق الكثير من الوقت، اذهب اليوم وانظر ما الذي ستفعله وأي طريق ستأخذ بعد أبي الحكم، لن يتركك أبو الحكم بعد هروبك.

_ لن يتركني ؟! ما الذي تقصده ؟

_ لقد تعبت، مع السلامة الآن.

قال العجوز ما قال والتفت ليواجه النافذة، فنهض الشاب وغادر على الفور.

١٨.

كان اللقاء بين واصل و صديقيه حافلاً و غنياً خاصة بعد انقطاع الشاب عنهما تماماً خلال الأسبوعين الفائتين.

اجتمع الثلاثة مساءً في منزل عبيد.

كانت غرفته مليئة بالكتب. مكتبة ضخمة احتلّت الجدار الرئيسي في الغرفة وعشرات الكتب موزعة هنا و هناك في الزوايا و فوق الطاولة و فوق المكتب بطريقة عشوائية غير منظمة.

كان واصل مرتاح الملامح، هادئ القسمات، يبدو صفاء مزاجه جلياً للاثنين.

تنوعت الأفكار و توزعت الأحاديث، و تشابكت المواضيع كالعادة بين الثلاثة، معارضة عبيد تتناغم مع سخرية شامل و تتكامل مع هدوء واصل و حياديته.

كان لقصة واصل مع الحضرة حصة كبيرة من النقاشات الدائرة.

لم يعلق شامل بداية على الأمر لكنه استغرب ذهاب واصل إلى ذلك المكان دون أن يخبره بدعوة أبي الحكم، أما عبيد فتناول الموضوع برمته بنقد شديد و هجوم عنيف على أبي الحكم ثم على واصل الذي زجّ بنفسه في موقف كهذا لا تحمد عقباه، ثمّ قال بعد ذلك مستنكراً:

ـ و هل تريد مني أن أقتنع الآن أن الكلب الذي وجد مصادفة خلفك هو رسالة من الله إليك كي يمنعك من العودة؟

ـ أنا لا أريد منك الاقتناع لكنني قصصت لكما ما جرى معي حرفياً، أما رأي العجوز فهو كما قلت أنت، أن الله منعني من العودة مرة أخرى إلى ذلك المكان العجيب الذي أُنشئ باسم الله ولا وجود لله فيه.

ـ هي خير مصادفة أصابتك كي لا تعود إلى تلك المهزلة، ولكن أن تُؤوّلَ الصورة كي تصبح رسالة و ما إلى ذلك فلعمري هو أمر مزعج، لا وجود لا لرسالة و لا هم يحزنون، إن هو إلا كلب، ظهر في درب ريفي موحش ناء و مظلم، ما الغرابة في ذلك ؟ أين الإيحاء

والرسالة؟ من الطبيعي وجود الكلاب في أمكنة كهذه، وإن لم نجد كلاباً وجدنا ذئاباً وضباعاً، بل إن لم نجد كل ذلك فهو الأمر الغريب بحد ذاته، أما جلوس الكلب بعد أن توجهت إلى السماء ودعوت إلهك فأيضاً هو أمر طبيعي، أن يهدأ الكلب ويجلس فلأنك هدأت أنت، وأصبح بإمكانه أن يشتمّ أو يشعر برائحة هدوئك، فهدأ كما تهدأ الكلاب عادة عندما تشعر باسترخاء أعصاب الشخص الواقف أمامها، وجلس لأنه أحسّ ألا خطر منك ولا توتر، ولم يجلس كي يسد الطريق. من أين تأتي تلك الأفكار الغيبية العجيبة ؟ لو أنك لم تمارس فنون التهدئة النفسية التي مارستها لربما كنا نزورك الآن وقد عضك كلب في مكان ما من جسدك.

ـ ترى الموضوع من زاويتك الرافضة لكل إيحاء وكل لمحة من لمحات الروح وأراه من زاويتي التي كنت فيها في ذلك الموقف. أتذكر فكرة اللجوء التي ذكرتها لك في موضوع الإيمان، هو اللجوء الذي شعرت به في أكمل صوَرِه، لذلك توضحت لي الصورة.

ـ طبعاً فأنت تؤمن سلفاً بأنك إن لجأت هدأت نفسك واستقر توترك وصرت صلباً، والحياة تسير كما يؤمن الإنسان بها.

ـ سنصل الآن إلى نهاية مغلقة.

ـ خلّ عنك هذه الأفكار وعد إلى حياتك يا رجل، ما الذي جرى لك حتى تغير طريقة حياتك وأسلوب معيشتك وتتبع هذا وذاك، رجل مجنون خرف يريد أن يرى الله، وآخر متسلط كريه شكل عصابة من التابعين المخدَّرين، إلى أين تريد أن تصل بنفسك؟ عد إلى رشدك وكفاك من تلك القصص الغيبية وتلك الإرهاصات، صرت تشبه جدتي بإرهاصاتك وتأويلاتك العجيبة.

صمت واصل وقد توترت ملامح وجهه فشدت كل الهدوء الذي كانت عليه في البداية. لم يعجبه الهجوم الفوضوي الذي شنّه عبيد عليه، بل أغضبه ذلك وجعله يصمت، لا صمت الرضى لكنه صمت التحدي المفاجئ الذي يضرب الحوار في منتصفه فيقضي على آلية ذلك الحوار.

عندما ساد الصمت قطع شامل التوتر فقال:

ـ وهل عضَّ كلبٌ جدتكَ في طريق ربفي ؟

ظلّ الصمت مخيماً ولم تجد سخرية شامل نفعاً، فتنحنح قليلاً ثم قال :

_ لكل امرئ منا طريقته في الرؤية، أنت يا عبيد لا تستطيع لمس الشعور الذي انتاب واصل، لكنه شعور موجود وحقيقي، لم يزيفه، ولم يختلقه، مسألة الإيمان مسألة متباينة. أنت الآن لا تؤمن، وهذا بحد ذاته إيمان. فأنت تؤمن بعدم الوجود، لديك عقيدة رهيبة قوامها نفي وجود الله، أليس هذا إيماناً بحد ذاته؟ لا أريد أن أفلسف الأمور فأنت الفيلسوف هنا، ولكني أريد أن أوجه دفّة الحديث كي تنتبه إلى أنك أنت أيضاً مؤمن بعقيدة قد سقت لها الأدلة بعد إيمانك بها لا قبل ذلك، آمنت بعدم الوجود وأعجبتك القصة فسقت كل الدلائل النظرية والعقلية التي قرأتها في الكتب. وأكرر .. قرأتها في الكتب، لا أوجدتها أنت ولا اكتشفتها بفكرك الحر، قرأتها من أبي حكم آخر، أبي حكم غربي، ربما هو ملحد أوربما هو مؤمن أوربما هو على دين أهل المريخ، فخضعت بدورك لسيطرة أبي الحكم الغربي، ذلك الفيلسوف الذي له حضرة وذكر أيضاً ولكن بطريقته، له أتباع مخدّرون وله طريقة وقوة وسيطرة، وأنت من أتباعه ومن عصابته إن شئت، فالأمور كلها واحدة، هذا ما أريد الوصول إليه. لا أريد مهاجمتك، لكنك أيضاً تشبه جدتي التي غطت عقلها، ولكن بعقلها هذه المرة لا بإحساسها، أنت غطيت عقلك بعقلك واستأثرت بإرهاصات نظريتك التي لا تقبل إلا نفسها.

_ أنا أؤمن بحرية المعتقد، ولواصل حرية معتقده لكنني خائف عليه من تلك التجربة وما يمكن أن تجلب عليه من مشاكل، خذ مثلاً الشركة التي تؤمن رزقه، ما وضعها الآن ؟ هل نسيتها يا واصل ؟ هل نسيت مهنتك ومهماتك؟ أشعر بأنك تختفي رويداً رويداً ! لم أرك ولم أسمع منك شيئاً خلال الأيام الماضية حتى عندما أتصل بك في منزلك لا أجدك ولا يعرف والداك أين أنت، سألني والدك عنك قبل يومين، أخبرني بشأن اختلاف يلمحه في شخصيتك، قال بأنك ذاهل أوشارد الذهن، لا تأكل كما يجب ولا تتكلم معه أومع والدتك كالعادة، لم أعرف بماذا أجيب، سكتّ، قلت له أعتقد بأن أمور العمل مضطربة قليلاً.

قال واصل على الفور وبلهجة فيها من الحزم ما فيها :

_ أولاً شركة الحياة السخيفة ليست شركتي، ومهماتها التافهة ليست مهماتي ولم أقبل العمل فيها إلا كمترجم، لا كخادم مصباح علاء الدين الذي يحقق الأمنيات

بشكل ممسوخ مقابل الإعلان. ثانياً أنا لم أذهب إلى الشركة و لم أوقع على جداول الحضور و لم أكتب تقريري منذ حوالي أسبوع لأنني لا أريد ذلك، لا لأنني ذاهل ولا شارد الذهن، ثالثاً أرجو منك مستقبلاً أن تطلعني على ما يجري من أحاديث بينك وبين والدي الذي لا مجال لديه ليقيم حواراً معي ويسألني عن حالي.

_ واصل أنت تعلم بأنني لا أقصد أن..

_ اسمع يا عبيد، أنا بأفضل حال.. لا... بل لم أكن أفضل حالاً في حياتي برمتها أكثر من الآن، لذلك لا أريد تدخلاً من أي شخص حولي فيما يحدث بيني و بين العجوز أو فيما يجدّ من ظروف في حياتي أوعملي السخيف.

_ لقد فهمتني بشكل خاطئ، أنا آسف.

_ لا تهتم، أعلم نيتك الحسنة تجاهي.

بالرغم من اعتذارعبيد و تفهم واصل إلا أن جوّاً من برود لف البقية الباقية من اجتماع الثلاثة، برود ما كان بمقدورهم تجاوزه إلا بفضّ تلك السهرة و تجاوز ما حدث من احتدام ليمريوم أويومان فتعود الأمور إلى ما كانت عليه بين الاثنين.

لذلك لم يمض الكثيرمن الوقت قبل أن ينهض واصل لينصرف ومعه شامل طبعاً الذي لن يبقى وحيداً بصحبة عبيد.

خرج الاثنان مساءً، مشيا معا مدة طويلة، كان الصمت يخيم عليهما، لكن شامل بتره بعد عدة دقائق فقال: لا تغضب من عبيد، لم تخرج كلماته إلا من صدرمخلص، لا من فضول ولا من سيطرة.

_ أعرف هذا، لكن الأمور زادت عن حدها المعقول، وأعتقد أن أوان تغييرقناعاته قد جاء.

_ أتقصد قناعاته الإيمانية ؟

_ طبعاً.

_ لا أعتقد أنه سيتنازل عن هذا الأمربتلك السهولة، عبيد يجد قوته و جبروته في إنكار الألوهية و المجاهرة بذلك، الأمر لا علاقة له بقناعته فقط، لكنه يتعلق أيضاً باتزانه الشخصي، أو بتكوينه النفسي القائم على الاختلاف و إظهار الاختلاف بل وتبريره بمبررات منطقية لا تُقْهَر من خلال إتقان اللعبة اللغوية الفلسفية تلك التي

يعتبرها ملعبه الأول.

ـ لقد أخبرت العجوز عنه، فطلب مني أن أحضره في يوم ما قريباً عندما أذهب إلى المشفى.

ـ ولماذا يتوجب عليك إحضاره ؟

ـ بصراحة لا أعرف، لقد أخبرته عن عقل عبيد وطريقة تفكيره فطلب مني إحضاره و قال: فليأت معك في وقت ما لعلّ سهماً إيمانياً يخترق حواجزه المنطقية المتحجرة ويصل إلى منطقة ما في روحه فتنقلب موازين قناعاته.

ـ من هو هذا العجوز؟!!

ـ لا أعرف، حتى الآن لا أعرف.

ـ لدي رسالة لك، لم أستطع إخبارك عندما كنا في منزل عبيد.

ـ رسالة !!؟ ممن الرسالة ؟

ـ رسالة شفهية من أبي الحكم.

ـ أبو الحكم !!

ـ نعم، لقد كان أمس في المركز فدخل غرفتي وأخبرني بأنه لم يرك في أي من دروسه خلال اليومين الماضيين و أنك قبل ذلك قد اختفيت فجأة خلال جلسة خاصة من جلساته ليلاً و أن طلابه بحثوا عنك فلم يجدوك، فأصابه قلق بشأنك وأتى كي يسأل عنك.

ـ غريب، فعلاً غريب، لقد عرف العجوز ذلك، لقد تكهن أن أبا الحكم لن يتركني !!

فكر واصل قليلاً ثم أضاف:

ـ اسمع يا شامل، يجب أن أرى أبا الحكم، يجب أن ألتقي به في وقت ما منفرداً، هل تستطيع أن ترتب لي هذا اللقاءَ ؟ في المركز إن شئت، أريد أن أكلمه، أنا لن أحضر دروسه بعد الآن، لكنني يجب أن أكلمه وحده وبشكل خاص لا بين طلابه و مريديه.

ـ سأحاول غداً وسأخبرك، ولكن .. هل قلت أن العجوز تكهن بشيء، ما هو ؟

ابتسم واصل وبدأ يخبر صديقه بما قاله العجوز بالتفصيل في اليوم السابق، تكلما طويلاً عن الأمر وغرقا في حوار لا ينتهي ترافق مع سواد الليل الذي غطى الشوارع.

١٩.

لم يستغرق الأمر من شامل أكثر من يومين اثنين، كان واصل خلالهما لا يفعل شيئا إلا القراءة و الاسترخاء.

ذهب إلى سوق الكتب ثمّ تاه بين دور النشر و المكتبات، لم يكن يعرف ما الذي يبحث عنه بالضبط، لكنه انتقل من دار إلى أخرى ليسأل و يسأل.

سأل عن أساسيات الطريق إلى الله، طلب أبحاثاً تسترسل في وصف النفس البشرية و متطلباتها الإيمانية، تصفح كتباً تتكلم عن ثوابت الإيمان و مقتضياته ودلائل النقاش الفلسفي المثبت لوجود الله، وأخيراً بحث عن كتب تُعرّف و تحدد معنى الوجد المتشكل في روح الإنسان و مصادره.

اشترى كتباً كثيرة. حاول الوصول إلى مبتغاه الذي لا يعرف كيفية تحديده.

ولن نقول إنه نجح باختيار مواد قراءته، لكنه بكل تأكيد إن لم يكن قد حصل على مراده تماماً، فقد حصل على أشياء أخرى كثيرة بالمقابل.

كانت المتعة التي أصابته خلال تسوقه و اختياره للكتب أعقد من أن يحاول تحديدها و التقاطها و أبسط في الوقت ذاته من أن يعبر عنها.

كحال متع كثيرة أجلناها ومنعنا أنفسنا عن القيام بها بل و سخرنا من كل من يفعلها بحجة الابتعاد عن الواقع و الهروب إلى العوالم المتخيلة، كمتعة مراقبة شروق الشمس و متعة تناول القهوة الصباحية مع من نحب، و متعة الحمام البارد في الشتاء، و متعة السهر حتى الصباح في الليلة المقمرة، و متعة تسوق الكتب، و متعة اللعب مع الأطفال كأننا منهم، و متعة تذوق أوراق الورد، و متعة استنشاق الرائحة الحليبية المنبعثة من رقبة الرضيع، و متع أخرى كثيرة لن يسعنا الآن جمعها لكننا إن فهمناها و استشعرنا تأثيرها فسنفهم إذاً تلك اللمسات الفريدة التي من الممكن لها أن تكون قد أصابت الشاب فشعر خلالها بالوجود الحقيقي لشخصه الفريد القابع في داخله.

شعر أنه . ولأول مرة منذ فترة طويلة جداً . يسير باختياره، باسترخاء و هدوء، لا عجلة و لا توتر، لا وقت محدود و لا صداع، لا جداول مرهقة ولا شركات.

كان من الواضح أن براعم تفكيره الكامنة قد بدأت بالتنفس من جديد مستعينة بفيض الوقت و القدرة على التعبير الهادئ، ذلك التعبير الذي تُرجِمَ في تلك الآونة إلى سلوك فعلي أولي كنزوله إلى سوق الكتب و اختياره لما يمكنه أن يشبع روحه العطشى التي بقيت عطشى مدة طويلة دون حتى أن يعي عطشها، أو أن يكتشف أن النبض الموجود في داخله قد سئم الهامش الذي استقر وراءه طيلة حياته حتى هذه اللحظة، قد سئم التشابه و اللون الرمادي، قد أخذ كفايته من الرأي المحايد و مسايرة الواقع و الركض اليومي السخيف الذي لا غاية له إلا إرضاء شركة الحياة و أعوان شركة الحياة المتخفين في الحياة نفسها.

وهذا ما جعله يذهب إلى لقاء أبي الحكم و هو أكثر هدوءاً واستقراراً من ذي قبل.

كان يعرف هذه المرة ما الذي يريده من الشيخ، ولذلك لم يتردد للحظة في الذهاب على الفور عندما اتصل به شامل و أخبره أن الرجل سيتواجد في المركز خلال ساعة وحيداً في غرفة التدريس.

ذهب إلى هناك و دخل إلى غرفة شامل فقال الأخير بسرعة:

ـ الحق به، إنه يجلس في غرفة التدريس، الثالثة إلى يمين غرفتي، لا أعتقد أنه سيبقى فيها أكثر من عشر دقائق أخرى، الوقت الكافي كي يشرب كوب الماء المحلى الذي طلبه، لن أدخل معك بل سأنتظرك.

ـ هل يوجد معه أحد ؟

ـ لا ولكن أسرع قبل أن يدخل أي أستاذ أو طالب.

توجه واصل إلى الغرفة، نقر الباب نقراً خفيفاً و دخل قبل أن ينتظر الجواب.

كان الشيخ يجلس على كرسي مريح، يضع نظارتيه فوق عينيه ويقرأ كتاباً ذا غلاف أسود بلا عنوان، و بجانب الشيخ وُضِعَت طاولة صغيرة، يبدو بأنه قد جلبها بنفسه ووضعها بشكل عرضي كي يضع فوقها كوب الماء الساخن.

نظر أبو الحكم نحو الباب من تحت نظارتيه اللتين هبطتا حتى استقرتا فوق الجزء الأسفل من أرنبة أنفه.

لن نقول بأن علامات الدهشة ظهرت فوق وجهه عندما رأى واصلاً، فرباطة جأش رجل كأبي الحكم تمنع أيّاً من تلك العلامات من الظهور فوق ملامحه، لكن نظرة طويلة ومباشرة صدرت منه عوضاً عن ذلك.

بادرواصل بالسلام فرد الشيخ وسكت بانتظارما سيقوله الشاب.

صمت واصل برهة محاولاً تنظيم مدخل حديثه كي يبدولائقاً قدرالإمكان:

ـ أخبرني شامل أنكم بحثتم عني يوم الحضرة، أنا آسف لقد توجب عليّ الذهاب، أعرف أنني مخطئ إذ لم أستأذنكم في ذلك الوقت، لكنني ذهبت بداعٍ اضطراري مفاجئ فلم يتح لي الوقت لإعلام أي شخص.

ـ حتى حارس الباب لم يرأحداً يمرمن خلال بوابته.

ـ لم يكن الحارس موجوداً آنذاك.

ـ لكنه قال بأنه ما غادرالبوابة أبداً.

ـ لقد ذهب ليملأ صحنه... ليأكل.

ـ لم تأت أيضاً إلى درسنا في الأيام التالية لخروجك، خشينا أن مكروها قد أصابك لا سمح الله.

ـ آسف يا سيدي ، لكنني .. بصراحة لا أعرف كيف أقول ما جئت لقوله .. أنا ..

ـ لا تتردد، قل ما عندك بوضوح.

ـ لقد لمستُ إضاءة بداخلي عندما سمعتُ كلماتك، لا أعرف ما نوع تلك الإضاءة، إلا أن نوراً ما قد انتشر في داخلي و جعلني أطلب المزيد، لكنني اكتشفت بأنه نور متفرد، لا جماعي، لا أقصد أنني لا أريد أن أكون ضمن الجماعة، أبداً، لكنني أبحث عن الله، أبحث عن الله ولم أجد الله أبداً في المرة الأخيرة التي كنت فيها بينكم، الحقيقة يا سيدي أني شعرت بأن الانتعاش الذي دخل روحي لن يفارقها، لكنه فارقها بأسرع مما تصورت، أنا لا أهوى المنافسة، لا أريد التطور بالمراتب، لا أطلب المزيد من تطور الدرجات، لكنني أريد الوصول إلى الله، بشكل بسيط، متفرد ربما، لا أعرف كيف أقول ذلك لكنني أريد الوصول إلى الله في تفردي قبل اجتماعي ..

ـ ما الذي تقصده تحديداً بالوصول إلى الله ؟

ـ أن أشعربوجود الخالق على الدوام. أن أتلمس وجوده في روحي. لقد شعرت بتغير

معين لم أعهده في نفسي من قبل عندما بدأت الدروس، كنت بين الحضور عموماً، أغرق في ذاتي، نكرة عامة، وفي الوقت ذاته عالماً فسيحاً خاصاً.

ـ لماذا تركت الحضرة ؟

ـ بصراحة لم أجد من الله إلا اسمه، لم أشعر إلا باختناقي، صدقني يا سيدي لم أخرج بإرادتي وتصميمي، إنما كان خروجي مجرد ردّ فعل لم أعِه تماماً، صدقني ما من عاقل سيضع نفسه في ذلك الدرب المظلم الموحش ليلاً مع سابق إرادة وتصميم، حتى عندما فكرت بالعودة حدث ما منعني، وكان المانع من عند الله.

ـ وما هو المانع ؟

ـ أرجو المعذرة، لن أستطيع تداول هذا الموضوع الآن.

لم يكن واصل قد أضمر إخفاء أو إطلاق حادثة الطريق أمام أبي الحكم قبل مقابلته، لكنه وجد مانعاً مجهولاً في نفسه يمنعه من إطلاق هذا الأمر علناً مرة أخرى، بل شعر بأنه قد اكتفى تماماً من نشره بعد أن أخبر به العجوز وصديقيه.

أطرق الشيخ وعلامات التجهم قد بدأت تتشكل فوق جبينه. ساد بعدها صمت بسيط لم يستطع واصل كسره خاصة بعد أن طغت هيبة الشيخ فوق لسان الشاب فأسكتته انتظاراً لإيذان آخر بالكلام، وظلّ الأمر كذلك إلى أن قال الشيخ أخيراً:

ـ لعمري ما أتيت الآن لتخبرني بكل ذلك فقط، كان يكفيك أن تختفي، لم أتيت إذاً ؟

ـ بصراحة أريد مشورتك ودلالتك، لن يعرف أحد ممن هم حولي أين الطريق، أنا واثق بأنك تعلم ذلك، لقد أنرت جانباً لم أكن أدركه في داخلي. دُلّني الآن أين أتجه، أريد الوصول إلى الله، أريد أن أسأل آلاف الأسئلة، أريد أن أتفرد و أتوجه إلى الله وحيداً، لا أريد حظوة ولا مرتبة لدى أحد، لا أريد أن أصبح أستاذاً ولا طالب علم ولا مريداً ولا أي شيء آخر، أريد أن ألجأ إلى شخص ما يستطيع شفائي مما أنا فيه وتوجيهي إلى طريق الله، إن كان التعبير صحيحاً، هل هناك أي أحد يستطيع فعل ذلك ؟ أنت تعرف الطريق، تعرف الأشخاص السائرين في هذا الدرب، أما أنا فلا، أرجوك، أبعدني عن الدروب العامة ودلّني على درب خاص هادئ أستطيع فيه وحدي أن أجد ما أبحث عنه ومن ثم أستطيع العودة إلى أي درب، عاماً كان أم خاصاً.

صمت واصل من جديد و أطرق الشيخ يفكر، ثم أغلق كتابه و انتزع نظاراته بهدوء ووضعها فوق الكتاب على المنضدة الصغيرة، ثم تناول الكأس و شرب بعض الماء الساخن.

كان واصل يتابع حركاته التي يؤديها بهدوء بالغ و ينتظر و قد أصابه قلق من إطالة الصمت، و شعر بأن الشيخ لن يجيبه أبداً.

فجأة وقف الرجل فانفرد الطول و ازدادت الهيبة، كان يشبه مارداً خارجاً من مصباح سحري، حمل الطاولة الصغيرة و أعادها إلى زاوية ما و فوقها الكأس شبه الفارغ، أخذ كتابه و نظارته، و مشى حتى وقف قبالة واصل فاستطاع الأخير تمييز رائحة العطر المختبئة تحت عباءته الثقيلة، تلك الرائحة التي تشبه رائحة زهرة ما من زهور الحمضيات. في تلك اللحظة خرجت كلمات الشيخ بهدوء و ألقى الردّ أخيراً:

ـ اذهب إلى الشيخ أبي العطاء، قل له أرسلني أبو الحكم، سأكلمه بشأنك، اذهب إليه غداً بعد العصر مباشرة، سيكون وحيداً في هذا الوقت.

همّ بسؤاله عن العنوان فقال الشيخ قبل أن يتفوه واصل بأي كلمة:

ـ صديقك يعرف العنوان، موجود في دفاتره.

قال ذلك و توجه مباشرة نحو الباب مستعداً للخروج، فانتبه واصل لذلك وقال:

ـ شكراً يا سيدي، أنا آسف حقاً، ربما كنت مزعجاً، آسف.

التفت أبو الحكم نحو الشاب. تأمله للحظات ثمّ قال:

ـ إن كنتَ مخلصاً في بحثك فستجد ما تبحث عنه، و إن وجدتَ ما تبحث عنه فأنا من يتوجب علي الشكر إذاً لا أنت، بالتوفيق.

خرج الشيخ و بقي واصل وحيداً في الغرفة، يستعيد الكلمات مرة أخرى.

كانت تلك هي المرة الأخيرة التي يرى فيها أبا الحكم أو يسمع أيّاً من كلماته.

٢٠.

الشيخ أبو العطاء رجل محنك ورع ابتعد عن آفات الدنيا، ذو شهرة واسعة في زهده وسمعته العطرة النظيفة التي لا تتناسب مع صغر عمره النسبي في هذا المجال، والذي بات حكراً على المسنين والمتقدمين في العمر، إذ لم يتجاوز أبو العطاء العقد الخامس من عمره إلا ببضعة شهور.

بداياته المبكرة في هذا الدرب مع أبيه جعلته يكسب الكثير من الوقت ويرمي العديد من آفات الطريق، ويبدأ من حيث وصل والده الزاهد التقي.

بنيته الصغيرة جعلته محبباً للقلوب، كان رقيق العود بسيط الملبس و الكلمات، متباسطاً في حياته يميل إلى الزهد و الابتعاد عن الترف وكثرة البشر، له شعر رمادي قصير جداً ولحية فضية لا يتجاوز طولها ميليمتراً واحداً.

غالباً ما يرى بطاقية بيضاء بسيطة تبدو تحتها شعيراته الرمادية كأنها إبر فضية اللون مزروعة برأسه و موصولة في جهة ما بلحيته.

متزوج ولا أولاد لديه.

يقطن أبو العطاء مع زوجته في منزل صغير في أحد أحياء المدينة القديمة، حيث ينظم الكثير من دروس العلم الخاصة به في غرفة مزدوجة تابعة للمنزل نفسه.

لم يكن صعباً بالنسبة لواصل الحصول على العنوان بالتفصيل من شامل، إذ كان أرشيف المركز الدقيق يحتوي على كل عناوين الأساتذة و المدرسين في داخل المركز والكثير منهم ممن يمارس نشاطه خارج المركز، تحسباً للأوضاع الطارئة من دعوات لاحتفالات دينية أو محاضرات أو أي شيء من هذا القبيل.

لم يكن لدى شامل الكثير من المعلومات المفيدة لصديقه حول أبي العطاء، كان يعرف فقط بأنه إنسان ورع، له منهج منفصل ويبتعد عن الغوغاء والدروس العامة الضخمة، ويرفض الكثير من الدعوات الاحتفالية بالمناسبات الدينية.

قرر الذهاب إليه أولاً ثمّ إطلاع العجوز على الأمر، وهذا ما حدث بالفعل.

بعد العصر تماماً وفي الموعد الذي ذكره أبو الحكم كان الشاب يقف قبالة الباب الصغير المفضي إلى منزل الرجل في حارة قديمة تكاد تكون أثرية.

نقر الباب عدة مرات بقبضة معدنية صدئة كانت هي السبيل الوحيد لإعلان قدومه إذ لا وجود لجرس كهربائي.

لم يكن في ذهنه صورة مرسومة للرجل، لكنه توقع أن يرى شيخاً مهيباً جليلاً كأبي الحكم الذي انطبعت صورته في ذهن الشاب كنموذج دائم للشيوخ.

فُتح الباب وظهر الشيخ مرتدياً جلابية بيضاء خفيفة وطاقية من نفس اللون، كان يبتسم حتى قبل أن يلقي واصل عليه السلام ويسأله عن حاجته.

لم يتوقع واصل بداية أن تلك القامة الرقيقة هي قامة أبي العطاء، فألقى السلام وقال:

ـ اسمي واصل، لقد جئت لمقابلة الشيخ أبو العطاء، وقد أرسلني الشيخ أبو الحكم إليه.

ـ على الرحب والسعة يا سيد واصل أنت وأبو الحكم، تفضل.

دخل الاثنان إلى صالة جانبية تظهر على يمين الداخل بمجرد الولوج إلى المنزل، أشار الشيخ لواصل بالجلوس وجلس هو الآخر ثم قال:

ـ قل لي حاجتك أنا بالخدمة.

استغرب واصل الفضول الذي أظهره الرجل إذ ظنّه مساعداً للشيخ أو شيئاً من هذا القبيل، فقال:

ـ أرجو المعذرة لكني أريد مقابلة الشيخ أبو العطاء شخصياً.

ضحك أبو العطاء وقال:

ـ أنت تقابله شخصياً، ومن هو أبو العطاء هذا كي يرسل عنه مندوباً، سامحك الله !!

فوجئ واصل واحمر وجهه على الفور وتأسف للشيخ :

ـ أنا آسف جدا يا سيدي ، لم أعرف أنك .. أعذرني ..

ـ لا تأخذ الناس بأشكالهم، قد أبدو أصغر وأرقّ جسدياً من سمعة أبي العطاء المعنوية، لكنني أبو العطاء الذي يخشى على نفسه دوماً من تلك السمعة.

لم يعرف واصل ماذا عليه أن يقول إزاء الكلمات التي سمعها بل ارتبك و احمر وجهه أكثر فقال الرجل:

_ سعي حاجتك يا سيد واصل، لقد كلمني أبو الحكم بشأنك وقال لي بأن حاجتك مختلفة عن الحاجات المعتادة.

بدأ واصل بسرد قصته مع أبي الحكم، و أخبر الرجل عن هدفه من معرفة الله والطريق إليه و كيفية اكتشافها، كما أخبره بأنه ظنّ أن هذا الأمر من الممكن أن يتم عن طريق دروس أبي الحكم لكنه عرف لاحقاً أن ما يبحث عنه مختلف تماماً عما يقدمه الشيخ فتركه و هو لا يلوي على شيء.

كان أبو العطاء ينصت لواصل مبتسماً و حين انتهى الشاب من كلماته سأله على الفور:

_ كيف بدأ الأمر ؟ أقصد ما الذي دفعك للبحث ؟

_ بصراحة جدّ أمر ما في حياتي، جعلني أدخل في تلك المسألة، كان الأمر مجرد مهمة علي الحصول من خلالها على إجابات، لكنه تحول خلال مدة بسيطة إلى أمر شخصي. شعرت أن الأمر خاص بي أنا و ما عاد مجرد مهمة خارجية أقوم بها كي أشفي غليل فلان وأريح فلاناً، بل تعدى الأمر كل ذلك، ووصل إلى أعماقي و صرت معنياً بالدرجة الأولى.

_ يبدو أن الأمر الذي جدّ معك أمر خاص لا رغبة لديك بذكره، حسن جداً لن أضغط عليك بشأنه فليبق خاصاً بك، و لكن ما الذي تريده بالطريق ؟ ما الذي تقصده تماماً ؟ أريد التأكد من مقاصدك بشكل تام حتى أعلم علم اليقين أن غايتك موجودة هنا لدي أم لا، كي لا تتكرر قصتك مع أبي الحكم.

_ ربما يا سيدي لن أعرف صياغة الكلمات التي تصف ما أشعر به لكنني سأحاول، أريد أن أعرف الله، أن أعرف عن الله، لدي الكثير من الأسئلة، ماذا يريد مني؟ ماذا أريد أنا منه؟ كيف أعلم بأنني فعلت ما يريد؟ هل هناك أجوبة صحيحة تامة ؟ أم أن الإجابات دوماً إجابات نسبية ؟ لماذا تختلف الإجابات من شخص إلى آخر؟ ولماذا تختلف الدروب ؟ هل معرفة الله واحدة لدى الجميع أم أنّ لكلّ فرد منا معرفته وتعريفه ؟ وهل.. نستطيع أن.. نرى الله ؟

_ لقد دخلت في أصعب الدروب.

_ أشعر بذلك، لكنني أشعر أيضاً بأنّ شيئاً ما قد اختارني، أو أن هناك ما جذبني رغماً عني وجعلني ألاحق كل هذا.

_ أعلم تماماً أن هذا ما حدث معك، ولذلك أنت هنا. أريد أن أسألك سؤالاً كفاتحة لدرب من الممكن لها أن تكون الدرب التي تبحث عنها وربما لا تكون.

_ تفضل.

_ هل نعبد الله ثمّ نراه، أم نراه ثمّ نعبده ؟ هل نعلم بأنه واجب الوجود دون أن نراه ثمّ نتوجه لعبادته، أم أننا نطالب برؤيته كي نتيقن من وجوب وجوده ثمّ نصرف أنفسنا لعبادته ؟ هل رؤيته ضرورة لعبادته ؟ أم رؤيته محصلة لعبادته ؟ هل الرؤية نتيجةَ الإيمان أم أن الرؤية سبب الإيمان ؟ هل رؤيته تعالى تتحصل لبشر في الدنيا ؟ أم أن أمر الرؤية محصور بالآخرة ؟ أم أنه لا رؤية على الإطلاق ؟

_ لا أعرف يا سيدي، لا أعرف.

_ هل يقيننا الثابت بوجوب وجود الله يجب أن يتحصل دون رؤيته ؟ هل هذا هو امتحاننا فوق هذه الأرض؟ أن نؤمن دون أن نرى؟ ثمّ من الممكن أن نرى ؟ أعلم بأنك لا تعرف جواباً، تلك قضايا شائكة وهائلة، لكنها في حين الذي تحتاجُ عالماً متمكناً ضليعاً كي يجيب عنها، من الممكن أن تجد عبداً بسيطاً عبَدَ الله بالفطرة ووصل إلى حلها بهدوء دونما تعقيد، لذلك دع تلك الأسئلة تبحر في روحك، دعها تدخل عقلك، وقلبك ونفسك، دعها تجول في داخلك، ولتترك قلبك يجيب عندما يعجز عقلك، لا تعقّد الأمور، بل بسّطها. سأراك ثانية وسنتكلم عن كل ما يجول بنفسك، تستطيع القدوم إلى هنا بعد الفجر. نجتمع يومياً مع بعض الباحثين من أمثالك، نتكلم، نقرأ كتباً، ونجري العديد من النقاشات المفتوحة، من الممكن بعد ذلك أن نجلس معاً، أنا وأنت فقط سنناقش كل هذا، تعال متى شئت، ولك الحرية أن تترك الاجتماع متى شئت، لا قيود ولا أسوار، لن يسألك أحد عن اسمك، لن تكون مضطراً للتعرف على أي شخص، الكل عباد يبحثون، وستكون مجرد وجه يبحث عن الحق.

كان الحوار مريحاً، وكان ما عرضه الشيخ هو تقريباً ما يبحث عنه واصل دون أن يعلن عنه، مكان تحترم فيه الخصوصية، لكل امرئ فيه وجهته، لا تنافس ولا تلمذة،

وحرية تامة بالدخول والخروج دونما لوم أو عتب.

شعر بشيء من إطلاق اليد واختفاء القيد.. الأمر الذي جعله يوافق دونما توجسات أو حذر، انتظاراً للاختبار العملي لكل الكلام النظري الذي قاله أبو العطاء.

_ شكراً لك يا سيدي، هذا بالضبط ما أبحث عنه مبدئياً، أنا آسف لقد أخذت من وقتك، أرجو المعذرة سأستأذن منك الآن وسأعود غداً صباحاً.

نهض واصل ونهض الرجل فلم يحدث نهوضه اختلافاً كبيراً بطول جسده المفرود لكن ابتسامة وجهه المشجعة هي التي أثرت في نفس الشاب و أحدثت الاختلاف المطلوب.

.٢١.

لم تعد شركة الحياة تستحوذ على تفكير واصل كما كانت من قبل. تباعدت أوقات زياراته لها مع تزايد اعتراضات المدير و تحذيراته بضرورة التوقيع اليومي، و ضرورة المواظبة على تقديم التقرير الأسبوعي الذي قدمه واصل مرة واحدة فقط منذ ابتعاده عن الشركة، ولم يحتوِ آنذاك إلا بضعة أسطر تتكلم عن ذهابه اليومي المنتظم إلى المشفى و قضائه بعض حاجيات العجوز يومياً.

لم يكن مديره المباشر مرتاحاً حيال المدة الكبيرة التي خرج فيها بمهمته خارج الشركة، بل و أبدى عدة ملاحظات حول استيائه من أدائه في الفترة الأخيرة و عدم التزامه بالجدول اليومي، كما بدا مرتاباً بشأن صلته مع العجوز بالرغم من وضوح الأمر و ذهابه هو شخصياً إلى المشفى كي يتأكد من صحته، إلا أن الفكرة برمتها كانت ممضّة لتفكيره. أن يستطيع موظف كواصل الابتعاد كل هذه المدة عن واجبه الوظيفي دون سبب شخصي بل بسبب العمل بحد ذاته، كان أمراً مزعجاً تماماً بالنسبة إليه.

لذلك قام أخيراً . بعد فشل كل تحذيراته السابقة . بتوجيه إنذار خطي مسجل سيتم بموجبه خصم جزء لا بأس به من مرتب واصل، مع التأكيد على التوقيع اليومي و التقرير الأسبوعي.

لكن غضب المدير و تحذيراته و إنذاره و عقوبته المادية، كلّ هذا كان بالنسبة لواصل كالغبار، لقد نزل برداً و سلاماً على قلبه المشغول بما هو أكبر بأشواط كبيرة من ترهات شركة الحياة كما كان يعتقد.

لقد علم بأمر الإنذار الأخير فور عودته من زيارته الأولى إلى منزل أبي العطاء، لكنه لم يتأثر على الإطلاق، بل خرج في صباح اليوم الثاني مع أول خيوط الفجر المتسربة من العتمة الصباحية قاصداً المكان نفسه مع نيته الكاملة بإنهاء زيارته تلك ثمّ الذهاب مباشرة إلى العجوز دون أي وجود للشركة في مخططه.

عندما وصل كانت العتمة قد انزاحت وبدأت الشمس تعلن عن وجودها.

فوجئ واصل فور وصوله بأنّ الباب كان مفتوحاً، لم يكن مغلقاً لكنه كان مواربا تاركاً شقّاً صغيراً للدخول.

نقر نقراً خفيفاً بيده، وانتظر قليلاً، لكن أحداً لم يظهر.

نقر مرة أخرى باليد المعدنية فظهر على الفور شاب يافع لم يتعدَّ العشرين من عمره، فتح الباب مبتسماً و أشار بيده بالدخول، فدخل واصل إلى غرفة الأمس الفارغة ذاتها ليجدها اليوم مليئة بالرجال واليافعين.. و بعض النساء.. الأمر الذي أدهشه كثيراً.

كانت الغرفة واسعة بعض الشيء كالغرف المخصصة للضيافة في البيوت القديمة، وُزّعَت فيها الكراسي المنجّدة بشكل دائري، ووُضِعَ في منتصفها بعض الكراسي البلاستيكية البيضاء كي تتسع للمتأخرين.

في أقصى اليمين وليس في صدر الغرفة جلس أبو العطاء ضامّاً قدميه الضئيلتين إلى جسده كي يتربع بشكل كامل فوق الكرسي المنجّد الذي من الصعب أن يسع شخصاً غيره بوضعية كهذه.

كان يفرد كتابين كبيرين فوق فخذيه، يقرأ من هذا تارة ويقارن بذاك تارة أخرى.

عندما دخل واصل وجد بضعة كراس فارغة في منتصف القاعة.

كان من المفترض أن يكون محطّ الأنظار بدخوله المتأخر هذا إلا أن أحداً لم يلقِ بالاً إليه بل بقيت الأنظار معلقة إما بالكتب المحمولة من قبل بعضهم أو بأبي العطاء الذي كان يقرأ بصوته الهادئ اللطيف، وقد وفّر هذا إحراجاً كبيراً لواصل بدلاً من لفت الأنظار الذي من الممكن أن يكون مزعجاً في مكان ضيق كهذا. مع ذلك لم يخلُ وجهه من بعض الاحمرار عندما شقّ طريقه ليختار أول كرسي صادفه من ضمن الكراسي البلاستيكية المتاحة.

كان الحضور منوعاً، ثلاثة أو أربعة من كبار السنّ ممن هم في سنّ أبي العطاء أو أكبر قليلاً، بعض رجال العقد الثالث والرابع، ثلاثة شبان في العشرينات واثنان ممن هم تحت العشرين أحدهما هو الذي فتح الباب لواصل، كلّ هذا بالإضافة لأربع نساء، جلست إحداهنّ بجانب أبي العطاء. كان واضحاً بأنها زوجته. تضع خماراً أسود اللون

تحجب وجهها وراءه، وتمسك بكتاب تناوله لزوجها عندما يريد التبديل بين الكتب.

أما بقية النساء فقد كنّ يخفين الشعر فقط ويظهرن وجوههنّ وكلّ واحدة منهنّ تجلس بجانب من أتت بصحبته، زوج أو أخ أو ابن، أصغرهنّ تبدو في نهاية العقد الثالث.

جلس واصل بهدوء وحاول فوراً الإنصات لما يقوله الشيخ لكنه لم يفلح في البداية إذ كان فضوله لاختلاس النظر هنا وهناك لاكتشاف الحضور وطبيعة الجلسة أقوى من كلمات أبي العطاء مبدئياً.

بعد نحو خمس عشرة دقيقة عادت الكلمات من جديد لتخترق الجدار الموجود خلف سمع واصل وتذهب إلى أبعد من ذلك فتجد لديه لبّاً عاقلاً يفهم ما يقال ويضعه موضع البحث.

كان الحديث يدور حول مقارنة بين كتابين يتحدثان عن معاني النبوات وفقاً لرأيين يفرق بينهما عدد كبير من السنوات.

يبحث الشيخ عن معنىً ما في الكتاب الأول ثم ينتقل إلى المعنى المطروح نفسه إن كان موجوداً في الكتاب الثاني.

يستفيض قليلاً في تلك المعاني ثمّ يضيف القليل من فكره الارتجالي حول الموضوع، وقد يقاطعه أحد الحضور بسؤال أو مداخلة فيستقبلها ثمّ يتابع.

كان صوته هادئاً لطيفاً يجلب السكينة للنفس، وفوق شفتيه ابتسامة دائمة تكاد لا تفارق وجهه، حتى خلال حديثه.

بعد أقل من نصف ساعة أنهى قراءته في الموضوع المطروح، فشرب بضع جرعات من كأس ماء موجود فوق طاولة وضعت بينه وبين زوجته ثمّ قال:

_ الحمد لله، لقد اقتربنا من إنهاء كتابي النبوات، والآن.. ماذا لدينا بعد ؟ .. أعتقد أن موضوع اليوم قد حضّره لنا الدكتور أمين، أليس كذلك ؟

قال رجل يجلس بجانب الشيخ:

_ نعم، بسم الله الرحمن الرحيم، بصراحة الموضوع الذي اخترته اليوم يدور حول فكرة التوازن وضرورته في صحة الإيمان.

لم يستطع واصل تقدير عمر الدكتور أمين تماماً لكنّه تكهن أنه في بداية العقد

الرابع، طويل القامة، لا شعر في مقدمة رأسه، له لحية سوداء كثيفة موصولة مع كتلتي الشعر الموجودتين حول صدغيه.

صوته حاد جداً، و ذو نبرة جادة تكاد تكون جافة بعض الشيء. لا ينظر في العين مباشرة لكنه يكثر النظر في الأرض أو في فراغ ما مقابله كلّما تكلم. كلماته متوازنة. يتنفس بهدوء ويلقي ما عنده دون أن يرفّ له جفن.

تكلم حول موضوع التوازن من وجهة نظره و استفاض دون أن يكون مملاً، و قد شدّت عباراته انتباه واصل ولاقت كلماته الدقيقة قبولاً حسناً في نفسه.

أما أبو العطاء فكان يستمع ويهز برأسه موافقاً كل بضع دقائق، وكأنّها علامة تأييد لما يقوله الدكتور أمين.

كان يخوض في الموضوع ويبحر، ويسقطه على مجالات الحياة كافة وكان آخر ما قاله:

_ أعتقد أن الإيمان الصحيح لا يتم دون آلية دقيقة و حساسة لضبط التوازن، و الحصول على تلك الآلية لا يتم إلا بتكوين ذهن متفتح و عقل ناضج و نفس هادئة و روح فعالة، طبعاً أنا لا أتكلم هنا عن حالات مثالية، لكنني أتكلم عن بناء نفسي متكامل و فعال، بالإمكان الحصول عليه عن طريق دراسة الواقع و موازنة الأمور للوصول إلى حالات التوازن العامة في كل الأشياء حتى في الطعام.

صمت الرجل هنا منتظراً من أحد ما التعليق فقال أبو العطاء:

_ فعلاً، لطالما فكرت في أمر الحدود الشرعية المنزلة من قبل الله على عباده، يأمرنا الله في ناحية ما أن نلجم شهواتنا، ثمّ نجد أمراً آخر يحمل نظرياً معنى مناقضاً للجم الشهوات وهو أن يطلق الاستمتاع بالطيبات و الرزق و الخيرات المحللة شرعاً، وهو نظرياً مناقض للجمِ الشهوات لكنه عملياً ليس كذلك، بل هو أمر مكمل للأمر الأول، إذ نجد حدّاً في أقصى اليمين يجعلنا نضبط أنفسنا و نشد على شهواتنا كي نمسك بلجامها وتصبح ملك إرادتنا، وفي الوقت ذاته يأتينا التحذير ألاّ نغالي بهذا الشدّ و ألاّ نبالغ بضبط الشهوة لدرجة كبتها التام و إعدامها وهنا يأتي التوازن. إذا تفكرنا بأمر الدين نجد بأنه حدود يرينا الله إياها، و أوامر متقابلة تؤكد الاعتدال بين طرف وطرف معاكس.. تُرسَلُ إلينا كي تجعلنا دائماً نسير مستظلين بمظلة التوازن إن صحّ التعبير.

أنهى الشيخ جملته فسأله أحد صغار السنّ:

ـ ولكن أليس من الممكن لهذا أن يجعلنا كالرجال الآليين المبرمجين نسير كبعضنا البعض دون تميّز، أقصد إذا صار فهم الحدود واحداً من قبل الجميع فهذا سيجعلنا نسير في درب ضيقة على الخُطَى نفسها وبشكل روتيني مرهق.

ـ أحسنت السؤال، لكنّ تلك الدرب التي تتحدث عنها ليست ضيقة على الإطلاق، بل هي أوسع الدروب الصحيحة. إضافة إلى أن توحيد الفهم أمر مستحيل بين البشر ولكنّ تقريب المفاهيم هو المتاح، سأعطيك مثالاً. إن قلت لك الآن إن فاكهة ما تحتوي على نسبة عالية من العناصر الفعالة التي بإمكانها القضاء على جراثيم معينة، من الممكن أن تأكل منها أنت حبة واحدة يومياً، ومن الممكن أن يأكل غيرك أربعة، ومن الممكن أن يبالغ غيرك ليأكل عشراً إمعاناً منه في القضاء على الجراثيم. وهنا التفاوت كبير والمبالغة خطرة، ولكن.. إن قربنا المفاهيم لبعضها بعضاً فأضفنا الحدّ المعاكس للحدّ الأول الإيجابي وقلنا: إنّ هذه الفاكهة مفيدة جداً باعتدال ولكن الإكثار منها يسبب الانتفاخ وآلام البطن، ومن الممكن أن يضرّ بمرضى السكري كما أنه يسبب القلق إذا أُكِلَ قبل النوم، فنحن بقولنا هذا قد وضعنا حداً نظرياً يمنع المبالغة في إيجابية الإكثار من القضاء على الجراثيم بطريقة خاطئة، وهنا سنجد أنك مثلاً من الممكن لك أن تأكل حبة واحدة، وأنا من الممكن لي أن آكل حبتين، والدكتور أمين من الممكن له أن يأكل ثلاثاً، كل حسب وجهة نظره وفهمه للأمور والكل صحيح، لكنك إن رأيت من يأكل العشرة فستتهمه بالجنون لأنه ليس متوازناً بل يبالغ بأمر قد فهم مدى الضرر الحاصل من المبالغة به، وإن رأيت من لا يتذوقها على الإطلاق محاولاً ضبط شهوته أو الابتعاد عن آلام البطن فستتهمه حتماً بأنه مبالغ ومتشدد في طريقة قياسه للأمور، وبهذا نجد أن الدرب ليست ضيقة بل متاحة حسب فهم كل إنسان وحسب حاجته ولكن دون زيادة كبيرة من طرف ودون مبالغة ضخمة من طرف آخر، لا إفراط ولا تفريط، فالمبالغة دوماً هي أمر مسيء في كل شيء، وأعتقد وهذا اعتقادي الخاص أن المبالغة هي باب واسع من أبواب الشيطان، حتى في بعض الأفعال الإيجابية، وأقول بعضها لا كلّها.

أكمل الدكتور أمين طرح بعض النظريات الخاصة بالتوازن وألقى إحصائيات

و نتائج دراسات كانت كفيلة بإقناع الجميع بفكرته ووجهة نظره التي كانت حقاً مقنعة، على الأقل بالنسبة لواصل.

بعد الانتهاء من هذا الموضوع انفضّ المجلس وبدأ الناس بالمغادرة واحدا تلو الآخر بهدوء، وبقي واصل جالساً منتظراً خروج الجميع.

كان المكان ضيقاً لكنهم كانوا يخرجون بهدوء ودون أدنى جلبة، وكأنّ كل فرد منهم قد عرف طريقه وحفظ مواقع خطواته.

بقي اثنان من كبار السنّ قليلاً مع أبي العطاء. تكلّما معه حول أمر يتعلق بتبرعات خاصة سيتمّ توزيعها على بعض العائلات في أحياء مجاورة، ثمّ أنهيا حوارهما سريعاً وخرجا بصحبته إذ رافقهما حتى الباب الخارجي.

عاد مبتسماً بعد ذلك بدقائق وجلس قبالة واصل وقال:

_ والآن يا سيد واصل هات ما عندك من أسئلة، اسأل ما يحلو لك، ما من سؤال ممنوع أو محظور إن كان بهدف العلم وإزالة الحيرة وتعميق المعرفة واليقين.

ساعة كاملة قد مرت قبل أن ينهي واصل أسئلته واستفساراته، وما أنهاها إلا بداع من الحياء بعدما رأى الإنهاك واضحاً في عيني الشيخ وصوته الذي استهلكه قبل الفجر، لكنّه إذ أوقف الأسئلة كان مشبعاً بطيف بسيط من ألوان المعرفة الهادئة المعتدلة.

لقد كان أبو العطاء يجيبه مهما كان السؤال معقداً أو مربكاً، لم يكن من الأشخاص الذين من الممكن أن يصيبهم ارتباك جراء سؤال غامض أو مبهم أو جريء، ربما لأنه رجل متقبل سلفاً لكل أنواع الأسئلة ولكل ما يمكن أن ينتج عنها من نقاش وحوار وشجون.

حوارات هادئة حرة تناوبت ما بين ولوج واصل إلى عالم الأدلة الإيمانية العقلية والصفات الإلهية وما إلى ذلك وبين نسائم أبي العطاء الإيمانية العاقلة التي تروي بهدوء عقل الباحث وقلبه.

عندما خرج واصل من المنزل القديم كانت الشمس قد اتخذت مكانها في السماء، كانت ساعة زيارة العجوز المعتادة قد اقتربت، فتوجه الشاب للتوّ إلى المشفى.

كان سعيداً بشكل ما. في جعبته أخبار جديدة يلقيها على مسامع العجوز ويطالع

رأيه فيها، وفي داخله يتنامى شعور لطيف بأنه قد أحسن الاختيار هذه المرة.

ولكن.. سرعان ما غادره شعوره هذا ليحلّ بدلاً عنه إحباط مزعج ظهر بمجرّد وصوله.

وجد المريض غير قادر إطلاقاً على التفاعل أو الكلام، كان مستلقياً شبه نائم، وهالات زرقاء مسودّة تقبض على زوايا التجاعيد حول عينيه المغمضتين، و بقع زرقاء أخرى انتشرت بشكل ما في جبهته ورقبته وذراعيه، كان المنظر مؤلماً، خاصة مع جهاز التنفس الذي وضع حول أنفه وفمه كي يضخّ الأكسجين الصرف لرئتيه مباشرة من أنبوبة عُلّقَت فوق الجدار.

كان جلياً بأن حالته الصحية في تدهور كامل، و أنه يعاني بصمت.

اقترب واصل من السرير، نظر إلى العجوز و شعر بأسى عميق يغور في نفسه، فقال بصوت مسموع:

_ لقد جئت لأخبرك ما حدث معي يا عم.

لم يرد العجوز لكن حركة طفيفة ندت عن جفنيه، استطاع بعدها أن يفتحهما ببطء شديد، كي ينظر إلى واصل بطرف عينه دون أن يستطيع تحريك رأسه تجاه الشاب.

قال واصل:

_ هل تستطيع أن تسمعني يا عم ؟

أومأ العجوز بعينيه موافقةً بأنه يستطيع السمع.

فقال واصل:

_ خيراً إن شاء الله، لقد كنت في أحسن حال، ما الذي جرى ؟ أرجو لك العافية والصحة.

لم يبد الرجل أي رد فعل فاستأنف واصل:

_ لقد جئت أخبرك اليوم أن أبا الحكم لم يتركني فعلاً كما أخبرتني، لكنني التقيت به و أخبرته بأنني لن أحضر دروسه بعد الآن، سأخبرك لاحقاً بالتفاصيل، إنّ الأمور على خير ما يرام، أنا ألاحق الأمنية، أرجو أن تطمئن، إنني أحاول جاهداً صدقني، لن أزعجك الآن، سأمرّ غداً أيضاً في وقتنا المعتاد كي أطمئن عليك، عافاك الله.

لم يعرف ما الذي يمكن فعله بعد للعجوز، فصمت و ما عاد قادراً على الكلام، لكنه لم يغادر بل بقي يتأمل السرير و آلات السقم المحيطة به، مع شعوره بالعجز الكامل عن الإتيان بأي فعل مفيد.

وقف بضع دقائق ثم مدّ يده بتردد و مسح على جبين العجوز بهدوء، ففتح الأخير عينيه و نظر إلى الشاب مع شبح ابتسامة مشجعة خرجت من طرف زاوية شفتيه المحبوسة داخل كمامة الأكسجين.

لم يكن واصل من الأشخاص الذين يمكنهم التصرف بمثل هذا الدفء الذي بدر منه، لكن يده امتدت دون قرار أو خيار، امتدت بدافع من عجزه عن المساعدة ربما..

من الممكن أحياناً في موقف كهذا أن تأتي الجوارح برد فعل فوري يخرج كتنفيذ فعلي لرغبة القلب بالمساعدة العاجزة دون أن تترك خياراً للإنسان بإيقافها أو مراجعتها.

.٢٢.

في ذلك اليوم نفسه أتى عبيد مساءً لزيارة واصل في منزله.

كان اللقاء هذه المرة أكثر هدوءاً و أقلّ توتراً من المرة السابقة، لم يتطرق عبيد لأي من المواضيع التي من الممكن لها أن تثير صديقه. تحدث فقط عن صفوفه الجديدة و طلابه الأكبر سناً في هذا العام ومشكلات التعامل معهم، و مواضيع أخرى متعددة تتعلق به و بمهنته و مشاكل عائلته و ما إلى ذلك.

عندما أدرك واصل ذلك سرت راحة عميقة في نفسه واستجاب هو بدوره بأن عاد إلى طبيعته، بل و شارك صديقه من جديد و أطلعه على مستجدات تفاقم مرض العجوز لكنه لم يأت على ذكر أبي العطاء وتفاصيل لقائه معه، بل اكتفى بما عدا ذلك من أخبار.

كان يحاول إيجاد منفذ ما كي يستطيع تدبير موعد بين العجوز وصديقه، لم يكن يرغب بطرح الفكرة مباشرة، لكنه كان يدور حول الموضوع، وينبش في بعض الأفكار الإيمانية البسيطة كي يثير حفيظة عبيد فيزج به في نقاش إيماني يصل في نهايته بطريقة ما إلى ما يصبو إليه.

بدأ بطرح بعض القضايا الفكرية المعاكسة تماماً لآراء عبيد.. تناول عدة براهين عقلية قرأها حديثاً و رمى بها بهدوء في وجه صديقه الذي تلقّفها على الفور و أخذ بتحليلها و الردّ عليها واحداً تلو الآخر حتى أنهى كل أسبابه المناقضة، و إذ انتهى قال واصل:

ـ يا لها من مرافعة، غريب أمر حماسك الرهيب الذي ينتابك كلما حاولت الدفاع عن نظريتك الغريبة.

ـ أبداً، إن هو إلا اندفاع شخص محقّ.

ـ محقّ بنظر نفسه فقط، أنت حتى الآن لم تقدم لي دليلاً مقنعاً يدل على عدم وجود الخالق.

ـ بل قدمتُ لك العديد من الأدلة التي أغلقتَ دماغك أمام تقبلها.

ـ كلّ هذا الكون العريض من حولك، كلّ هذا التناسق و الترتيب و التنظيم. ألا يدلك على وجود قوة هي التي خلقته بحكمة وبقدرة كاملة ؟

ـ لا. إنّه عمل الطبيعة.

ـ ماذا تقصد بالطبيعة ؟

لم يكن واصل قد دخل في نقاش ذي طبيعة جدلية قبل الآن مع عبيد. كانت تلك هي المرة الأولى التي يجادله فيها و يقف على رؤوس كلماته وقفة الفاحص المدقق الملاحق للمعنى و نصف المعنى.

فكر عبيد ملياً قبل أن يجيب، لم يكن قد اعتاد حواراً كهذا من قِبَل واصل، فقد كانت كلماته تخرج عادة دون تعريف أو دون حاجة لإعادة تحريرها مرة أخرى.

ـ الطبيعة هي القوانين التي تراها من حولك ناظمة لكل شيء، المظاهر الطبيعية، أو مجموعة الأشياء التي وُجِدَت كي تعطي الدنيا طبيعتها و قوانين ظهورها.

ـ إذاً هي القوانين التي تعطي القوانين.

ـ لا تكن مشاكساً، تعلم تماماً ما أقصد.

ـ أقسم أني لا أعلم، أنا أسألك فقط و أستفسر منك كي أصل لفكرك بشكل صحيح.

ـ واصل، لم تكن هكذا من قبل، ما يعنيك بفكري في هذا الشأن ؟ لطالما تقبلتني كما أنا، بفكري وطريقتي، لِمَ تصرّ الآن أن تجعل من هذا الأمر محوراً لحديثنا وعائقاً في طريق تواصلنا؟ لقد ابتعدت أنا عنه وفهمت خطأي في المرة السابقة التي حاولت فيها أن أقتحم خصوصية أفكارك، و ما كان ذلك إلا من فرط اهتمامي بك، لكنني بالغت وخنقت حرية فكرك و اتجاهاتك، ولذلك فقد تراجعت واعتذرت، لكنك الآن تخنق بطريقة ما حرية معتقدي، و أنا حرٌّ باعتقادي فلأعتقد ما يحلولي.

ـ أنا متقبلٌ تماماً لما أنت عليه و أنت تعلم ذلك، لكنني ربما .وهي المرة الأولى .أحاول متابعة ألفاظك، التعابير التي تستخدمها، لأول مرة أشعر بأنها ضبابية و عامة، لأول مرة ألمس اتساعها وعموميتها، و ما ذلك إلا لأنها لو خُصّصَت لكانت دليلاً عليك لا لك.. طبيعة.. قوانين.. مظاهر طبيعية.. صدفة.. اعتباط.. كل هذا عجيب، سأخبرك

بأمرين: الأول أنني مقدر لحرية فكرك و لا أنوي إطلاقاً الحدّ منها أو إعاقتها أو التهكّم عليها بأيّ صورة، و الثاني أنّ لي الحق بإخراج رأيي بشكل كامل و منطقيّ في هذا الموضوع الذي وقفت عنده كثيراً دون أن ألقي فيه ما عندي و الآن أشعر بأن لديّ مادة ما تجعلني أستطيع الخوض منطقياً فيما تدعي، ألا أملك الحق أيضاً بالتعبير؟

_ نعم لديك كل الحق، لكن لا حق لديك بالتهكم.

_ لست شخصاً متهكماً بطبعي، و لا كان التهكم يوماً سبيلي، خاصة في مناقشة أمر هو في غاية الجديّة بالنسبة لي، كهذا الأمر الذي نحن بصدده، و لذلك هل تسمح لي بإبداء وجهة نظري دون أن تغضب.

_ تفضل.

_ ما أريد قوله هو أن بعض المسميات التي تطلقها ما هي إلا تدوير للحقيقة، تقول الطبيعة، و القوة العظمى المنظمة للحياة، والقوانين المنطقية، وكلّ هذا كي لا تقول.. الله. تطلق كل هذه المسميات كي لا تقول الله لأنك غير معترف بوجوده. أنت كمن يرى منزلاً في وسط الصحراء مبنياً و منظماً فيقول: ما وُجِدَ هذا إلا مصادفة، و عندما يقال له بأن كلامه هذا منافٍ للمنطق، يقول عندئذ إن الطبيعة هي التي أوجدت هذا البناء، تدخل إلى المنزل فنجده مرتباً منظماً منسقاً، فنقول ما بُنِيَ هذا عبثاً و لا مصادفة، فيأتينا الردّ بأن القوانين الطبيعية هي التي نظمته، كي يوارب هذا الردّ عن الحقيقة الواضحة بأن يداً حكيمة بنته و نظمته و رتبته.

صمت عبيد من جديد وقد أصابه امتعاض مزعج جعل وجهه يبدو كقطعة صفيح معدنية ما من تعبير يحركها.

حاول واصل استدراك الأمر و الوصول إلى مراده دون أن يطيل أكثر من ذلك ويجعل اللقاء عرضة للتكدير و التوتر فقال:

_ ما رأيك لو ذهبنا أنا و أنت إلى العجوز في يوم ما ؟ عندما يصحو من رقاده، نذهب معاً و تتعرف به.

_ لا مانع لدي، و لكن إن ضايقني أو حاول تقييد أفكاري أو إحراجي بأية وسيلة، فأنت تعرفني، لن أرحم شيخوخته بل سأنقضّ عليه بكلماتي و أفترسه.

_ لن تجده إلاّ لبقاً لطيفاً، إن هو إلا عجوز رقيق يا رجل، يا لك من شرس.

حاول واصل سحب التوتر الذي أصاب صديقه بين هزل و ابتسام تارة، و قفز واختيار لمواضيع متعددة تارة أخرى.

كان الأمر المهمّ بالنسبة إليه قد تمّ، ألا و هو التدبير المبدئي للّقاء مع العجوز، ولم يكن من عائق يمنع الآن هذا اللقاء إلا انتظار تحسن صحة المريض الذي اشتدّ عليه المرض حتى أقصى الدرجات في تلك الليلة نفسها التي كان واصل يفاوض فيها عبيد على اللقاء.

٢٣.

لم تمنعه الرطوبة الصباحية القاسية من الخروج في تلك الساعة المبكرة، كان يريد الوصول في بداية الأمر هذه المرة، وهذا ما حدث فعلاً.

كان رابع الواصلين بعد الدكتور أمين واثنين من كبار السنّ. ألقى السلام ثمّ اختار أكثر الزوايا تطرفاً في الغرفة وجلس بانتظار الجميع.

بدأ الناس بالتوافد سريعاً، وما هي إلا بضع دقائق حتى امتلأت الصالة وابتدأت عملية زرع الكراسي البلاستيكية في الوسط.

لم تدخل زوجة أبي العطاء إلا بعد دخول النساء الآتيات مع رجالهن، وكنّ أربعاً في هذه المرة.

استقر الجميع فاستهلّ أبو العطاء الجلسة واستفتح بالتسمية والدعاء.

كان هادئاً بشوشاً تتسرب الكلمات منه كأنها معجونة بشخصه، لا يبدو كأنه ينطقها، لكنها تنتج عنه تلقائياً وتخرج من مكان عميق في داخله فتلمس المنصت إليها بنعومة كي تصيب عقله وتحرك وجدانه.

قلّما يجد الإنسان كلمات من الممكن لها أن تشبع النهم العقلي المتنامي لديه، وفي الوقت ذاته أن تكون لها القدرة على تشكيل غلالة تحيط بروحه وتدفئها خلال الجفاف الذي يفرضه العقل أحياناً على أي حوار عقلي يتناول الدلائل والإثباتات.

قلّما يُشبع النقيضان ليصبحا صديقين وحليفين، العقل والروح، أو المنطق والوجدان، أو أيّاً كانت تلك المسمّيات التي تدل على مدلولات وضعية، وضعها الإنسان كي تكون حداً فاصلاً وهمياً بين مشاعره وعقله، ثمّ أقام الحجة عليها وانقسم هو نفسه: كان تارة إنساناً عقلياً جلفاً يجرد نفسه من كل حيثيات العواطف والوجدان ولديه كل الدلائل على صحة منهجه، لكن منهجه هذا لا يشفي ولا يداوي بَرْدَ الروح، بل من الممكن له التحول إلى منهج جدلي ثم إلى سفسطة عقيمة تنتج علّية قوم تدعي الثقافة لا تكمن براعتها إلا بالجدل العقيم. وكان تارة أخرى

إنساناً عاطفياً لا يأخذ الأمور إلا بعواطف مشتعلة وغليان وجداني عميق يفقد كل مصداقية منطقية ويدمر كل منطق عقلي بحجة رمي كل الدلائل، والاستدلال فقط بنقاء الروح وصفاء الوجدان وعمق العاطفة، حتى يصل إلى المرحلة التي يُغرِق فيها ويغالي بل وفي أحيان كثيرة يناقض كل أصول المنطق والبديهيات المنطقية، بحجة عدم تقييد المنطق بالأساس إلا للإنسان الذي وضع هذا المنطق قيداً عليه بالدرجة الأولى، فيدخل صاحب هذا النهج في الخوارق ويصنع من البلبلات الفكرية المغطاة بمنطق العاطفة ما لا يستطيع المرء حصره، ثمّ يقع في براثن السطوة والسيطرة على عموم تفكير الغوغاء ويصبح من العسير ردّ رأيه أو رفضه سواء أكان هذا الرأي منطقياً أم غير منطقي.

أما أبو العطاء فقد كان بالنسبة لواصل يجمع الأمرين باتزان لطيف، يتناول الأسباب والمسببات والحجج العقلية والموجبات المنطقية ويوردها بطريقة فيها من دفء العاطفة أكثر مما فيها من عترسة الأسباب، وبتواضع صاحب الوجدان لا بعنجهية صاحب النظرية الصحيحة ذات البراهين غير القابلة للرفض.

كان أبو العطاء مزيجاً مريحاً من عقل ووجدان وهدوء وسلاسة، وهذا ما جعل كلماته تنزل في نفس واصل في موقعها الصحيح وتجد لها مكاناً في قلبه وحجة في عقله فتثبت وينقشع بها ضباب الماضي وعلامات استفهام الكثير من الأسئلة الحاضرة.

وقد بدا واصل بحدّ ذاته أكثر هدوءاً وثباتاً واتزاناً مما كان عليه عندما خالط أبا الحكم.

بدأ الشيخ جلسته في هذا الصباح بقراءة مستفيضة في كتاب يتحدث عن توثيق النصوص النقلية والبحث في سند كل منها وما يمكن أن يتأتى من درجة التوثيق من نتائج، وقد ناقش أبو العطاء عدة أقوال غير موثقة وعمّم نتائجها والمخاطر المتأتية عنها.

ثمّ انتقل إلى قراءة في كتاب ثان يتناول مواضيع فقهية تتراوح بين المذاهب، ثمّ مرّ سريعاً على كتابي النبوات اللذين قرأ فيهما بالأمس ووصل أخيراً إلى الموضوع العام المطروح من قبل أحد الحاضرين، والذي كان أحد كبار السن الموجودين.

كان الرجل في العقد السادس على ما يبدو، يرتدي مسوح الشيوخ.

له لحية بيضاء قصيرة لم تجد ما تتمسك به تحت الأنف، فقد كان حليق الشاربين تماماً.

صوته قويّ فيه بعض التظاهر بطريقة إلقائه، وقد أحسّ واصل من خلال أسلوب نطق الرجل لكلماته بأنه يحاول تقليد أبي العطاء بطريقة ما، وربما كان هذا واقعاً بالفعل.

كان يتكلم عن العقيدة، عن مفهومها و ضرورتها و الأصول الصحيحة الواجب إتباعها كي يستطيع المؤمن تنقية عقيدته مما يمكن أن يتخللها من شوائب، و قد أطنب في تعريف العقيدة بمعناها اللغوي، و إثبات أنها بمعناها التنفيذي أصل الإيمان الأول الذي لا يصح الإيمان إلا به، وضرب الكثير من الأمثلة لتقريب المفهوم لذهن الحضور وتثبيت الصورة في عقولهم.

كان واضحاً . بصرف النظر عن الطريقة المصطنعة في الإلقاء . أن الرجل عالمٌ لا يستهان بعلمه ولا بطريقة عرضه لموضوعه الذي كان راسخاً فيه محيطاً بجميع مناحيه وتفرعاته.

إلا أنه وبمجرد أن سكت و أنهى طرحه لموضوعه تنحنح الدكتور أمين و اعتدل في جلوسه ثم قال:

ـ جزى الله الشيخ أحمد كل الخير و الرضا، فلقد آنسنا بموضوع مهمّ للغاية بل هو أكثر الموضوعات أهمية في حياة الإنسان، أي أن يعي فحوى إيمانه، فعلاً.. بذرة الإيمان هي المرحلة الأولى من مراحل بناء أي إيمان و إن صَلُحَت هذه البذرة تَشكّلَ لدى الإنسان ميزان عفوي حساس يوجهه بالاتجاه الصحيح ويعيد توجهه حتى وإن ضلّ قليلاً.

سكت أمين للحظة ثمّ تنحنح من جديد بطريقة تنبئ بأنه لم ينته بعد و أنّ لديه ما يضيفه:

ـ و بما أننا نتكلم عن معنى الإيمان فمن الأهمية بمكان أن نتفق على تسميته بدايةً. الحقيقة.. أريد أن أضيف رأياً لا أنسبه لنفسي فقد قرأته في كتاب مهمّ خلال بحث كنت أقوم به يتناول الموضوع نفسه، وقد عدّلت بناءً عليه استخدام مصطلح العقيدة بعد أن تتبعت الرأي المدون بشأن هذا المصطلح، وبحثت في صحته وحاولت

نقض مضمونه فما استطعت، فأيقنت على الفور بأنه الرأي الصحيح والله أعلم.
يقول الكتاب إن مصطلح العقيدة هو مصطلح خاطئ و الأصلح هو أن نستبدله بمصطلح اليقين، اليقين هي الكلمة الحقيقية، إذ إن العقيدة كلمة جديدة محدثة لم تكن موجودة سابقاً في القرون الأولى لتأسيس بنية الدين ثم أحدثت بعد ذلك فناقضت معنى اليقين الذي كان موجوداً بالأصل، ومعنى العقيدة لغوياً هو الاعتقاد الذي رافقه تَقَبّل لفهم ما .. لمجرد الرغبة في تقبله أوعدم تقبله دون برهان حقيقي يجعل اليقين في القلب ثابتاً منيراً، و هو ما يمكن له أن ينتج في الإنسان التعصب الجلف و التزمّت الأعمى، أما اليقين فهو القناعة و القبول الكامل الذي يترافق مع البراهين المحسوسة و الأدلة العقلية و النقلية و النفسية و المادية كي ينتج نهايةً الإنسان المؤمن القادرعلى التعايش مع إيمانه من خلال يقينه الذي يصلح لكل مكان وزمان دونما تعصب أو انكماش.

جمع الشيخ أوراق موضوعه المبعثرة بين يديه بحركة عصبية قليلاً ثم انبرى ملتفتاً بكامله كي يردّ على ادعاءات الدكتور أمين بحدّة بدت واضحة للسامعين:

ـ ما هذا الذي تقوله يا دكتور، أنت الآن تدخل في أهمّ مباحث الدين، وتلقي فيها رأياً كهذا يناقض ما اصطلح على وجوده منذ قرون و تداولته كلمات العلماء وألسنتهم، ودوّنه حبر المخلصين و المفكرين مستخدمين الكلمة نفسها و معبرين باللفظ نفسه، وتريد الآن إلغاء كل هذا بكتاب قرأته لأحد المحدثين المبتدعين الصغار في هذا، أرجوك يا دكتور، أرجوك!! أنت رجل طبّ و لك قراءات و أبحاث في مجالنا ولكن، أرجو أن نترك لكل امرء اختصاصه.

ابتسم الدكتور أمين بهدوء ولم ينظر باتجاه الرجل على الإطلاق لكنه أطلق نظره ليتتبع بلاط الغرفة القديم بينما تحرك لسانه بالرد من خلال ابتسامته:

ـ يا شيخنا، أنا لم ألقِ هذا الرأي إلا بعد تأكدي من وجوده، أما المجال الذي تقول بأنه ليس من اختصاصي فأنا لا أدعي فيه اختصاصاً، لكنني أقول قرأت و بحثت واعتنقت الرأي بعد ثبوت الدليل الذي منحني يقيني. و أخيراً هناك قاعدة ذهبية في هذا الموضوع تقول: إن كنت ناقلاً فالصحة أو مدعياً فالدليل، لقد قدمت دليلي وأخبرتك بأني ما وجدت أي استخدام لكلمة عقيدة في أيّ نصّ من النصوص القرآنية

أو الأحاديث النبوية أو في الفترة التي تلت ذلك مباشرة وعلى لسان رجالها، فأثبت أنت العكس وسأعتذر عن خطئي وأعود إلى استخدام مصطلح العقيدة بكل صدر رحب وإلا فإن مصطلح اليقين بالنسبة لي هو الصحيح.

غضب الشيخ واحمرّ وجهه لكنه لم يقدم أي دليل مفحم بل قال بعد أن فكر لبرهة:

ـ ما هذا الكلام ؟ !! أنت غريب، والله إنك غريب، تأتي بأمر.. ما اصطلحنا عليه ولا قلناه، وتناقض كل علمنا ومصطلحاتنا التي رُبّينا عليها، ووجدنا آباءنا ومعلمينا الأكارم يعانون الأمرّين كي يعلموها لنا ولكل الأجيال، لتغيّر الآن وبعد هذا العمر كل هذا! أين الرجال الذين قضوا حياتهم في هذا المجال وأين الكتب التي أُلّفت وأين وأين ؟ لله درُّ صغار السن الذين دخلوا في غير مجالهم فدمروا فيه ما دمروا ؟

اتسعت ابتسامة الدكتور أمين أكثر وأكثر وقال:

ـ ﴿ إنهم ألفوا آباءهم ضالين * فهم على آثارهم يهرعون﴾.

استُفزّ الشيخ وتهدجت أنفاسه عندما سمع الجملة الأخير فلم يجد أبو العطاء بدّاً من التدخل لوقف تضخم الأمور فقال:

ـ لكلٍّ منّا رأي واجتهاد، وقد أوضح كل وجهته واعتقاده ودليله، دعونا لا نختلف على المسميات بما أننا اتفقنا على المعنى. الشيخ أحمد شيخ قدير وله باع طويل في البحوث والتأليف قد تتلمذ على يد خيرة العلماء. وهو غير مشكوك بعلمه أو بمصداقيته لا سمح الله، لكن الأمر هنا اختلاف بدليل ولنا أن نقبله إن أقنعنا الدليل أو أن نرده إن وجدناه دليلاً واهياً، أرجو أن نهدأ ونأخذ الأمور دائماً بالرأي والدليل والحكمة.

بقي الدكتور أمين هادئاً وعلى وجهه الابتسامة نفسها ولم ينطق بحرف بعد ذلك أما الشيخ أحمد فكانت تبدو على وجهه ملامح كبريائه، وبالرغم من صمته المقصود الذي أعلنه حتى نهاية الجلسة إلا أن احمراراً غاضباً ظلّ مخيماً فوق قسماته ورافقه إلى أن غادر الغرفة.

وكان من حسن الحظ أن موضوع الشيخ أحمد هو الخاتمة الطبيعية للجلسة التي فُضّت بشكل آلي بعد بضع دقائق من انتهاء الجدال.

كان الشيخ أحمد هو أول المغادرين، لملم نفسه وعباءته وأوراقه وخرج على الفور، بعد سلام عام ألقاه سريعاً دون أن ينظر إلى أحد.

غادر البقية تباعاً وكان آخرهم الدكتور أمين الذي تأخر قليلاً وبقي منتظراً حتى فرغت الغرفة إلا من أبي العطاء وواصل.

عند ذلك تكلم أمين متوجهاً إلى أبي العطاء وكأن واصل غير موجود:

_ أودّ الاعتذار، أنت تعلم أني ما كنت أريد إلا خيراً، لكنه مصرّ على المصطلح دون دليل، فكان لابدّ لي أن أطلق الآية التي جعلته يرتجف.

_ أنا أعلم بأنك محق، لكنه يبقى شيخاً متقدماً في العمر، لن يغير قناعته أو يتنازل عنها بتلك السهولة التي من الممكن لك أنت أن تقوم بها، أنت متحكم بنفسك يا أمين، تفكر وتسيطر وتخضع كل أفكارك لحساب ومساءلة وأدلة ومنطق، وهذا هو الأصل، بل هذه هي الغاية، كي لا تشوب فكرك الشوائب وتتعبدّ بالغثّ والسمين مختلطاً، لكن الشيخ أحمد قضى عمره في خدمة معتقده، لا نستطيع الآن تغيير مصطلحاته بهذه السهولة.

_ لكننا لسنا وحدنا يا شيخي، لم أكن أريد الانتصار لرأيي في هذا الأمر، بل أردت لكلّ السامعين أن يعوا الفرق بين المصطلحين وهذا فرض عليّ الإتيان به وإلا كنت في نظر نفسي ساكتاً عن حقّ واضح، بإمكاني التعبير عنه، صدقني لم أتكلم لنفسي وإنما للجالسين.

_ أنا أصدقك في ذلك، ولكنك، انتصرت لنفسك عندما رددت هجومه بآية تقليد الآباء، وهذا اتهام من الممكن له أن يكون غاية في الإيلام بالنسبة لشيخ مثله، كان الأولى أن تلقي برأيك وتمسك نفسك عن الانسياق في جدال لن يجلب من النفع شيئا، ألق رأيك ودليلك كي ينتفع الناس، واترك الجدال، حتى وإن أُغربتَ بالردّ المفحم المسكت الذي سيلجم خصمك. أَعْرِضْ عن ردٍّ كهذا إن كان فيه انتصار لنفسك، اتركه بدافع التقوى لعلّ الله يجري الحق على يديك أو لعلّ الله يبقي الأمر كما هو لحكمة أخرى هو أعلم بها، وبأيّ حال فقد نطقت بالحقّ ووضحت وجهة نظرك وهذا هو القصد.

_ معك حق، لقد انتصرت لنفسي بالآية التي رددت بها، لكنها كانت دواء شافياً

للشيخ أليس كذلك ؟

ضحك أمين بعد أن قال جملته الأخيرة بغمزة ماكرة من عينه، فلم يجد أبو العطاء بدّاً من إطلاق ضحكة قصيرة أتبعها واصل بابتسامة.

ـ اتصل به اليوم يا أمين، و اعتذر منه، فهذا أولى لتقواك.

ـ سأفعل إن شاء الله، و لكن.... أجبني بتقواك أيضاً، ألا توافقني الرأي بموضوع اليقين و العقيدة ؟

ضحك أبو العطاء من جديد و هزّ رأسه بالإيجاب، فنهض الدكتور أمين مبتسماً و قال:

ـ هذا هو الأهم، السلام عليكم.

خرج سريعاً و بقي واصل والشيخ وحدهما من جديد.

كان واصل مستغرباً بعض الشيء. المثالية التي عاينها في اليوم الأول تبددت اليوم، لم يتوقع أن يرى في هذا المكان موقفاً مشابهاً لما حدث، أو شخصية متصلبة كشخصية الشيخ أحمد، أو رجلاً حاد الطباع كالدكتور أمين الذي وافقه واصل على المبدأ إلا أنه لم يرض تماماً عن الطريقة.

ـ ما رأيك بما حدث اليوم ؟

سأل أبو العطاء.

ـ بصراحة، كانت ردود الأفعال مفاجئة بعض الشيء.

ـ لا وجود للمكان المثالي الذي لا شوائب فيه على وجه الأرض، كل اجتماع بشري معرّض لمواقف كهذه، خاصة الاجتماعات ذات الطروحات الفكرية المتعددة.

ـ لكن الدكتور أمين كان محقاً في وجهة نظره.. أليس كذلك؟

ـ نعم. الحق أن وجهة نظره هي الصحيحة كما أرى، لكنني لا أوافق إطلاقاً أن تكون طريقة الطرح بهذه القسوة، خاصة إن كان الخصم رجلاً كالشيخ أحمد، رجلاً قضى عمره في التعاطي بمفهوم يحمل تسمية معينة، ليس من اللائق أن نقسو عليه و لا من اليسير أن نجبره على تغيير مفهومه و تعاريفه علناً بهذه الطريقة، سيعتبر الموضوع إهانة شخصية و لن يقبل به حتى و إن اقتنع عميقاً في داخله، ستمنعه عزّة نفسه و اعتزازه بعلمه. الهجوم العلنيّ على المعتقدات الفكرية هو الأقسى على الإطلاق، إذ

تلتصق المعتقدات بالمرء حتى تصبح جزءاً من شخصيته، خاصة المعتقدات والأعراف الدينية. من الخطأ محاولة تغييرها بضربة واحدة قاسية وعلنية، وبالأخصّ لدى كبار السن.

هزّ واصل رأسه موافقاً ثمّ قال بعد لحظات من صمت:

ـ اليقين هو الكلمة الصحيحة إذاً ؟ هو التعبير الفعلي عن الإيمان القلبي؟

ـ نعم والله تعالى أعلم، ودلائل الوحي كثيرة. ذلك اليقين هو الإيمان الحقيقي الذي يملأ الفؤاد ويشمله وما من سبيل لتبديل ذلك، فالوصول لمرحلة اليقين لا رجعة منها. إذ لا يمكن الوصول إليها إلاّ بهدي من الله أولاً ثمّ سعيّ حثيث وحقيقي نحو هذا الهدي الأعظم ومحاولة متكاملة لاكتشاف الطريق الصحيح، يرافق كل ذلك إطلاق كامل للنفس المتواضعة المستعدة لتغيير كل ما عارض الهدي الرباني الموافق للمنطق السليم والفطرة الصحيحة. لعمري هي مرحلة يدعيها الكثير وما وصل إليها فعلاً إلاّ القليل.

ـ هل من الممكن أن يأتي هذا اليقين للإنسان بمعجزة من الله ؟

ـ نعم، هذا وارد جداً.

ـ وهل من الممكن أن تكون تلك المعجزة رؤية العبد لله تعالى؟

ـ أراك قد عدت للسؤال نفسه الذي أتيتني به من قبل؟

ـ وهل من جواب شاف لديك؟

ـ اليقين يدخل القلب سواء بمعجزة أم بغيرها ولكن إن كنت تسألني سؤالاً مباشراً عن رؤية الله تعالى في الدنيا فجوابي هو لا والله أعلم. لا يمكن رؤية الله عز وجل في الحياة الدنيا ولدي الأدلة والإثبات من آيات الوحي الأعظم التي أقنعتني بذلك. فكرة الإيمان يا بنيّ مبنية على الغيب، أن تؤمن بما هو غائب عن بصرك وحاضر في بصيرتك، هذا هو الإيمان الغيبيّ الذي وُجِدَ منذ بداية وجود البشرية فوق هذه الأرض وحتى الآن، وإلاّ فأين الإيمان عند وجود الرؤية؟ الامتحان الحقيقي هو الاستدلال على وجوب وجوده تعالى ومتابعة أوامره وما يريده منا دون معجزة الرؤية. وما أرسل الله إلينا الأنبياء والرسل إلا لهذا الغرض، غرض الدلالة وتبيان الأوامر وجلاء الغموض وبيان الحقيقة، كي لا نبقى في ظلام وعشوائية ونظريات وفرضيات

تقترب من الحقيقة تارة وتبتعد عنها أطواراً.

قاطع واصل أبا العطاء على غير عادته وقال مستعجلاً النتيجة:

ـ إذاً لا وجود للرؤية إطلاقاً؟

ـ اصبر يا بني. أنا لم أنفِ لك الرؤية بمطلقها.. لقد تكلمت عن الرؤية الدنيوية فقط. حاول أن تركز معي قليلاً، سأبسط لك الموضوع قدر الإمكان بما يتناسب مع وقتنا الآن وتدرجك في العلم وحاجتك للإجابة السريعة.. نستطيع تصنيف الرؤية التي تسألني عنها إلى رؤية دنيوية ورؤية أخروية... الدنيوية تقسم بدورها إلى قسمين: الرؤية قبل الإيمان والرؤية بعد الإيمان، فأمّا الرؤية قبل الإيمان أو طلب الرؤية بداعي الإيمان فهو الكفر الصريح والعياذ بالله وذلك لأنّ الإيمان كما قلت لك سابقاً مبنيّ على الغيب وعلى رؤية آيات الله ومعجزاته والقناعة واليقين بوجوب وجوده وقطعية عبادته دون رؤيته، إذ لا يجوز إطلاقاً ربط الإيمان بالرؤية كدليل. ولما سُئِلَ النبيّ عليه الصلاة والسلام عن الإحسان الذي هو أعلى مراتب الإيمان قال: (أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك)، الإجابة واضحة ورائعة .. أن تعبد الله كأنك تراه. وأما الرؤية بعد الإيمان فهذا أمر آخر له تفصيلات وفيه آراء وتشعبات لا طاقة لك بها الآن، فأمّا رأيي النهائي بهذا فهو النفي القطعيّ، لا رؤية لله تعالى في الدنيا والله أعلم.

ـ وهل هناك أي دليل أستطيع معرفته الآن يفيد نفي الرؤية الدنيوية بفرعيها؟ إن لم يكن في هذا إرهاق لك.

ـ ليس في هذا إرهاق لي ولكن فيه إرهاقاً لك، فأنت تسأل عن أكثر الأمور الإيمانية التي تحتاج علماً ودقة وشرحاً وتفصيلاً، ولذلك فقد تجد صعوبة فيما أقول وهذا طبيعيّ، لكنني كما أخبرتك سابقاً، سأبسط لك شرح الأدلة قدر الاستطاعة حتى يأتي الأوان المناسب لدراستها بشكل أكثر دقة وأكثر تفصيلاً مع الإحاطة بكل أدلة الأطراف الأخرى التي لديها أيضاً ما لديها من الأدلة التي من الممكن لها أن تكون مقنعة.

أطرق أبو العطاء مفكراً لثوان قليلة ثمّ استأنف كلامه من جديد:

ـ سأعطيك دليلاً واحداً الآن على ما قلت، دليلاً واضحاً وصريحاً، ألا وهو قصة النبي موسى عليه السلام عندما طلب من الله الرؤية بعد أن آمن به ووقر اليقين في

قلبه:

﴿ ولما جاء موسى لميقاتنا وكلّمه ربه قال رب أرني أنظر إليك* قال لن تراني ولكن أنظر إلى الجبل فإن استقرّ مكانه فسوف تراني﴾ . لقد حدد الله تعالى عدم إمكانية الرؤية عندما قال : (لن تراني)، ثمّ ربط الرؤية في الجملة التالية ببقاء الجبل ثابتاً لتجلّيه عزّ و جلّ على الجبل مع ثبوت علم الله بما سيحدث للجبل، فالله عزوجل يعلم أن الجبل لن يبقى ثابتاً بل سيصبح دكّاً مساوياً للتراب، لكنه ربط الرؤية به ربما تلطفاً بنبيه وربما إيضاحاً له عليه السلام أن لا قدرة أرضيه لديه على احتمال تجلّي الله له فقط فما بالك بكشف الحجاب عنه عزّ وجلّ، وقد سقط النبيّ مغشياً عليه لهول الموقف وعندما أفاق سبّح الله تعظيماً له وتاب من أمر ما فعله تشكيكاً ولكن شوقاً وتوقاً إليه تعالى ﴿فلما تجلّى ربه للجبل جعله دكّاً وخَرّ موسى صعقاً فلمّا أفاق قال سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين﴾ .

سكت الرجل قليلاً كي يفحص آثار كلماته في عيني الشاب ويتأكد من حصول الفهم لديه.

عند هذا الحدّ كان واصل بحاجة لاستعادة ما قيل وتخزينه في عقله ببطء، لكنه لم يكن ليترك الأمر إلا بعد أن يشمله بإجابة كاملة يحبسها في عقله ثمّ يجترها بعد ذلك من جديد عند انتهاء كل الاستفسارات، ولذلك فقد تابع إلقاء أسئلته كي يصل إلى مبتغاه سريعاً.

_ ما هي الرؤية الأخروية إذاً ؟

_ الرؤية الأخروية هي المفازة العظيمة التي يفوز بها العباد المتقون أصحاب المقام العالي والمرتبة الرفيعة برؤية نور وجهه الكريم بعد أن يكشف عنهم الحجاب وهذا لعمري هو الفوز العظيم.. يناله إما عموم أهل الجنة أو صفوة الصفوة منهم فقط، وفي هذا اختلاف بين العلماء، فمنهم من أثبت الموضوع ومنهم من أنكره ومنهم من قال الرؤية عامة لكل أهل الجنة ومنهم من قال هي خاصة لصفوة أهل الجنة.

_ وماذا تقول أنت يا سيدي ؟

_ أنا أقول بأنّ الرؤية حقّ ولعامة أهل الجنة ولديّ أدلتي على ذلك، ولكن بإمكاننا تدارسها في أيام قادمة، إذ ينبغي البحث فيها بهدوء وتدرج والخوض أكثر في شرحها

كما أسلفت.

ـ إذاً لا رؤية دنيوية على الإطلاق والرؤية فقط أخروية لكلّ من دخل الجنّة.

ـ هذا رأيي ورأي العديد من المعلمين الذين تتلمذت على أيديهم، ولكن.. يبقى في الأمر اختلاف بين عدة أطراف، لكلّ منهم رأي وأدلة وللإنسان حرية الاختيار.

ـ أرجو أن تغفرلي أسئلتي وإلحاحي ولكن لدي سؤال أخير.

ـ هات ما عندك.

ـ إن صرّح إنسان ما أنّ أمنيته هي رؤية الله تعالى، ما يكون هذا المرء؟ أهو كافر أم منكر أم ماذا؟

ـ وهل قال في الدنيا أم في الآخرة ؟

ـ يقول أريد رؤية الله، أمنيتي هي أن أرى الله، هو لا يبدو أبداً أنه جاهل أو مضطرب، بل على العكس يبدو عارفاً تماماً بما يقول، خاصة في ظلّ عمره المتقدم و حكمته الظاهرة في تحليل الأمور.

ـ لن أستطيع إجابتك بشكل منطقيّ لأنني لا أعرف الرجل ولا سلوكه، ولا عقائده الكامنة في صدره، ولكن إن أحسنّا الظنّ به فلربما إن كان مؤمناً موقناً بوجود الله فهو يقصد شوقاً إلى الله و توقاً إليه، أو إن كان حكيماً ضليعاً بتأويل المعاني فلعلّه يقصد دخول الجنة و الفوز بالسعادة الأبدية أو غير ذلك من المعاني الخفية غير المباشرة التي لا يمكن فهمها إلا بكشف مباشر منه.

صمت واصل و ذهب بفكره محاولاً تصنيف معتقد العجوز واتجاهه، فقاطع أبو العطاء شروده وقال:

ـ شيخ جليل من العلماء الكبار الذين تتلمذت على أيديهم له أبحاث طوال في هذه الأمور، كان ليشفيك ويشفي أسئلتك على اختلافها لو كان حاضراً الآن.

ـ هل توفي ؟

ـ لا أبداً، أمدّ الله في عمره، لكنه في خلوة، يخلو فيها إلى نفسه ويصفو مع تأملاته ويتوجه إلى الله وحيداً دون تعاط مع أهل الدنيا.

ـ وما من سبيل للوصول إليه؟

ـ أبداً، لا أحد يعرف مكان خلوته و إلا لكنت وجدت الناس يقفون صفوفاً

بانتظاره، لربما كان في بلد آخر أو لعلّه في غرفة ما في منزله، من يدري ؟ لقد ترك كل شيء و اختفى تاركاً الساحة لكل تلامذته و زملائه، ساعياً للنجاة بنفسه، و بوحدته وصفاء عبادته.

ـ و من هو الشيخ ؟

ـ الشيخ تقي الدين.. أبو الورود، عالم جليل مهيب و نسمة رقيقة من نسمات الإنسانية الرحيمة. ما تسألني عنه له باع طويل فيه. و صولات و جولات. فضل هذا الرجل عليّ لا ينسى، لقد علمني و فتح لي طرقات العلم و دروب الحياة للوصول إلى فسحة الهدى الرحبة.

ـ ألا يمكنني زيارته في منزله ؟ ألن يخبروه بأنّي أريد رؤيته ؟

ـ لك أن تحاول، ولكن كلّ من يعيش في منزله سيخفي عنك مكانه بوصية منه هو شخصياً، لن يجرؤوا على مخالفته أبداً.

اكتفى واصل عند هذا الحد و آثر الانسحاب، فترك أبا العطاء وتوجه مباشرة نحو المشفى لرؤية العجوز الذي لم يكن في هذا اليوم أفضل حالاً مما كان عليه في المرة الماضية بل لعلّه كان أكثر تعباً و أشد ذبولاً، و قد لاحظ الشاب آثاراً جلية لتفاقم المرض في جسده.

كان المشهد مؤلماً لدرجة عدم قدرة واصل على الاستمرار بتحديقه، فوقف للحظات و هو متيقن هذه المرة أن العجوز غائب عن الوعي تماماً و أنه لن يستطيع سماع أي شيء.

.٢٤.

لم يكن منزل أبي العطاء إلا منظومة جديدة غرق واصل في طياتها من جديد، لكنها لم تكن لتشبه بحال من الأحوال منظومة أبي الحكم بل لعلها كانت النقيض الفعلي لما وجده لدى هذا الأخير من قيد وضبط مخلّ بحرية الاتجاه و المعتقد، و تقويض حقيقي للتعبير الحرّ عن الذات، وأخيراً ذوبان مطلق في طريقة الشيخ و تمسك مضطرب بأهداب فكره سواء أكان فكره هذا صواباً أم أنه مجرد تعاليم سطحية وتكرار مقنّع بزيّ الفصاحة لأفكار و أقوال ما أنزل الله بها من سلطان.

كان الوضع هنا مختلفاً، ساحة أسئلة متاحة، تابعة لحرية الاتجاه و التعدد أو التنوع الفكري، ومضبوطة بلباقة التعبير و طريقة الإلقاء.

كان متاحاً لواصل أن يلقي أيّ استفسار أو سؤال أو اتجاه مختلف مغاير لاتجاهات أبي العطاء أو صحبه دون تردد أو ارتباك، و كان يتلقى بالمقابل الإجابات الشافية الحرة غير الملزمة، أو المقيدة بالأفكار السائدة، بل المحرِّرة تماماً لساحات الفكر لديه و المطلقة للأدلة والإثباتات الخاصة بأيّ موضوع يتم التيقن منه بشكل نهائي و سويّ، دون إرهاصات التكهن و ألعاب الخفة و الفراسة و الحصافة التي أربكت واصل عندما واجهته لدى أبي الحكم و جماعته، فما كان ليستطيع مواجهتها و صدّها، و ما كانت لتجد قبولاً و استساغة عقلية أو حتى قلبية لديه.

كان اللقاء اليومي الجماعي غنياً و ملوناً بألوان اختلاف الأجيال والمواضيع المطروحة، مزيجاً ما بين الماضي بكتبه الثرية و الحاضر بأفكاره المعاصرة، و ما كانت النقاشات العامة إلا تدريباً مبدئياً حقيقياً لواصل كي يعي أهمية التدرج في إيراد الأسباب و المسببات و الأدلة وحفظ هذه الأدلة بحرفيتها كي يكون النقاش مجدياً والتأثير الناتج عنه أجدى و أكبر.

أما الأمر الأكثر أهمية بالنسبة إليه فهو اجتماعه الخاص مع أبي العطاء بعد خروج الجميع، تلك الجلسة المغلقة الذي جمعته مع رجل عالم بالأسئلة و الردود، مطّلع

على ضيق النفوس بمتاهات الفِكرَ وضيق العقول بترهات المنطق الموروث الذي لا حجّة له إلاّ التقليد الأعمى.

طريقته الهادئة و ابتسامته المشرقة و عدم إصراره على إلزام الشاب بأيّ من آرائه ومعتقداته التي يلقيها إضافة لدقة عباراته المزينة بدفء الاستيعاب، و المذيلة بإشفاق العالم الحقيقي الذي لا يعرف النزق أمام طالب العلم التائه بين دوامات الاتجاهات، كلّ هذا و أشياء أخرى كثيرة جعلت واصل يجلّه ويركن إليه ويعي تماماً أنه لن يفارق درسه اليومي، على الأقل خلال الوقت الراهن من حياته.

جلسة الفجر العامة تلها الجلسة الخاصة التي تطول أحياناً دون أن يشعر واصل بذلك ما بين سؤال و استفسار، أو نقاش يهدف إلى كشف الغموض و إيضاح الرؤية.. تلك الرؤية التي لم تكن هدفاً من أهداف واصل في يوم من الأيام.. تلك الرؤية التي تبدأ ناصعة عند الولادة ثم تأخذ سحابات الاتجاهات و الأعراف و المجتمعات و البيئة المحيطة بالتراكم في سمائها الصافية، حتى تصبح سماءً ضبابية عكرة، ويمسي ذلك الضباب شيئاً فشيئاً جزءاً من الحياة بل ويجعلنا أحياناً لا نستطيع استساغة أية حقيقة، مهما كانت بساطتها وبداهتها بعد أن اعتدنا على وجوده و ابتعدنا عن بذل أي مجهود صغيراً كان أم كبيراً لإجلائه.

بالنسبة لواصل كل هذا كان في عداد الماضي الآن.

كانت المدة التي تحوّل فيها الشاب من غموض الرؤية إلى وضوحها بسيطة وقياسية. لكننا نعود لنقول من جديد إن الانقلابات الروحية لا تتطلب زمناً طويلاً بل ربما هي لا تتطلب زمناً على الإطلاق.

التطورات الروحية هي التي تحتاج زمناً وجهداً وبذلاً لاعتلاء سلم التطور والترقي، أما لحظة الانقلاب فمن الممكن لها أن تكون ومضة، شرارة تلتمع في أفق خفيّ أمام أرواحنا الغارقة في الغموض، شرارة كفيلة بقلب المفاهيم و تحضير الروح للارتقاء الواضح و تجهيز العقل للتقبل و التطور.

ما حدث لواصل كان انقلاباً روحياً مفاجئاً و اعتلاء لأولى درجات التطور النفسي و الفكري، ذلك التطور الذي يحتاج وقتاً طويلاً بل ربما من الممكن لنا أن نقول إن تطوراً كهذا قد لا يتوقف طوال الحياة طالما أبقى الإنسان نفسه متدرجاً على سلم

الاعتلاء الروحي الذي لا ينتهي.

لن نطيل أكثر من ذلك، ولكن بقي لنا أن نذكر أن نصاعة تلك الفترة في حياة واصل لم يكن ليعكرها أي شيء إلا أمر واحد فقط.

ولم يكن هذا الأمر هو التهديد المتكرر الموجّه من مدراء شركة الحياة، ولا استنكار محيط الشاب لاتجاهاته الجديدة الغريبة، ولا كثرة الكتب التي بدأت تشكل تحديات وتيارات في فكره، ولا كثير من الأشياء والأحداث الأخرى، وإنما.. كان فقط هو العجوز المريض الذي يعرّج عليه يومياً ويجده أسوأ حالاً من ذي قبل.

كان يرغب بإطلاعه على مجريات الأمور، يومياته لدى أبي العطاء، الأفكار الجديدة والكتب التي يقرأها، الأمنية التي يبحث في إمكانياتها ويحاول فك شيفرة رمزيتها.

كان يشعر بامتنان خفيّ تجاه المريض، امتنان لا يعرف ماهيته.

لقد شعر فعلياً بأنه كان محبوساً في زنزانة ما.. مكانية أوزمانية، دون أن يعي ذلك، بل لعلّ كل سكان الزنزانة لا يدركون أنهم ضمن القفص، بل يظنّ الفرد منهم أن زنزانته هي الدنيا بأسرها، ولكن عندما يحدث ما هو غير متوقع ويجد المرء نفسه خارج هذه الزنزانة العجيبة يدرك تماماً أنّه كان سجيناً وقد أُخلي سبيله الآن.. ولم يكن هذا ليصيب حياة الشاب لولا العجوز الغائب عن وعيه إلى أجل لا يعلمه إلا الله، الله الذي هو أصل الأمنية، بل أصل الأماني كلها.

.٢٥.

لم يكن المنزل المقصود هذه المرة بعيداً بل كان في حي مجاور لا يبتعد عن منزل واصل أكثر من بضع دقائق.

توجه إليه بعد أن لجأ إلى مصدره المعتاد لمعرفة العنوان والتفاصيل.

أخبره شامل بعنوان الشيخ تقي الدين بعد أن فوجئ بطلبه لهذا الرجل الذي انسحب منذ فترة من عالم العوام و التفت إلى خاصة نفسه، و قد أخبره أيضاً أن الشيخ ذو سمعة عريضة و صاحب منهج، و أنه من الرجال الذين تُشدّ إليهم الرحال من بلاد كثيرة للنهل من علمه، و أكّد شامل لصديقه أيضاً أنّ الشيخ في خلوته الآن ولن يستطيع شاب يطلب العلم حديثاً اللقاء به، بل ربما لن يستطيع حتى كبار رجال العلم فعل ذلك.

لكن واصل قد أصرّ على التوجه لطلب لقاء الشيخ.

لم يكن في هذه الفترة ليتوانى عن التوجه إلى أية جهة لملاحقة ما يريد، خاصة في ظلّ تدهور صحة العجوز بشكل لا ينبئ بتحسن أو ببوادر شفاء و إنما هو بالتأكيد نزع أخير و مرحلة ختامية من مراحل حياته كما ظنّ واصل.

لقد أصبح الأمر واجباً معنوياً لا يحتمل التأجيل، واجباً محتوماً وجده واصل ملقى في حقيبة مسؤوليته.

لم يكن يطارد الأمنية بمعناها الحرفي، لم يكن يبحث في الوقت ذاته عن تفسير لغوي مغاير، إنما كان يسير في طريق لا يعرف نهايته، وكأنها يدٌ تسلمه ليدٍ أخرى.

مع شعوره المتفاقم بنفاد الوقت فيما يتعلق بحياة العجوز. في حين لم يكن من الممكن فعل أي شيء لهذا المريض الواقف في بوابات مغادري الحياة الدنيا. لم يكن هناك المزيد من الخطوات التي من الممكن له أن يقوم بها من وجهة نظره.

لم يكن هناك. بجانب ملازمة أبي العطاء. إلا زيارة الشيخ تقي الدين.

كان البناء من نمط الأبنية نفسها في تلك الأحياء، أحياء الطبقة المتوسطة، كان

مشابهاً بشكل ما لمنزل واصل وحتى المدخل وتوزيع الأبواب في كل طابق.

لم يكن متوتراً هذه المرة، ربما بسبب تماثل البيئة مع بيئته، وربما لأسباب أخرى حتى هو نفسه لن يستطيع اكتشافها.

صعد الدرج بهدوء و سكينة دون أن يفكر كعادته بصياغة الكلمات. وصل إلى الطابق الثالث.

وجد الباب المنشود مدوناً عليه اسم الشيخ بخط اليد، ورق مقوى قديم خطّطت الحروف فوقه ببساطة وإتقان وفي الوقت ذاته بلا احتراف.

نقر الباب و انتظر عدّة دقائق قبل أن يُفتح لتظهر من خلفه فتاة أعادت عيناها التوتر لأعصابه على الفور، و جعلت طيفاً من احمرار مفاجئ يتماهى مع بشرته حتى لا يكاد يفارقها.

لم يتوقع أن يرى أنثى قبالته في تلك اللحظة، برمجة خفيّة قد امتدت أصابعها لتعبث بتوقعاته ولتجعله دوماً يتوقع ذكراً في مواقف كهذه لا أنثى.

أما عيناها فقد كان لهما من السحر ما يصعب وصفه. بريق أخّاذ يكاد ينفذ من خلال الناظر إليهما، بريق يتلألأ ما بين أهداب سوداء لم تطلها يد الغنج وإنما مسحتها كفّ الشفافية الذكية وكحلتها أصابع الرحمن.

لن نصف بقية الوجه لأنه كان عادياً بسيطاً كأي وجه، ذا بياض فطري وبشرة لم ترهقها مساحيق التجميل بعد، فبقيت على نضارتها واحتفظت لنفسها بشحوب ما يضيع المرء في إيحاءاته المتنوعة ما بين الحزن والتوقد اللماح وما بين قوة الشخصية والرقة الصامتة.

لم يدرك واصل كل هذه التفاصيل دفعة واحدة، لكنه ارتبك وخرجت كلماته على استحياء.

_ السلام عليكم، هل بإمكاني مقابلة الشيخ تقي الدين؟

_ أنا آسفة، الشيخ لا يقابل أحداً هذه الأيام، فهو في خلوة قد يطول أمدها.

_ أرجوك، أنا لا أريد إزعاجه، أو قطع خلوته، لكن لي حاجة وضرورة كي أراه.

ابتسمت الفتاة منعاً لجلافة الرفض وقالت:

_ أعتذر منك مرة أخرى، الشيخ لن يقابل أحداً حتى يعطينا هو الإذن بذلك.

ـ هل من الممكن أن تسأليه ؟ إن لم يكن بالإمكان الآن سأعود غداً، أرجوك، سأعود غداً في الوقت نفسه، فلتسأليه. من الممكن أن يسمح بذلك، الأمر مهم بالنسبة لي، أنا آسف، لا أريد أن أكون ملحاحاً مزعجاً ولكن اسأليه فقط.. فلعلّه يوافق.

تجهّم وجه الفتاة قليلاً وتنهدت بعمق ثمّ قالت:

ـ لا أعرف ماذا أقول لك، ولكن حسناً، فليكن.. سأحاول.

ـ شكراً جزيلاً، السلام عليكم.

نزل واصل مسرعاً ومستهجناً ما لم يعهده في نفسه.. الإلحاح والإحراج.

شعر أنه أشبه بمندوب مبيعات لزج يريد فرض سلعته على صاحب المنزل بالإكراه، لكنه لم يجد بدّاً من ذلك، بل كان تصرفه تلقائياً فورياً ولم يشعر بالندم حياله.

توجه إلى المشفى مباشرة، ودخل الغرفة دون حتى أن يقرع الباب. لم يتوقع أن يجد المريض في صحوة وقد أُزيلت عنه كل الأجهزة التي كانت موصولة به.

فوجئ الشاب عندما وجد العجوز ينظر إليه ويبتسم وقد رفع حاجبيه معلناً عن دهشة من دخوله بهذا الشكل.

ـ أنا آسف لم أتوقع أن تكون.. صاحياً !

ـ يا لهذه التوقعات.

ـ الحمد لله على سلامتك، أراك بأفضل حال.

هزّ العجوز رأسه ورفع كفيه بوضعية الدعاء إلى السماء وكأنّه يشكر الله ثم قال:

ـ في جانب المحن توجد المنح.

كان يبدو وكأن المرض قد غادره تماماً، وجهه يغرق في وهج الشمس وقد بدأت عروق الاحمرار الموحية بالحيوية المستعادة تنتشر في وجنتيه.

شعر واصل بطمأنينة تمتد وتنتشر لتستقر في صدره، طمأنينة لم يكن من الممكن له السيطرة عليها أو اكتشاف كنهها، لكنها أفرزت شعوراً داخلياً يشبه شعور من كان يعدو متأخراً ليلحق المحطة، فوجد قطاره مازال منتظراً، أو شعور من أضاع شيئاً ثميناً جداً و دقيقاً ثمّ وجده بعد أن قضى نهاره باحثاً عنه، فاستقرت تلك الفرحة المتقافزة والساكنة بآن معاً في نفسه وكأنّ كلّ مصادر القلق قد تفرقت الآن وعادت الأمور من جديد إلى اتزانها.

_ لقد قلقت عليك في الأيام الماضية.

_ الموت يجاور الإنسان بشكل كبير، بل هو ملاصق له، و مازال البشر حتى الآن يفاجؤون إن اقترب الموت منهم، القبور محاذية للبيوت، شركات الموت محاذية لشركات الحياة، بل ومتداخلة معها. تأمّل القبور و البيوت لترى الموت بيننا، قريب منا، يجاورنا ويناجينا، ينذرنا و يلوح لنا، يرسل لنا إيماءات خفية و ظاهرة، يخبرنا بأننا سنذهب، سنرحل طوعاً أو كرهاً، لكننا نسدّ آذاننا، نرفض التصديق، أو ندعي الشجاعة و نعلن عدم خوفنا، نلهي أنفسنا بأي عَرَض ظاهر، نشتري البيوت، نقتني الأثاث، نتملك الأشياء، ثمّ نرحل إلى شركات الموت و نترك كل تلك الأشياء، كل ذلك المتاع. فجأة نكتشف أن الأشياء أكثر ثباتاً من الإنسان نفسه. فجأة نشعر أن الأشياء هي التي تبدلنا ولسنا نحن من نبدل الأشياء، ما أرتديه الآن سيبدلني بعد أمد قريب، و كأنّه هو الذي يرتديني، و سيذهب لشخص آخر كي يرتديه، و أنا سأخرج عارياً، ستودعني كل الأشياء و ستبدلني و سأرحل عارياً من كل شيء، إلا من نفسي و ما صنعت.

كان العجوز يتحدث بطلاقة و بصوت ضعيف مبحوح، يبدو كصفرات متقطعة لسنونو مغادر.

لم يبدِ واصل أي استعداد للرد، لأنه ببساطة لم يعرف ما الذي ينبغي عليه قوله فاكتفى بابتسامة حاول جهده أن تبدو مشجعة للمريض.. الذي كان بدوره لا ينتظر الردّ لا بكلمة ولا بابتسامة تشجيع، فقال على الفور قاطعاً لحظات الصمت المربك:

_ خبرني، ما الذي فاتني، ماذا حدث بأمنيتي ؟

بدأ الشاب بسرد كل التفاصيل التي حدثت معه منذ أول زيارة له لمنزل أبي العطاء، تكلم و استفاض على غير عادته، كان مستمتعاً بسرد كل شيء على مسامع العجوز العائد إلى أرض الأصحاء، لم يترك شيئاً من التفاصيل، بل استرسل حتى أفرغ كل مخزون الأحداث التي في جعبته.

كان العجوز يستمع و بريق عينيه يتراءى سروراً و إشباعاً، وكأنه يتشرب كل ما يقوله واصل بالطريقة نفسها التي يتشرب بها أشعة الشمس المتسربة من النافذة لتغزو عوالم نقاهته و صحوته المنتعشة.

فنّد له أحوال و أقسام الرؤية كما تلقاها من أبي العطاء، مع الأدلة و الإثباتات العقلية و النقلية، و أبدى له كل الآراء التي تتعلق بهذا الأمر كما سمعها أو قرأها خلال الأيام القليلة الماضية.

كان العجوز راضياً تماماً، ولم تبدُ عليه أي علامة أو ردّ فعل حتى ورد اسم الشيخ تقي الدين، فرفع العجوز حاجبيه و سأل على الفور مستغرباً:

ـ تقي الدين ؟ و ما الذي ستتلقاه لدى تقي الدين !؟ كما أنه في خلوة ما من سبيل لقطعها حسب ما سمعت.

ـ من أين لك هذه المعلومات ؟ كيف تعرف كل هذا ؟

لم يعطِ العجوز ردّاً بل أجاب بسؤال هو الآخر:

ـ و هل تنوي الذهاب إليه؟

ـ لقد ذهبت إليه فعلاً.

ـ ذهبت إليه !! و هل قابلته؟

ـ لا لقد قابلت فتاة ربما هي ابنته، سألتها عنه وأخبرتني بقصة خلوته العجيبة، فطلبت منها و ألححت بسماجة ما عهدتها في نفسي أن تسأله لعلّه يوافق، و قطعت الطريق عليها و أخبرتها سريعاً بأنني سأعود غداً كي أتلقى منها رداً على طلبي.

ـ و متى كان هذا؟

ـ اليوم، قبل أن آتي إليك مباشرة.

ـ لا أعتقد بأنك ستقابله.

ـ ولم لا ؟

ـ لا سبيل لقطع الخلوة أبداً.

ـ أنا لا أفهم تلك العقليات، ما قصّة الخلوات و العزلات، أليس رجل علم ! من المفترض أن يساعد كل باحث أو طالب أو قاصد لعلمه!

ـ لا تبني حكماً على أمر لا علم لك فيه و لا خبرة، هذا من ناحية، و من ناحية أخرى، لا أعتقد أنك ستجد ضالتك عند تقي الدين، لن تجد لأمنيتي جواباً عنده.

بدأ بخار من غضب ينتشر في نفس الشاب، فقال:

ـ بما أنك يا سيدي تعلم الطرقات المؤدية لتحقيق أمنيتك لماذا إذاً لا تدلّني أنت

لعلّ الطريق يصبح أسهل و المعرفة أيسر !!

_ إذاً هل ستذهب إليه غداً؟

لم يكن من الممكن لواصل حصر العجوز في خانة من استنكار أو إرغامه على تقديم أية معلومة من دون موافقته و نيته المسبقة، لذلك كان لابدّ من إكمال الحوار كما أراد، فقال :

_ نعم سأذهب غداً و سأطلب مرة أخرى لقاءه لعلّنا نصل إلى ما يرضينا، لقد أخبرني أبو العطاء بأن الشيخ تقي الدين يُعتبر مرجعية علمية مهمة و أنه ضليع في هذه الأمور، كما أنّ له أبحاثاً عميقة وطويلة تتعلق بأمنيتك، لذلك سأحاول ملاحقة الأمر ما استطعت.

هزّ العجوز رأسه و ابتسم ابتسامة قد توحي بسخرية أو استعلاء أو ما يشبه ذلك، ثم قال:

_ أطلعني على التفاصيل إن استطعت لقاءه.

_ هذا مؤكد، هناك أمر آخر أودّ أن أطلبه منك.

_ أيّ أمر؟

_ حدثتك عن صديقي، هل تذكر؟ هل نستطيع أن نرتب لقاءً بينكما خلال اليومين القادمين، أشعر أنك على خير ما يرام الآن، فهل هذا ممكن ؟

_ طبعاً.

_ ألا يتعبك هذا، أو يسبب لك الضيق أو ....

_ المهم أن يكون اللقاء في الساعة نفسها التي تزورني أنت خلالها، في أي يوم تختاره، ما من ضرورة كي تخبرني قبل ذلك، في أي يوم.

_ شكراً لك.

_ لا تنسَ أن تخبرني بتفاصيل حوارك مع تقي الدين، أنا في شوق إلى ذلك.

هزّ واصل رأسه بالإيجاب بعد أن فهم أن العجوز ينهي مقابلته، فاستأذن و خرج ناوياً ترتيب موعد عبيد بأسرع وقت.

٢٦.

في اليوم التالي وبعد خروجه من منزل أبي العطاء توجه واصل إلى منزل تقي الدين ثانية للتأكد من نتيجة طلبه.

قابلته الفتاة ذاتها، وقد علّتْ وجهها ابتسامة آسفة معلنة النتيجة قبل نطقها.

ألقى عليها تحية مقتضبة وقال:

ـ يبدو أن الأمر لم ينجح.

ـ أعتذر منك، لكنّ أبي مصرّ على خلوته.

صمت واصل بعد أن أيقن أن المقابلة قد انتهت، لكن الفتاة عادت لتتكلم من جديد فاسحة المجال لدرب آخر أكثر ضيقاً:

ـ لقد أخبرني أيضاً أنك. إن شئت. تستطيع إخباري بسبب قدومك، فإن كان سؤالاً مما أستطيع إجابتك عليه فعلت، و إن كان موضوعاً معقداً عدت إلى أبي و أخبرته لعله يرسل الإجابة إليك أو لعله يقابلك عندئذ.

ارتبك من جديد، لم يعرف ما الذي يتوجب عليه فعله الآن، وماذا عساه يخبر الفتاة، لم تكن لديه قضية متكاملة ليطرحها بشكل مباشر أو سؤال محدد يستطيع صياغته بتلك السهولة أمام فتاة ربما سيبدو أمامها غبياً لا يعرف ما الذي يبحث عنه.

لقد كان يعتمد بشكل ما على فراسة الشخص المقابل لاكتشاف حيرته و التوصل لطلبه، لم يكن يعتمد على طرحه المباشر الواعي لما يريد، إضافة لصعوبة ذكر موضوع الأمنية.

ـ الحقيقة هناك بعض القضايا التي أحببت أن أسأل الشيخ عنها بعد أن سمعت أن له أبحاثاً مفصّلة هامة تتناولها، وفي الوقت ذاته رغبت بتتبع دروسه إن كانت له أية دروس عامة أو خاصة.

ـ لا دروس الآن ولكن إن شئت مناقشة أيّاً من أبحاثه فتستطيع ذلك، أنا مطلعة

على كل ما ألّفه والدي سواء أكان منشوراً أم لا.

ـ يبدو هذا مناسباً لي، ولكن كيف.. أقصد.. أين ..

فهمت الفتاة ما يرمي إليه وظهر ارتباكه جلياً لها من خلال نظراته الحائرة المتقافزة هنا و هناك منعاً لنظره المباشر في عينها وابتسامته المضطربة التي يخفي تحتها تساؤلاته الكاملة حول مكان اللقاء وزمانه.

ـ تفضل، إن شئت الآن لا مانع لديّ أبداً.

هزّ رأسه واستغرب سهولة الإجابة ويسر الطريقة.

أفسحت له المجال فدخل حيث أفضى به الباب فوراً إلى صالة صغيرة يبدو أنّ أهل المنزل يستخدمونها مكاناً لاستقبال مؤقت.

كان المنزل بسيط الأثاث، مرتّب الأرجاء، أبيض الجدران.

بمجرد دخوله شعر بمسحة من طمأنينة لمست نفسه وهدأت من روعه.

النظافة والبساطة الظاهرة جعلت المنزل يبدو أكثر ترحيباً واحتواءً واتساعاً.

جلس في ركن ما وُضعت فيه أربع أرائك صغيرة مربحة حول طاولة مستطيلة.

وبمجرد جلوسه سمع أصواتاً طفولية تأتي من جهة دهليز طويل وُزّعَت ثلاثة غرف على جانبيه.

نظر تجاه الفتاة ليجدها قد تركت باب المنزل مشرعاً على مصراعيه، بحيث استطاع واصل من مكانه رؤية أسفل الدرج خارج المنزل.

جلست الفتاة مقابله وقالت:

ـ كنّا نستقبل الكثير من الأشخاص هنا في المنزل قبل خلوة والدي، ما كانت لتمر ساعة إلا وفيها زائر أو طالب أو عالم أو صديق. ولكن الآن لا أحد يدقّ الباب.

ـ أرجو ألا أكون قد أزعجتكم أو أحرجتكم، اسمي واصل، وأنا حديث عهدٍ بطلب العلم واكتشاف معالم هذا الطريق إن صحّ التعبير.

ـ أهلاً وسهلاً بك، أنا ورود ابنة الشيخ تقيّ الدين.

ـ لقد اعتقدت أن أبا الورود هو لقب أو اسم آخر وليس اسم ابن أو ابنة الشيخ.

لم تردّ الفتاة بل اكتفت بابتسامة مجاملة.

استرخى واصل أكثر مما كان عليه فور دخوله، وأخذ يحاول إيجاد الكلمات المناسبة

ليصل إلى مبتغاه الذي بدأ ينساه بشكل ما تحت وطأة المتعة الخفيّة المتسربة من هذا اللقاء.

لم تكن الفتاة جميلة بمنظور المجتمع الذي نشأ واصل في كنفه، لكنها كانت تنطوي على جاذبية من الصعب وصفها بالنسبة إليه بشكل خاص، لم يعرف ما هو سرّ هذه الجاذبية، لكن الذي تأكد منه هو أنها كلما تكلمت شعر بدغدغة ما تمتد لتداعب النقطة الواصلة ما بين صدره و معدته.

شعر بأنه يعرف عينيها جيداً، وبأنّ بريقهما قد سكن في روحه منذ زمن ما حتى قبل أن يعرف الفتاة.

لسنا نصف حالة من حبّ هنا فالموقف لم يكن بحال من الأحوال موقف حبّ مثالي من النظرة الأولى، لكنه كان موقف سكينة تورث الود إن دامت، و تورث الرحمة إن تكررت.

بدأ يتكلم بهدوء.. محاولاً تجنّب النظر في العينين قدر الإمكان:

_ لقد سمعت بأنّ للشيخ أبحاثاً تتناول موضوع الإلهيات، صفات الله كما وصف نفسه، ورؤيته تعالى، مع ما يتعلق بهذا المصطلح من رمزية و اختلاف في المعنى ما بين شخص وآخر، وقد كنت أبحث في الموضوع نفسه، موضوع الرؤية.

_ هل تكتب بحثاً عن الموضوع أم تؤلف كتاباً يتناول هذا الأمر؟

_ لا لا، الأمر أبسط من ذلك بكثير، لستُ كاتباً أو باحثاً، إنما أنا شخص وجد نفسه فجأة يخوض في معمعة تتناول هذا الأمر، و قد حاولت متابعته ما بين كتب وأشخاص. لم يبدأ الأمر منذ مدة طويلة، أبداً، إن هو إلاّ شهر و بضعة أيام، وجدت نفسي خلالها في دوامة البحث، ومع أن القصة لم تبدأ بإرادتي إلاّ أنني بتّ مهتماً جداً بإتمامها بالطريقة المثلى، كان الأمر بالنسبة لي مختلفاً و منتجاً لتنوير لم أعرفه طيلة حياتي، وجدت أنّي بعيد جداً عن الحقائق التي يجب علي معرفتها، فبدأت البحث بطريقة أكثر جدية، متناولاً مطلق الموضوعات و مشدداً على معرفة حقائق الرؤية.

_ هذا أمر جميل، ولكن ما الذي دفعك لتغيّر ما كنت عليه فجأة، وتدخل في درب التنوير كما سميته، إن لم يكن في سؤالي إحراج ؟

_ أمر ما طرأ في حياتي فغيرها، شخص ألقى مسؤولية على كاهلي، مسؤولية البحث

و الإتيان بالإجابات، شخص لا أعرف إن كان يملك الإجابة أم أنه حقاً يبحث عنها، لكن الذي أعرفه هو أنني ملزم تجاهه بوعد قاطع يجب علي الإيفاء به.

ـ وكيف بإمكاني مساعدتك ؟

ـ بصراحة لقد كنت أفكر بملازمة الشيخ، كما لازمت أشخاصاً قبله و ما زلت، لعلّي أستقي من فكره و أستطيع الوصول إلى ما أريد يوماً بيوم و مرّة بمرّة، حتى أسئلتي تأتي تباعاً خلال الملازمة أو الدروس، أنا لا أملك أسئلة محضرة مسبقاً، لكنني أشعر بالسؤال فور وروده إلي، أشعر بما أبحث عنه أكثر مما أفكر به، لذلك، لا أعرف الآن من أين لي أن أبدأ، فلست متبعاً لمنهج واضح بالبحث، إنما أتتبع الطريق كما أراها مناسبة مبدئياً.

ـ لكن موضوعك الأساسي هو البحث في صفات الذات الإلهية ؟

ـ نعم، أعتقد أن هذا ما أبحث عنه و أتمنى الحصول على آراء الشيخ فيما يختص بهذا الأمر.

ـ أستطيع أن أجمع لك إذاً بعض المقالات أو بعض الفصول من الكتب، أو حتى بعض المخطوطات التي لم تُنشر بعد استئذان والدي طبعاً، لربما تستطيع من خلالها الوصول إلى غايتك، ولئن واجهتك أي صعوبة أو عسر في فهم تعبير ما أو مصطلح أو فكرة أو أي شيء، تستطيع سؤالي، و كما أخبرتك سابقاً، إن كنتُ أستطيع شرح الغامض فعلتُ و إن كان الغامض غامضاً بالنسبة لي سألت والدي وسيخبرني ماذا أفعل في حينه، هل هذا مناسب بالنسبة إليك؟

ـ هذا أكثر من مناسب، أنا لا أطمع بأكثر من ذلك.

ـ إذاً سأجمع لك مفردات البحث، الأوراق و الكتب و كل شيء، أظن أني سأحتاج إلى يومين فقط، تستطيع المرور بعد غد لتأخذها، سيكون كل شيء جاهزاً بإذن الله.

ـ شكراً جزيلاً، أنا عاجز عن الشكر.

ـ المهم هو حصول الإفادة المرجوة.

غادر واصل مثقلاً بنشوة عارمة جعلته يقصد موعده مع عبيد لزيارة العجوز دون أدنى توتر مما كان موجوداً في صدره بشأن هذا اللقاء من قبل.

٢٧.

بمجرد حصول واصل على موافقة العجوز، و تأكده من قدرته الصحية على استقبال عبيد، رتب موعداً فورياً في اليوم التالي للزيارة.

لم يكن عبيد بدوره سعيداً بهذا اللقاء، لكن فضوله لرؤية الرجل الذي تسبب بإعادة صياغة صديقه بهذا الشكل جعله يوافق تلقائياً على زيارته.

كان في داخله شوق ما لرؤيته و إفحامه، كان يتمنى تعرية أفكار هذا الرجل أمام واصل، و تجريده من قدراته المنطقية و سطوته التي يمارسها بكلماته الملغزة الملونة المعاني.

بالنسبة إليه كان اللقاء أشبه بمعركة سيخرج الفائز منها بتمجيد لأفكاره الخاصة و تأييد كامل من المتفرج الوحيد .. واصل، الصديق الذي خسر عبيد تأييده منذ أن قام بزيارته الأولى لذلك المشفى اللعين.

هذا ما كان يدور في ذهنه.

أما ما دار في رأس واصل فقد كان مزيجاً بين: أمنيته بتغيير قواعد الإيمان المغروسة في صدر صديقه، وسعيه في الوقت ذاته لاكتشاف طريقة العجوز بالتعامل مع شخص مثل عبيد، بجلافته وتشبثه العنيد بأفكاره.

لكنه على كل حال، لم يكن في هذه اللحظات تحديداً ذائباً في متاهات الحدث، بل راح فكره يحلّق بعيداً في استعادة كلمات الفتاة واسترجاع جملها و انتظار اللقاء القادم، ولذلك فقد ذهب إلى موعده مرتاحاً، منطلقاً، تبدو أطياف النشوة واضحة في عينيه.

كان الموعد بجانب سور حديقة صغيرة تقابل بناء المشفى.

وصل قبل موعده ببضع دقائق، جلس فوق الحافة المنخفضة الحجرية للسور، وأخذ يتأمل البناء الضخم المقابل.

كانت أغلب نوافذ المشفى مطلّة على الحديقة. لذلك ولكي يقتل دقائق الانتظار بدأ

بمحاولة اكتشاف نافذة غرفة مريضه من الأسفل.

عدّ الطوابق عمودياً، ثمّ عدّ الغرف أفقياً، وصل إلى نافذة مغلقة ذات ستائر مسدلة، فأدرك خطأه في تحديد الموقع.

عاد من جديد يحاول حتى استطاع تحديد النافذة المنشودة، كانت قابعة في الجهة اليمينية العليا من واجهة البناء والمقابلة بشكل شبه تام لاستقرار الشمس في زاوية السماء في مثل هذا الوقت من النهار قبل انتصافها بشكل عمودي.

نافذة مفتوحة يتطاير طرف من ستارتها مع هبات الهواء، استطاع تحديدها، إذ إنها لم تغلق ستائرها بالرغم من مساحة الضوء الكاملة المسلطة عليها.

نظر إليها ملياً، متخيلاً الموقف الذي سيشهده بعد قليل، تخيل النقاش الذي سيدور بشكل كامل، توقع كلمات عبيد، وتوقع إجابات العجوز التي لا سبيل لردها. شعر بأنه مطمئن.

لم يكن قلقاً أبداً مما سيحدث، حتى إن تمادى عبيد، أو تكلم بجلافته المعتادة عندما لا يجد مفرّاً منطقياً من الإقرار بصحة منطق الخصم المحاور.

لم يكن قلقاً من كلّ هذا. لقد ولّدت ثقة كبيرة بداخله شعوراً مريحاً أنّ الأمور ستكون على ما يرام.

رفرفة الستارة المتطايرة أعادت له تفكيره بورود.

فكر.. أيّ اسم هذا، وأي رفرفة تلك، ورود .. !!

شعر بروحه ترفرف مع الستارة التي اخترقتها أشعة الشمس، وأصابت الرقة كل نسمة إحساس تتلون في صدره.

كم هي مدهشة تلك الكيفية التي يرقّ فيها قلب الإنسان، ويتدفق بألطف أنواع المشاعر التي سنبتعد مرةً أخرى عن تسميتها بمشاعر الحب، فالكلمة حتماً خاطئة، وتحمل من لبس المعاني أكثر مما تحمل من إيضاحها، لكن الكلمة المناسبة هنا ربما غير موجودة، أوربما هي الرقة المؤدية إلى المودة، أو الشفافية.. المؤدية إلى التآلف مع معطيات الكون المحيط.

هنا يصبح الإنسان عاجزاً عن تلقي الرسائل السلبية مما حوله، يسترخي ويصبح من العسير إعمال التوتر في نفسه، يصيبه وابل من استقبال صحيح معافى، لا سبيل

لتعقيده ومسخه بكل ما هو خارجي، تصبح اللطافة والشفافية الداخلية هي المحرك الأساسي، ويغرق في بحر من التآلف الودود الصامت، بل و يصبح منتجاً لجميع معطيات السلام، و هي حالة لو استطاع الإنسان تعميمها على جميع مناحي حياته لوصل إلى سعادة قصوى تنتجها تلك السكينة المنشودة بداخله.

استطاع الشاب لمس التشابه الحاصل في حالته تلك نوعاً ما مع حالة الوجد التي أصابته في الالتزام الأولي مع أبي الحكم، وتذكر فجأة حلمه الذي تكرر عدة مرات.. التسلق و القمة العالية التي لا تلمس، و إحساسه اليقيني بعدم السقوط خلال حلمه، ثمّ قفزت إلى ذهنه حادثة الكلب المخيف الذي منعه من العودة، فشردت نظراته وغاص في ترابطات ذهنية وتشابكات عاطفية غريبة مجمّعة لم يخرجه منها إلا صوت عبيد بنبرته العالية وهو يلقي سلامه.

٢٨.

دخل الاثنان الغرفة.

كان الوضع على ما هو عليه كما تركه واصل في اليوم السابق.. العجوز بجانب النافذة يستجمع كل خيوط النور ليزرعها في بدنه، والستارة المرفرفة في الأسفل تبدو أكثر استقراراً هنا، إذ يختفي الجزء المرفرف منها خلف النافذة من الخارج.

نظر العجوز إليهما وأظهر ابتسامة عريضة.

حانت من واصل التفاتة عفوية نحو عبيد ليجده محتقناً بعض الشيء، مع أنّ أيّ نقاش أو حوار لم يبدأ بعد.

كسر الشاب حاجز الجفاف وقال:

_كيف حالك اليوم يا عم، لقد جاء صديقي عبيد الذي حدثتك عنه كي يتعرف إليك، لقد حدثته عنك كثيراً فأحب أن يراك، أرجو ألا يكون في قدومنا إزعاج لك.

_ على العكس، لقد كنت بانتظاركما.

لم ترض تلك الجملة عقل عبيد، لما فيها من إلماحات من الممكن أن تكون منافية لمنطقه، فظهر طرف ابتسامة صفراء في زاوية فمه كدلالة معلنة على الاستخفاف بتوقعات المريض الذي بدا لواصل أكثر سعادة واستقراراً من أي وقت مضى منذ أن عرفه الشاب وحتى اللحظة الراهنة.

لم يعرف واصل كالعادة ما الذي ينبغي عليه قوله تمهيداً للدخول في الموضوع المنشود، لذلك بدأ بتناول عدد من الموضوعات المتفرقة من هنا ومن هناك، لطالما تيقّن من عدم براعته في مواقف كهذه، يتوجب عليه فيها أن يداور الآذان كي يصل إلى النقطة المنشودة دون إحراج أو كثير صمت أو كثير كلام.

لكن العجوز أنقذه من هذا الموقف.

فبعد أن تكلم وتلعثم وطالت مقدماته فاجأه الأخير بطلب غريب بعيد جداً عما يناور به بكلماته فقال:

ـ واصل .. هل من الممكن أن تجلب لي عصيراً طبيعياً، أريد زجاجة صغيرة من عصير الرمان الطبيعي، سأكون ممتناً إن فعلت هذا الأمر لي.

تجمدت ملامح واصل للحظات، لقد كان ينتظر هذا اللقاء بفارغ الصبر، لقد جهّز نفسه، و أعدّ مستقبلات حواسه بأكملها كي يحفظ الحوار عن ظهر قلب، الحوار الذي ما استطاع هو نفسه إجراءه مع صديقه المقرب و الذي ينتظر من هذا العجوز المريض العجيب أن يجربه، ثمّ يطلب منه بكل بساطة و مكر أن يترك الغرفة بحجة العصير اللعين!!

ياله من رجل ماكر.. قالها واصل في نفسه و ارتسمت على وجهه علامات الوجوم البارد، بعد أن رمق العجوز بنظرة لوم متمنياً منه التراجع عن طلبه أو تأجيله.

لكن العجوز بقي على ابتسامته العريضة و نظرته المطمئنة و طلبه الذي لم يغير فيه شيئاً.

هزّ واصل رأسه و انسحب بهدوء دون أن ينبس ببنت شفة.

خرج من البناء بأكمله متمهلاً، شعر بأنه لم يعد يريد أن يسمع شيئاً!! يريد العجوز الخصوصية ؟ فليحصل عليها إذاً.

اتجه نحو أقرب بائع عصير، يمشي بهدوء، لم يكن المكان يبتعد أكثر من خمس عشرة دقيقة مشياً على الأقدام، لكن واصل جعلها أكثر من عشرين بمشيه المتمهل الكسول، و انتظاره لكل زبائن البائع غير المتوقعين، و طلبه لزجاجة من الحجم الكبير وليس الصغير كما طلب العجوز كي يستهلك تحضيرها وقتاً أكبر.

أخذ الزجاجة و سار متمهلاً، لم يكن في ذهنه أية تكهنات لما يمكن أن يكون قد جرى الآن في الغرفة المشمسة.

كان عقله من النوع الذي يرفض كل التخيلات المثالية، كأن يصل الآن إلى الغرفة ليجد عبيد و قد غير نظرته للحياة و تحول عن مواقفه الرافضة و وصل إلى عمق الإيمان بلحظات مثالية لا تحدث إلا في حكايات الأطفال التوجيهية المبسطة.

مرت حوالى أربعين دقيقة ذهاباً و إياباً.

لم يكد واصل يقترب من الغرفة حتى رأى الباب يدفع بقوة ويخرج عبيد من خلاله غاضباً منفعلاً يغمغم بكلمات غير مفهومة.

خرج وصفق الباب وراءه بعنف ثمّ سار مسرعاً وعندما مر بجانب صديقه أشار له بكفه أن يدعه وشأنه وألا يعترض طريقه.

حاول واصل اعتراضه وفهم سبب الغضب الغريب الذي يتطاير منه، لكنه لم يلتفت لنداءات صديقه بل أسرع السير حتى كاد يركض.

توقف للحظات يفكر، لم يكن من المجدي ملاحقة عبيد الذي أبدى رفضه لأي كلمة بجدية واضحة. فالتفت إلى الطرف الآخر من المشكلة ودخل الغرفة مستفسراً.

وجد العجوز على نفس ما تركه، مبتسماً مشرقاً هادئاً. وضع واصل العصير على طاولة صغيرة ثم نظر إلى العجوز وسأل باستغراب:

ـ ما الذي حدث ؟!!

ـ هل وجدت عصير الرمان ؟

ـ أرجوك إن الوقت غير مناسب الآن للرد على السؤال بسؤال، ما الذي حدث ؟ لماذا خرج غاضباً.

ـ اسأله.

ـ لم يرضَ حتى أن يكلمني.

تمدد العجوز في سريره بشكل كامل بعد أن كان جالساً، ثم قال:

ـ لقد جاء وقت استراحتي، سأستريح الآن، يجب أن أنام طويلاً كي أرتاح. لقد عملتَ ما استطعتَ في أمنيتي، خذْ وقتك الآن في بحثك، اعملْ بهدوء، لا تتركْ طريقك هذا، ستصلْ قريباً، بل قريباً جداً، وستصبحْ واصلاً بحق، أشكرك على كل ما قمت به، وأشكرك على العصير. إلى اللقاء، عاجلاً أم آجلاً.

لم يفهم الشاب شيئاً، بل شعر بأنه أبله تسير الأحداث من حوله دون إدراكه، واستشعر في الوقت ذاته حزناً يلوح في أفق قريب، حزناً وشيكاً وانكماشاً في القلب المرفرف.

حاول الحصول من العجوز على ما يشفي تساؤلاته المتزايدة:

ـ لماذا تقول لي كل ذلك الآن ؟ ما الذي جرى، خبرني بالله عليك، لا تتركني هكذا، ما الذي فعله عبيد ؟ هل أساء إليك، قل لي أرجوك، سأعاتبه وسأعود به إلى هنا كي يعتذر منك.. خبرني فقط ؟ وما الذي تعنيه بعاجلاً أم آجلاً ؟

لم يرد العجوز بل أدار ظهره لواصل و غطى نفسه بغطاء السرير الأبيض متخذاً وضعية النوم.

بقي واصل واقفاً للحظات. ثم لم يجد بدّاً من الانصراف.

.٢٩.

شركة الحياة التي أرسلت العديد من الإنذارات لواصل، اتخذت قراراً نهائياً بفصله النهائي لاستخفافه بعمله وإهماله له وتركه لكل ما يتعلق به دون مراجعة.

أرسلوا إليه إشعاراً خطياً.

استلمه في منزله. قرأه دون أن يظهر أي رد فعل أمام والده الذي سأله عن الورقة التي بين يديه فأخبره بأنها تكليف مبدئي بمهمة خارجية جديدة.

لم يكن من النوع الذي يجيد الكذب أو يحترفه، لكنه فضّل إخبار والديه بهدوء في وقت آخر.

وإن شئنا أن نصف شعوره في تلك اللحظات فيكفينا أن نقول فقط بأنه لم يشعر بأي سوء، بل وأكثر من ذلك فقد تسللت راحة عميقة إلى نفسه وشعر بأنه استيقظ من كابوس قد لازمه لوقت طويل.

لم يخفْ ولم يقلقْ لوضعه المادي.

كانت الطمأنينة التي شملته من قبل ما زالت سارية المفعول حتى تلك اللحظة التي قرأ فيها قرار فصله.

شعر بامتنان عميق وكامل لله الذي خلّصه من تلك المهنة وبهذه البساطة، وشعر بالامتنان مرة أخرى للعجوز الذي أخرجه من دائرة الأمنيات الوهمية، وحرره من منظومة الخداع.

_ تباً للنقود إن لم أكن سعيداً.

هذا ما قاله في نفسه ثمّ طوى الورقة واحتفظ بها في مصنف أوراقه الرسمية داخل صندوق خزانته العلوي.

فعلاً، لقد انتابه الآن والآن فقط شعور بالحرية الكاملة، وعرف كم كان تأثير شركة الحياة سلبياً عليه حتى وهو خارج أسوارها خلال المدة البسيطة التي خرج منها

بحجة أمنية العجوز.

في اليوم نفسها الذي ترك فيه العجوز بعد الكلام الغريب الذي سمعه منه، حاول الاتصال بعبيد، حاول كثيراً لكنه ما كان ليجده، وحتى إن وجده، كان جلياً بالنسبة إليه أن عبيد لن يستقبل اتصاله أبداً.

ترك له عدة رسائل مع ذويه، لكنّ الأخير كان سلبياً تماماً.

ذهن واصل المشوش هيّأ له الكثير من السيناريوهات التي من الممكن لها أن تكون قد حدثت بين العجوز و صديقه، لكنه لم يجد أيّاً منها منطقياً أو يبرر ردة فعل صديقه وكلمات المريض العجيبة التي قالها بعد ذلك.

في صباح اليوم التالي ذهب واصل كعادته إلى منزل أبي العطاء الذي لم يترك الذهاب اليومي إليه منذ أن عرفه لأول مرة.

حضر الجلسة كاملة، ثمّ انتظر أبا العطاء حتى ودّع كل الحضور وتفرغ لمريده الجديد.

_ كيف حالك اليوم ؟ أراك مجهداً.

قال أبو العطاء.

_ لم أنم جيداً ليلة أمس.

_ هل هناك ما يشغل بالك ؟

_ لقد ذهبت إلى منزل الشيخ تقي الدين.

_ ذهبت إلى هناك ؟!! وما الذي حصل؟

_ استطعت الحصول على وعد من ابنته بمطالعة مؤلفاته التي تتعلق بالأبحاث التي تكلمنا عنها، بعد موافقته هو شخصياً على ذلك طبعاً، لكنه لم يوافق على مقابلتي حالياً.

_ يالك من محظوظ !! كيف استطعت الحصول على ذلك؟ هذا غريب جداً ! من غير الممكن أن يقبل الشيخ أمراً كهذا بتلك السهولة !!

_ الحمد لله.

نطقها الشاب وهو يشعر بنفحات الفخر تتسلل إلى نفسه.

_ ومتى تحصل على تلك المطالعة ؟

_ سأحصل عليها غداً بإذن الله.

_ من الذي سيطلعك عليها؟

احمرّ وجه واصل على الفور وقال:

_ ابنته ، ابنته ستعطيني بعض المؤلفات.

_ ابنته من ؟

_ ورود، وهل هناك غيرها ؟

نعم لورود أخت متزوجة أصغر منها.

استجمع واصل كل ما في نفسه من قوة وقال:

_ إذاً ورود غير متزوجة أليس كذلك ؟

أطلق واصل سؤاله ثمّ ابتعد بعينيه عن عيني أبي العطاء المبتسمتين.

_ نعم هي غير متزوجة حتى الآن.

_ أعتقد بأنها مثقفة ومطّلعة ..

لم يردّ أبو العطاء بل اكتفى بانتظار السؤال التالي من واصل الذي بدا كمراهق بطريقته الساذجة في طرح الموضوع.

_ هل تعمل ؟ ما هي دراستها ؟ إن كانت.. تدرس؟

_ هي معلمة الآن وليست طالبة، تُدرّس العلوم الشرعية للمرحلة الابتدائية.

سكت أبو العطاء لبرهة ثمّ عاد ليجرّ الحديث من جديد نحو تقيّ الدين فقال:

_ أنت محظوظ إذ وافق الشيخ أبو الورود على منحك تلك الفرصة، و ستكون محظوظاً أكثر إنْ قابلك، إنّ اللقاء بهذا الرجل سيُحدث حتماً فرقاً في حياتك، كما أحدث فرقاً في حياة الكثيرين.

_ تبدو متحيّزاً له !!

_ بل أنا فخور بأنني كنت طالباً دائماً ومريداً جاداً من مريديه.

_ أتمنى أن أراه، لعلّه يحدث الفرق الذي ذكرت، سأبدأ غداً بقراءة ما ألّف حول موضوع الرؤية وسأرى مقاصده وآراءه، لربما وصلت إلى ما أصبو إليه، لكن المشكلة هي أنني لا أعرف بالضبط ما الذي أصبو إليه؟ أشعر بشيء ما يعتمل في صدري، شيء لا أستطيع وصفه، وكأنني أسير في درب ذات عناصر واحدة، أو .. لا أعرف كيف أعبر

عن ذلك !! .. وكأنّ كلّ ما يحدث معي خلال هذه الفترة معدّ ومرتبط بخيط واحد أو بمجموعة خيوط تمسكها يد واحدة، وكأنّ الدروب كلها مرتبطة ببعضها كي أصل إلى نهاية واحدة، حتى الدروب السلبية منها معدّة للوصول إلى النتيجة نفسها.

_ ستصل إلى تلك النتيجة.. فأنت تبحث وتطلب وتقف بباب المولى، والله لا يرد طالباً واقفاً ببابه، أرجو من الله أن يمنحك الوصول الحقيقي إلى شفاء النفس وإشباع الروح، فهذا ما أنت بحاجة إليه.

٣٠.

وصل قبل موعده بدقائق، كانت الطمأنينة قد غادرته، و حلّ بدلاً عنها قلق سميك، غطى كل منافذ الراحة في نفسه.

فتحت له الباب، فدخل إلى الصالة البسيطة نفسها و جلس في المكان نفسه.

كانت قد حضّرت مجموعة من الأوراق و كتابين و بعض الدفاتر، رآها واصل بمجرد جلوسه و قد وُضِعَتْ على الطاولة المقابلة له تماماً، و كأنّ الفتاة قد عرفت أنه سيختار المكان السابق نفسه.

جلست مقابله و أشارت بيدها نحو الأوراق و قالت:

ـ تفضل تستطيع أن تراها و تفحصها الآن ثمّ بإمكانك أخذها، بالنسبة للأوراق و الكتابين تستطيع الاحتفاظ بها أما الدفاتر و هي أربعة فأرجو منك إعادتها خلال أسبوع إذ لا يوجد نسخة ثانية منها، كما أنك ينبغي وحسب توصيات والدي أن تجعل الدفتر الكبير في الأسفل هو آخر ما تقرأ، إذ لن يتم لك فهم محتواه إلا بعد قراءة كل هذه المصنفات و الكتب قبله، إنه آخر ما حرره والدي، و قد دُوّنَ حديثاً، أرجو ألا تنسى ذلك، لقد أوصاني والدي بهذا الأمر مرتين.

ـ سأذكر هذا جيداً، سأنهي كل شيء ثمّ سأقرأ الدفتر الكبير، وأعتقد أنّ أسبوعاً واحداً سيكون كافياً بالنسبة لي، ولكن إن لم أستطع قراءتها خلال ذلك فهل أستطيع نسخها أو نسخ أجزاء منها ؟

ـ بالطبع، لقد أعطاك الشيخ الصلاحية فلك أن تنسخها ولكن دون النشر طبعاً.

قالت الفتاة محذّرة و قد لاح طرف من بياض أسنانها لأول مرة من بين شفتيها المفترتين عن ابتسامة المداعبة، مما جعله يبتسم هو بدوره ابتسامة بلهاء بعض الشيء كردّ فعل مساير.

ـ هل ستطول خلوة الشيخ ؟

ـ لا أعرف صدقني، أتمنى أن يعود سريعاً، لقد تجمّد منزلنا منذ أن ابتدأت خلوته

وغادرنا.

برقت عيناها بعد أن قالت ذلك لتكشف عن أشباح حزن داخلي ليس بالإمكان اكتشافه بسهولة من خلف جدار عينيها البراقتين.

كان اللقاء قد انتهى عملياً، لكن الشاب المتمني عكس ذلك، حاول التسلل من جديد إلى فسحة إطالة الوقت بهدوء فقال:

ـ أريد فقط أن أستفسر منك، هل قرأت أنت هذه الأوراق والدفاتر التي سآخذها ؟

ـ أغلب المكتوب وليس كله، فالدفاتر الحديثة لم أطّلع عليها بعد.

ـ هل أستطيع الاستفسار منك عن أي شيء فيها ؟

ـ أكيد.

كانت إجاباتها مختصرة ومحددة لا تفسح المجال أمام محاورها لإطالة أمد الحوار.

شعر بأن وقت الانصراف قد حان، فهَمّ بذلك لكنها قالت:

ـ نحن متواجدون دوماً في هذا الوقت من النهار، أنا معلمة وكما تعلم نحن الآن في عطلة، لذلك فأنا أملك وقتي صباحاً وحتى الظهيرة. تستطيع أن تمُرّ في هذا الوقت إن صادفتك أية معوقات خلال قراءتك، لا أعرف إن كان هذا الوقت مناسباً بالنسبة إليك، أقصد بالنسبة لعملك، هذا الوقت غالباً هو وقت عمل.

كانت الفرصة ذهبية وأكثر من رائعة بالنسبة إليه كي يكمل ما استطاع من الحوار، وشعر بامتنان عميق تجاهها إذ فسحت له المجال عمداً كما تصور، أو كما أحب أن يتصور.

ـ بصراحة لقد كنت أعمل حتى أمس، أما الآن فأنا بلا عمل، كنت موظفاً في شركة الحياة للاستثمارات والعمران.

ـ الشركة معروفة، وماذا كانت وظيفتك فيها ؟

لم يشأ واصل أن يذكر موضوع الأمنيات الحمقاء فذكر لها منصبه الأول في الشركة:

ـ في قسم الترجمة، أنا خريج فرع الترجمة، اللغة الإنجليزية، لكنني لم أعد أعمل فيها الآن، لقد اتخذ القرار نهائياً أمس.

ـ أرجو ألا يكون قد حدث مكروه ؟

ـ لا أبداً، بل على العكس، لقد حدث ما كان ينبغي لي فعله بنفسي منذ البداية.

هنا فتح باب غرفة جانبية و خرج منه صبيّ يركض و يضحك بخبث ليتبعه صبيّ آخر أصغر منه يضحك تارة و يبكي تارة.

ركض الصغير نحو ورود و شكى لها أخاه بين الضحك و البكاء، فأمرت الفتاة الاثنين أن يتوجها إلى الغرفة الداخلية وينتظرا قدومها بعد أن قبّلت وجه الصغير.

دخلا من جديد فنهض واصل بعد أن شعر بدنو أجل اللقاء، لكنها قالت من جديد:

ـ إذاً أنت لا تعمل الآن؟

ـ حالياً.. لا.

ـ إن شئت قد نحتاج في مدرستنا أو في مدارس أخرى تابعة لنا معلماً للغة الإنجليزية، إن كنت مهتماً بالأمر فأعلمني.

لم يكن هناك جملة في هذه اللحظة من الممكن لها أن تكون أكثر إسعاداً و تأثيراً في نفس واصل من تلك الجملة.

لكنه قال:

ـ هذا عرض كريم جداً منك، أشكرك ولكنني لم أدرّس قبل الآن إلا بعض الأقرباء و أبناء الجوار، بصراحة أفكر أن ألتفت جدياً للترجمة، أعتقد بأن هذا ما كان يجول في نفسي منذ بداية دراستي، سأوجّه نفسي بطريقة ما في هذا الاتجاه.

ـ جيد إذاً، وفقك الله.

ـ شكراً جزيلاً على كل شيء، أراكم قريباً إن شاء الله.

ـ مع السلامة.

خرج من الباب الذي ترك مفتوحاً للمرة الثانية و هو يفكر.. كم مرّة تراه سيخرج من الباب ذاته بعد الآن مفتوحاً كان أم مغلقاً ؟

.٣١.

عالم آخر من الكلمات، عالم من الغنى المتلون المتمازج بين رقي المعنى و نعومة المبنى، عالم من تماهي روعة المقاصد مع دقة الفكر ورقي العبارة.

كانت الأوراق تتوالى دون أن يشعر بها بين يديه، تتقلب وتنتهي بسرعة زمنية غريبة، مع أنه لم يكن سريع القراءة.

بدأ بقراءة الدفاتر بالترتيب المفروض، أنهى الأول فالثاني ثم أدركه النعاس تلقائياً ما قبل الفجر، فنام فوق الأوراق التي تتناول أروع ما كان يمكن لشاب مثله أن يقرأه.

لم يستطع الذهاب إلى لقائه اليومي عند أبي العطاء، بل بقي نائماً حتى ساعة متأخرة من النهار التالي، و لمّا استيقظ استأنف نشاطه على الفور بإتمام قراءة ما أعطته إياه ورود.

فكر بالعجوز، لكنه لم يكن ليذهب إليه على الأقل في هذه الآونة، بعد الكلمات الحازمة التي سمعها منه، فقرر تأجيل زيارته حالياً حتى إشعار آخر، كما قرر ترك الاتصال بعبيد أيضاً خلال الأيام التالية، فلربما كان الابتعاد عنه حالياً أفضل من الاقتراب.

و هذا ما جعله ينسى كل شيء ويغلق باب غرفته على نفسه ويبحر في كلمات تقي الدين المنشورة و غير المنشورة.

كان سعيداً، مستثاراً، يشعر بخصوصية ما تجعله كلّما أنهى مقالاً أو فكرة أو حتى سطراً ينتقل لغيره بنهم لم يعهده في نفسه.

ترك كل ما هو خارج الغرفة و غاص في نفسه و في ما يقرأ، فجأة شعر باستغنائه الكامل عن العالم الخارجي، كل ما هو خارج أسوار نفسه أصبح في لحظة ما لا يهمه، العمل، الشركة، قرارات الفصل، الأصدقاء، العجوز، الأمنيات، وحتى ورود.

شعر بكل ذلك يبتعد عنه وينزاح بشكل غريب، لتبقى نفسه عارية إلا من نفسه، لتعود إلى مرحلة بيضاء لا شاغل لها إلا خالقها الذي تقرأ عنه أبدع ما قرأت.

ربما كان مشوشاً، أو لعلّه إنسان سريع التأثر، أو متقلب بين المشاعر المختلفة، أو تائه بين بحور الأفكار التي هبطت عليه مرة واحدة خلال شهر أو شهرين، ربما كلّ ذلك مجتمعاً ما جعله فجأة يبحث عن هدوء كامل وصمت وابتعاد، بل جعله يبحث عن نفسه الحقيقية التي افتقدها طيلة الأيام الماضية، تلك النفس الهادئة المعتدلة التي تعيش على هامش ما من مجتمعها و التي وجدت الحقائق تترامى عليها من كل حدب و صوب حتى استحالت كتلة من الاستجابات المنهكة، تلك النفس المشبعة بأفكار التكيّف و المثقلة بهموم التكيّف كانت بأشد الحاجة الآن إلى أن تنزوي عن كل معطيات التكيّف، وكل أصوات البشر وكل المقولات و الأهداف.

لم يشعر بالمساء عندما تغلغل في غرفته فعطّل الرؤية شيئاً فشيئاً حتى اكتشف فجأة بأنه لا يرى، عند ذلك عرف أن النهار قد ولّى، فأضاء الغرفة، وعاد إلى أوراقه من جديد.

لم تكن الكلمات تجسّد له شخص الشيخ تقي الدين أو أي شخص آخر، بل كانت تبدد له الكثير من إشارات الاستفهام التي عششت في داخله منذ أن كان صغيراً ولم تجد ما يمكن أن يمحوها ويجلو الصدأ المتراكم من تجمّعها.

لم تكن العبارات شخصية أو فردية بل على العكس تماماً، كانت عبارات ممتدة منزهة عن الفردية تتحدث عن الخالد الذي لا يفنى، تهرب من كل مجد شخصي وتبث الحياة في إعادة وصف الله، ترمي كل ما هو في الخارج وتركز على كل ما هو في الداخل، تهجر الأشياء والأشخاص وتمسح الغبار عن الجوهر الأصلي المحرك للروح.

الجوهر الفريد الموجود في أرواحنا جميعاً، الجوهر البراق الذي استقي أساساً من نفخة الله فينا.

لقد كان الشاب يغادر كل شيء ليصل إلى أرض الواصلين، بكلمات بسيطة لن تمسّ إلا شخصاً مثله هو.. مستعد لتقبلها بعدما انسحب وغرق في عالم متسامي صنعه فجأة بيديه وحلق في سماواته الفريدة.

لم يخرج حتى مع قلق والديه وطلبهما المتكرر أن يتناول طعامه، لم يكن يشعر بأي جوع، لم يكن جائعاً إلا لما يقرأ.

لم يعرف متى استبدّ به النوم، لكنه عندما استيقظ كانت الشمس قد ظهرت

والنهار ما قبل الظهيرة ، فنهض وغسل وجهه.

نظر نحو كنزه فوجده على وشك النفاد، لم يكن قد بقي له إلا الدفتر الأخير المنشود الذي حدده له الشيخ كي يكون آخر ما يقرأ ضمن المجموعة.

يومان تقريباً قد مرّا والقراءة متواصلة لم تتوقف، والآن وصل إلى الدفتر الأخير.

هل هو دفتر الحقائق ؟ فكر واصل وابتسم.

كان الإجهاد واضحاً على وجهه، قلّة النوم وقلّة الطعام والقراءة المستمرة رسمت ظلالاً حول عينيه ورمت شحوباً فوق وجهه الذي بدا أكثر نحولاً مما كان عليه منذ شهر أو شهرين.

لم يكن ليوقفه أي شيء عن البدء بقراءة الدفتر الأخير إلا زيارة شامل المفاجئة بعد حوار هاتفي جرى بينه وبين والد واصل عرف من خلاله بعزلة صديقه المقلقة وجاء على جناح السرعة بعد أن لمس الخوف والاضطراب في صوت الوالد.

رأى صديقه بحالة غريبة من الإعياء والاستكانة.

كانت الكتب والأوراق مبعثرة فوق سريره، وهو يجلس بينها وكأنه يحتضنها أو بصورة أكثر دقة هي التي تحتضنه وتحيط به.

لم يرض شامل ببقاء صديقه في المنزل، خاصة بعد أن عرف قصة فصله من عمله، بل أجبره تحت إلحاح لا يقبل التراجع أن يرتدي ثيابه ويخرج معه.

خرج مع صديقه، وتناولا الطعام سوياً.

عندما وضع أول لقمة في فمه شعر بجوع حقيقي يعصر معدته، وكأن جسده تذكر الآن فقط بأنه لم يقتت منذ يومين تقريباً.

حكى لشامل كل شيء، كل ما جرى معه خلال الأسبوع المنصرم، حكى له عن عبيد ولقائه بالعجوز وردّ الفعل العجيب الذي وجده من الاثنين.

حكى له عن تقي الدين وعن ورود، واستفاض في الحديث عن ورود كما لم يفعل في أي حديث من قبل عن أي فتاة، ثمّ حكى أخيراً عن المصنفات العجيبة التي ألقتها ورود بين يديه نقلاً عن والدها الشيخ.

أخبر صديقه عن حاجته الماسة للقاء الشيخ بعد كل ما قرأ، وعن تكشف العديد من الحقائق له من خلال الكلمات التي أرته الدنيا بوجه آخر. كان جلياً لشامل أن

صديقه يتكلم بانفعال غير متوازن تماماً، و أنه يرزح تحت ضغط خفيّ أدخله في دوامة ضيقت الخناق عليه بشكل سلبي بعض الشيء، فقرر ملازمته خلال النهار كلّه كي يبعده قليلاً عن العودة إلى القراءة لعلّ نفسه تهدأ قليلاً و يستعيد بعضاً من توازنه المفقود قبل إتمام بحثه.

ولذلك لم يجد مفرّاً من إجباره بالحيلة تارة وبالإلحاح تارة أن يرافقه إلى المركز كي يساعده ببعض الرسائل التي يجب على شامل ترجمتها خلال عدة ساعات و إرسالها قبل انتهاء ساعات دوامه.

لم تكن طبيعة واصل اللينة لتعرف الرفض المتمنع ولذلك فقد وافق، و بقي حتى ساعة متأخرة من الليل ملازماً لصديقه الذي تقصّد إغراقه في بعض العمل والترجمات إمعاناً منه في دفعه بعيداً عمّا كان فيه.

عندما عاد إلى المنزل ليلاً لم يجد في بدنه القدرة على قراءة أي شيء، كانت حاجته للنوم تفوق كل الحاجات، فنام على الفور نوماً عميقاً.

.٣٢.

استيقظ صباحاً و قد فاتته أيضاً جلسة أبي العطاء. لكنه كان أفضل حالاً مما كان عليه بالأمس بعد أن أعاد إليه النوم العميق نشاطه المفقود و بث الحيوية في أوصاله، فنهض و قرر تناول الإفطار مع والديه وقد أدرك ما سببه لهما من قلق خلال الأيام الماضية.

بعد الطعام كانت الطمأنينة قد عادت لجميع أهل البيت فتيقن واصل أن الوقت الملائم لإخبار والده باضطرابات العمل قد حان.

أخبره عن قراره بترك الشركة، و عن نيته الجدية بامتهان الترجمة أو التدريس.

لم يعارضه الوالد، بل أبدى استعداده التام للمساعدة في أمر التعيين الوظيفي في المدارس نظراً لمنصبه الوزاريّ المعنيّ و المسؤول عن هذا الموضوع بالتحديد.

كان المهمّ بالنسبة للسيد عارف أن يطمئن بشأن ولده، بعد أن أقلقه كل ما رآه بادياً عليه من اضطرابات و تغيرات لأسابيع مضت كان محصلتُها يومين عاش خلالهما في جحيم مع زوجته من شدّة قلقهما على ابنهما المنسحب، واستطاع الآن فقط أن يعزو كل ما حدث للاضطراب الوظيفي في حياة الشاب، فهدأت نفسه وتنفس الصعداء ووافق على الفور بل و قدم دعمه السريع بشأن تغيير المهنة.

خرج واصل من المنزل بعد ذلك مباشرة، حاملاً معه الدفتر الأخير.

شعر براحة و اطمئنان و حرية واسعة الأطياف.. فقصد حديقة عامة قديمة كانت تصطحبه والدته إليها عندما كان طفلاً.

انتقى مقعداً خشبياً تحت شجرة صفصاف عتيقة وارفة الظلال، وجلس ليكمل ما بدأ.

كان الدفتر من القطع المتوسط، يبدو جديداً نسبياً، دفتر ملاحظات من دفاتر الجيل الحالي بعكس الدفاتر الأولى ذات المظهر القديم، مما أكّد لواصل فكرة كتابته الحديثة.

في أول صفحة و قبل أن تبدأ السطور بالتراكم قرأ واصل سطراً جعله يفكر في معناه بضع دقائق قبل أن يبدأ رحلته الأخيرة في عالم تقي الدين:

_ (كن لما لا ترجو أكثر رجاء منك لما ترجو فإن كليم الله موسى ذهب ليقبس ناراً فعاد بالرسالة).

قلّب المعاني و غاص في تشكيلاتها السحرية المتغيرة، لم يكن من الممكن فهم هذه العبارة بظاهرها دون الولوج إلى عالم الاحتمالات اللفظية و ما يمكن أن تأتي به من تأويلات.

فتح بعد ذلك الصفحة الأولى و بدأ القراءة المتأنية مغموراً بانعكاسات النور المتسللة عبر الأوراق الخضراء المحلقة فوق رأسه.

لن نتكلم كثيراً عن محتوى ذلك الدفتر، يكفي أن نقول أنّ كلّ كلماته كانت بشكل ما موجهة لقارئها، هذا ما شعر به الشاب الذي يقرأ تارة و يتوقف تارة.. بحثاً عن التأويل، و دهشةً من إحساسه المفرط بالكلمات.

كان إحساسه عارماً بأنّ كلّ كلمة مما يقرأ موجهة إليه بشكل خاص، إحساسه المفعم بصوت الكاتب كان مختلفاً عما قرأه خلال اليومين الماضيين، استطاع وبشكل أكيد استحضار تقي الدين من خلال تلك السطور، كان كأنّه يتحدث بشخصه أمامه، حتى هيّأ له أنه أدرك صوته بطريقة ما.

لن نقول إنّ هذا كان حقيقياً أم وهماً، فقد كان الشاب على أية حال مارّاً بتجربة روحية فريدة من الممكن لها أن تهيئ المناخ الملائم لأيّ نوع من أنواع الإرهاصات التي لا يقبلها العقل الإنساني.

لكنه وبشكل قاطع كان يستطيع سماع صوت الكلمات كلما تقدم في قراءتها أكثر. إنْ كان للكلمات صوت. كان صوتا مألوفاً، قريباً، تفوح منه رائحة الرأفة و الطمأنينة المسالمة المشفقة.

لم يكن من الممكن تجاوز تلك الألفة المتماهية بالكلمات لدرجة تصاعد صوت صاحب تلك الكلمات بمجرد مرور عين القارئ فوق الحروف.

صفحات زاخرة بحكم هادئة، و دلالات ملغزة و مشروحة بآن معاً، و عبارات نهائية مستخلصة كماء مقطر تتركز فيها بحور المعاني التي تُطرح بسلاسة الحروف.

كلّما تقدم انتابه شعور بأنه المقصود بالكلمات وتعالى صوت الألفة في داخله، كلما تقدم تكاثرت القطع التي يضعها في مكانها واقتربت اللوحة من الاكتمال.

كان متحفزاً.. تقترب الصفحات من نهايتها ويقترب هو مما بدأ يخيفه، ويجعل أوصاله ترتجف.

حتى وصل الصفحة الأخيرة كان لا يزال في شكّ ولبسٍ، لكنّ ما قرأه بعد ذلك جعله يدرك كل شيء دفعة واحدة:

_ (وهاهي الأمنية الأبدية تتحقق مجدداً، يلوح الموت في الأفق القريب، ينادي.. وأنا المستجيب، ألا مرحباً بالانتقال، ألا مرحباً بالعالم الرحب الفسيح.

هل تحققت تلك الأماني ؟ أم لعلّي وحيدا أعاني ؟ في خلوتي أمضي، وأنسج صعب المعاني ؟

الأمنية تتحقق .. الرؤية تتحقق.. كلما استخدم الله.. عبد الله.. تقي الدين.

أتركْ أمنيتي.. وارجع أنت إلى أمانيك..

ابحث عن أصل اليقين.. كي تصبح واصلاً.. حقيقياً.. قبل كل الواصلين).

قرأ اسمه عدة مرات، ثم أعاد قراءة المقطع.. مرّة .. ثمّ مرّة بعد مرّة..

هبّت نسمة هواء قلبت الصفحات بين يديه المتجمدتين تحت وطأة الذهول.

تراكمت الأحداث في دماغه بسرعة البرق.. كلمات و صور وأشخاص و أحداث.. كانت الصورة واضحة حتى أقصى الدرجات، لكنّه لم يكن ليستطيع رؤيتها.

نهض وركض، ركض سريعاً. لم يركب سيارة أجرة ولم يستقل حافلة، بل ركض، كان بحاجة غريزية لتفريغ كل طاقات اندفاعه وهيجانه في تلك اللحظة بركض طويل.

وصل المشفى وصعد على الفور، لم ينتظر المصعد بل اعتلى الطوابق الأربعة قفزاً، كان مجهداً مضطرباً، وقد أصابته حالة من هياج وذعر، كان يريد أن يرى العجوز بأي ثمن.

وصل الغرفة فوجد بابها مفتوحاً، توقف للحظة ولم يجرؤ على الدخول.

أخذ نفساً عميقاً و منع نفسه من البكاء، تقدم ببطء فانفرجت أمامه الغرفة الغارقة بنور الشمس المعتاد.

كان السرير قد عاد إلى مكانه الأصلي بعيداً عن النافذة، وقد بدا أكثر اتساعاً بعد

أن فرغ من الجسد الضعيف الذي استلقى فوقه لمدة طويلة.

توجه واصل نحو غرفة التمريض، اقترب من المكتب و سأل الممرضة الموجودة بصوت مبحوح:

_ أين المريض.. تقي الدين.. في الغرفة 411 ؟

ردت الفتاة باعتذاروحاولت الابتعاد عن البرود:

_ البقاء لله، أنا آسفة.

_ متى ؟

_ أمس مساءً.

هزّ رأسه وساربباتجاه الغرفة مرة أخرى.

دخل إليها.. جلس فوق السرير.. وضع رأسه بين يديه ثمّ أخذت تصدرعنه شهقات مكتومة بحرقة، انتهت بنشيج مخنوق غرق بعدها في بكاء طويل يكاد لا ينتهي.

.٣٣.

تُغسَلُ الروح أحياناً بدموعها، وتجد العزاء في تواصلها مع العالم الحقيقي المختبئ تحت رداء الواقع المكرر.

تتجدد وتعيد إنتاج نفسها وصياغة تشكلها من جديد كما تبزغ البراعم من رحم الجذع القاسي وتتشكل الأوراق والزهور فوق النهايات المستحيلة للأغصان.

عرف واصل أن العجوز هو الشيخ تقي الدين، الشيخ الذي كان تحت ناظريه طيلة الوقت.

لم يكن من السهل عليه تجاوز ما حدث، وخاصة بعد الكمّ الهائل من الحسرة المتشكلة في صدره نتيجة تأجيله رؤية العجوز و خسارته مقابلة تقي الدين بعد كشف شخصيته.

كان من الممكن أن يلحق به لولم يذهب مع شامل، لولم يؤجل قراءة الدفتر الأخير إلى اليوم التالي، لكنّ القدر المحتوم كان قد رُسِم بهذا الشكل.

لقد أخبره العجوز إلماحاً بذلك يوم لقائه مع عبيد، لكنه لم يفهم إشارته.

استيقظ هذا الصباح.

عدة أيام قد مرّت بعد الرحيل و هو ما زال مستغرقاً في صمته وانقباضه داخل نفسه، كوردة جمعت بتلاتها ليلاً و أغلقتها على كل ما فيها كي تنام، لكنها في الوقت ذاته تستعد من خلال انقباضها هذا كي تطلق نفسها بكل عطرها وطاقاتها من جديد باتجاه العالم الخارجي في اليوم التالي.

كانت الدفاتر والكتب والأوراق معدّة للتسليم، لكنه قرر تركها لبعض الوقت قبل أن يعيدها لورود، بعد أن نسخ الدفتر الأخير كاملاً، واحتفظ به.

لم يعرف إن كان عليه إخبار الفتاة أم لا ؟ لم يعرف ما الذي ينبغي عليه قوله؟ لكنّ الدفء الكامن في صدره تجاهها . خاصة في ظلّ قصة والدها . جعله يفلت هذا الأمر دون أن يتخذ قراراً بشأنه، بل فضّل تركه ليسير كما أراد الله له أن يسير، وفي حينه.

بقي هذا الصباح في غرفته، يراقب السماء ويترك المجال لخلايا نفسه بالتجدد.

لم يكن بحاجة إلاّ للوقت كي يعود من جديد إلى نفسه، كي يعيد تنظيم أموره و ترتيب أولوياته.

كان كلما مرّ نهارجديد استعاد جزءاً من توازنه المفقود وتوضحت له الرؤية بشكل أكبر.

في هذا الصباح كان أكثرهدوءاً و أقل حزناً.

لم يكن هذا النهارليختلف عن سابقه بشيء، كان مشابهاً لكلّ تلك الأيام التي مرّت منذ وفاة العجوز.

ولولا أن أمراً استثنائياً قد حدث خلاله لظلّ مجرد نهارعاديّ من تعداد النهارات المتشابهة التي تمرّ بعد الصدمات أوفترات الحزن أو الحداد.

كان يجلس أمام نافذته المفتوحة.. تتناغم الأفكار في رأسه مع اتساع فسحة السماء التي يراها من مكانه: عمله، حياته، طريقه، بحثه عن أمنيته الخاصة به هو هذه المرة، جلسات أبي العطاء التي انقطع عنها، والداه، و أخيراً... ورود.

فكرّ قليلاً.. لواستبدلت الأماكن.. ما الذي يمكن أن يطلبه كأمنية أخيرة لوكان هو في مكان العجوز؟ هل سيطلب الطلب نفسه ؟ أم تراه سيطلب شيئاً آخر ؟ ثمّ فكر أبعد من ذلك عما يمكن أن تكون أمنيته في هذه اللحظة تحديداً ؟ ما الذي يمكن أن يتمناه الآن؟

أغمض عينيه فظهر بريق لدمعة تختفي تحت الجفن المسدل، استطاع مسحها سريعاً عندما سمع نقراً خفيفاً على باب غرفته، نقراً سيحول هذا الصباح العاديّ كي يصبح بداية جديدة لعالم فسيح ذي آفاق رحبة لا نهاية لاتساعها.

لم ينهض لفتح الباب، حتى بعد أن سمع تكرارالنقرعدة مرات، بل انتظرفي مكانه، متوقعاً أن استئذاناً ملحاً كهذا لم يكن ليصدرعن والديه.

فُتِحَ الباب بعد ذلك بهدوء.

كان الزائرهوعبيد.

نظرواصل إليه مليّاً. لم يكلمه ولم ينهض لاستقباله، ولم تظهرعلى وجهه أيّ من علامات التجهم أو الغضب، بل بقي على هدوئه وصمته.

تقدم عبيد وجلس بجانبه.

لم ينبس ببنت شفة بل ترك السلام الصامت يغلّف الغرفة لدقائق طويلة مرّت بسلاسة بعيداً عن أي توتر.

ولعلّ ذلك السكون اللطيف لم يتغير بل ظلّ يغلف فضاء الغرفة حتى بعد أن قطع عبيد غلالة الصمت وقال أخيراً بصوت مبحوح.. منخفض وواضح بأن معاً:

ـ واصل ... حدّثني عن الله.

تمت .

بتكتب رواية أو قصص أو مقال ..
بالفصحى , بالعامية أو حتى بالأنجليزى ..
بتحب تكتب , أو تعرف حد بيحب يكتب , كلمنا ..
هنعمل كل اللى نقدر عليه عشان نساعدك تحقق حلمك وتكون كاتب معروف ..
لأن فى كيان , للإبداع مكان ..

اتصل بينا على :
محمول: 01005248794 - 01001872290 - أرضي: 0235688678
www.kayanpublishing.com

وابعتلنا على :
info@kayanpublishing.com

وتابعنا :
-كيان للنشر والتوزيع

www .Facebook.com/kayan.publish
Twitter.com/kayanpublishing
www.pinterest.com/kayanpubishing
instagram.com/kayan_publishing